الدُّكتور

مهنّا بلال الرَّشيد

علوم الدَّلالة

تصنيفها وتطبيقاتها

في الأدب والفنّ والسِّياسة والحياة





الطَّبعة الثَّانية



علوم الدَّلالة

تصنيفها وتطبيقاتها

في الأدب والفنِّ والسِّياسة والحياة

الدُّكتور مهنَّا بلال الرَّشيد

علوم الدَّلالة (تصنيفها وتطبقاتها)

في الأدب والفنِّ والسِّياسة والحياة



شُرُفات للنَّشر والدِّراسات

الطَّبعة الثَّانية، مصر، 2021م

عدد الصَّفحات 225، القياس: 16×24

ISBN: 978-605-70561-9-1

لوحة الغلاف من الفنِّ العالميِّ

مواقع التَّواصل الاجتماعيِّ

Shurufat.net	
Shurufat@yahoo.com	مواقع
شرفات للنشر والدراسات	التَّواصل
شرفات لنشر الدراسات	الاجتماعيِّ
مجلة المنصة للعلوم واللغات والآداب	

المحتوىٰ

علوم الدَّلالة (تصنيفها وتطبيقاتها)

في الأدب والفنِّ والسِّياسة والحياة

	قالوا عن الكتاب	٩-١٠
	مقدِّمة الطَّبعة الثَّانية	١١-١٣
	مقدِّمة الطَّبعة الأولىٰ	١٥-١٨
	الفصل الأوَّل مرجعيَّات علوم الدَّلالة وتصنيفها ومجالات تطبيقها	٢٠-٧٧
١	تمهيد	٢١-٢٣
٢	تأسيس نظريٌّ موجز	٢٣-٣٠
٣	مرجعيَّات علوم الدَّلالة	٣٠-٤٠
أ	مرجعيَّة فرديناند دو سوسير (F.de Saussure) (١٨٥٧-١٩١٣م.)	٣٢-٣٤
ب	المرجعيَّة الثُّلاثيَّة من أفلاطون (Plato) (٣٤٧-٤٢٧ ق.م) حتَّىٰ تشارل كاي أوجدن (Ch.K.Ogdan) (١٨٨٩-١٩٥٧م.) وإيفور أرمسترنج ريتشاردز (I.A.Richards) (١٨٩٣-١٩٧٩م.)	٣٤-٣٦
ج	مرجعيَّة رومان ياكوبســون المختلطة (Roman Jakobson) (١٨٩٦-١٩٨٢م.)	٣٦-٣٧
د	مرجعيَّتا تشارل بيرس (Ch.S.Peirce) (١٨٣٩-١٩١٤م.) وتشارل موريس (Ch.W.Morris) (١٩٠٣-١٩٧٩م.) بين الرُّباعيَّة والخماسيَّة	٣٧-٤٠
٤	نحو تصنيف موضوعيٍّ لعلوم الدَّلالة	٤٠-٧١
٥	تفسير العلامات وقراءة الأدلَّة وتحوُّلاتها الرَّمزيَّة	٧١-٧٥
٦	خاتمة الفصل ونتائجه	٧٥-٧٧

	الفصل الثَّاني علم الدَّلالة القديم مفهومه، نشأته، مصادره، ومجالات تطبيقه	١٣٣-٧٨
١	مدخل إلىٰ علم الدَّلالة القديم	٨٢-٧٩
٢	مصطلح علوم الدَّلالة بين فلسفة اللُّغة وفلسفة الكتابة	٩٣-٨٢
٣	مصادر علم الدَّلالة (المرويَّات واللُّقىٰ الأثريَّة)	١٠٠-٩٣
٤	علم الدَّلالة من اختراع الكتابة إلىٰ وثيقة وليام جونز (**William Jones**) (١٧٤٦-١٧٩٤م.)	١٠٦-١٠٠
٥	أهمُّ مصادر علم الدَّلالة في حضارات الشَّرق القديم	١٠٩-١٠٦
أ	شريعة حمورابي (**Hammurabi**) (١٧٩٢-١٧٥٠ قبل الميلاد)	١١١-١٠٩
ب	رسائل تلِّ العمارنة	١١٥-١١١
ج	كتاب كليلة ودِمْنة	١٢٠-١١٥
د	التَّرجمة السَّبعينيَّة للتَّوراة أو العهد القديم	١٢٥-١٢٠
هـ	جَمْعُ القرآن بين التَّدوين ومنهج علم الدَّلالة الحديث	١٣٠-١٢٥
٦	خاتمة الفصل ونتائجه	١٣٣-١٣٠

	الفصل الثَّالث علم الدَّلالة الأنثروبولوجيُّ (دراسة حيويَّة في خلق الإنسان ونشأة اللُّغة بين البيولوجيا والميثولوجيا)	١٣٤-١٥٨
١	من الأنثروبولوجيا الدَّلاليَّة إلىٰ علم الدَّلالة الأنثروبولوجيِّ	١٣٥-١٣٧
٢	بداية الكون	١٣٨-١٣٨
٣	خلق الإنسان بين الجغرافية والتَّاريخ (نشأة اللُّغة بين البيولوجيا والميثولوجيا)	١٣٨-١٤٥
٤	وعلَّم آدم...تأويل أنثروبولوجيٌّ جديد	١٤٥-١٥٣
٥	التَّطوُّر الدَّلاليُّ والتَّحوُّل الرَّمزيُّ من منظور أنثروبولوجيٍّ	١٥٣-١٥٥
٦	علم الدَّلالة الأنثروبولوجيُّ	١٥٥-١٥٧
٧	خاتمة الفصل ونتائجه	١٥٧-١٥٨

	الفصل الرَّابع علم الدَّلالة النَّصِّيُّ (تأويل النُّصوص بين الفيلولوجيا والأيديولوجيا)	١٦٠-١٨١
١	مقدِّمة تاريخيَّة موجزة	١٦١-١٦٦
٢	من أين نبدأ؟	١٦٦-١٦٧
٣	مفاتيح علم الدَّلالة النَّصِّيِّ ومصطلحاته	١٦٧-١٦٨
أ	علم الدَّلالة	١٦٨-١٦٨
ب	الدَّالُّ	١٦٨-١٦٨
ج	المدلول	١٦٩-١٦٩
د	السِّياق والمرجع	١٦٩-١٦٩
هـ	النَّصُّ وعلم الدَّلالة النَّصِّيُّ	١٧٠-١٧٢
٤	التَّأويل بين الأيديولوجيا والفيلولوجيا ومُقارِباتها	١٧٢-١٧٦
٥	أثر الأيديولوجيا ومزالق التَّأويل الفيلولوجيِّ	١٧٦-١٧٧
أ	أثرها في المرسِل	١٧٧-١٧٨
ب	أثرها في الرِّسالة	١٧٨-١٧٨
ج	أثرها في المُستقبِل أو المؤوِّل	١٧٨-١٨٠
٦	خاتمة الفصل ونتائجه	١٨٠-١٨١

	الفصل الخامس علم الدَّلالة الجيوسياسيُّ (دراسة حيويَّة في العوامل المؤثِّرة في توجيه الشُّعوب وقيادتها)	١٨٢-٢١٠
1	مدخل إلىٰ علم الدَّلالة الجيوسياسيِّ	١٨٣-١٨٦
٢	علم الدَّلالة الجيوسياسيُّ (مفهومه ومصادره)	١٨٦-١٨٧
	مصادر علم الدَّلالة الجيوسياسيِّ	١٨٧-١٩٦
أ	فقه اللُّغة المقارن	١٨٧-١٩٠
ب	الجغرافية السِّياسيَّة	١٩٠-١٩٦
٣	موقع الإنسان في علم الدَّلالة الجيوسياسيِّ	١٩٩-٢٠٣
٤	علم الدَّلالة الجيوسياسيُّ من قلب الأرض إلىٰ قلب اللُّغة	٢٠٣-٢٠٧
٥	اللُّغة والوعي السِّياسيُّ	٢٠٧-٢٠٩
٦	خاتمة الفصل ونتائجه	٢١٠-٢١٠
٧	خاتمة الكتاب	٢١١-٢١٣
٨	ثبت المصادر والمراجع	٢١٤-٢٢٤

قالوا عن الكتاب

قالوا عن الكتاب:

هذا كتاب ثريٌّ في موضوعاته، غنيٌّ في مناقشاته، يُمثِّل رحلة شيِّقة في بحر (**علم الدَّلالة**)؛ إذ خاض بين مسائل المرجعيَّات الأساسية لهذا العلم، ثمَّ تناول بشكل رائع أوَّليَّات العلم في الحضارات الشَّرقيَّة، من ثمَّ عالج قضيَّة بينيَّة شديدة الأهمِّيَّة في وقتنا الرَّاهن؛ هي أنثروبولوجيا اللُّغة بين الكون والإنسان، وقدَّم طرحًا مميِّزًا حول ذلك، ثمَّ عالج الكثير من القضايا المنوَّعة ذات الصِّلة بعلم الدَّلالة، بصورة متكاملة، وبعبارة رصينة، تدلُّ على باحث متمكِّن فيما يكتب، مُتبحِّر فيما يعالجه من مسائل العلم.

د.عبد الرَّحمن طعمة

قسم اللُّغة العربيَّة، كلِّيَّة الآداب، جامعة القاهرة.

كتاب (**علوم الدَّلالة؛ تصنيفها وتطبيقاتها في الأدب والفنِّ والسِّياسة والحياة**) يفكِّك إشكاليَّة قديمة-جديدة، تتمثَّل في تطوِّر علوم الدَّلالة بوصفها نظريَّات للمعنى، تطوَّرت بتطوِّر علوم العصر وخلفيَّاته العلميَّة والفلسفيَّة، من ثمَّ أدعو القارئ العربيَّ أن يعيد بناء الدَّلالة النِّسبيَّة لهذا الكتاب المهمِّ انطلاقًا من مبدأ أساس في العلوم الدَّلاليَّة التَّشييديَّة الجديدة: (المعنى يُبنى، ولا يُعطى).

د.إسماعيل شكريُّ

باحث في المعرفيَّات Cognitivist

Choukismaine@gmail.com

يتضمَّن هذا الكتاب عرضًا بانوراميًّا لتاريخ علوم الدَّلالة وتصنيفاتها، ويميِّز تعريف الدَّلالة الضِّمنيَّ واستخداماتها في اللُّغة من علم الدَّلالة الخاصِّ باللُّغة واللِّسانيَّات، الَّذي ظهر في بدايات القرن العشرين مع دو سوسير (**F.de Saussure**) (**1857-1913**م). أفضَلُ درس يمكن تعلُّمه من الكتاب: كيف أنَّ اللُّغة ليست حياديَّة، وكيف أنَّ علوم الدَّلالة نفسها ما زالت تحبو على طريق العلم... يتطرَّق الكتاب لتأثير الانحيازيَّات الثَّقافيَّة المقصودة واللَّا-شعوريَّة في علم الدَّلالة، ويدافع الكتاب عن علم الدَّلالة بوصفه الطَّريق الأفضل لكشف الانحياز الأيديولوجيِّ والتَّوظيف السِّياسيِّ الماكر للخطابات والنُّصوص.

د.حمزة رستناويُّ

مقدِّمة الطَّبعة الثَّانية

لم يكن العمل علىٰ تقصِّي علوم الدَّلالة سهلًا، وبرغم الإشارات الكثيرة الَّتي تكشف عن تعدُّد هذه العلوم وتنوُّعها في وقتنا الرَّاهن بما يشبه تعدُّد علوم القرآن وتزايدها فقد ظلَّ الباحثون في ميدان علوم الدَّلالة يطلقون علىٰ بحوثهم وكتبهم اسم: (علم الدَّلالة)، وقد حاول بعضهم ضبط العنوان بالحديث عن (علم الدَّلالة المعجميِّ) حينًا، أو (علم الدَّلالة التَّطبيقيِّ) أو (علم الدَّلالة النَّحويِّ) حينًا آخر، غير أنَّني لم أجد بينهم مَن جمع علوم الدَّلالة أو بعضها في مؤلَّف واحدٍ نظرًا لوعورة البحث العلميِّ وصعوبته في هذا الميدان؛ ولأنَّ الحصافة العلميَّة تقتضي علىٰ من يطلق علىٰ كتابه اسم (علوم الدَّلالة) أن يُعدِّد هذه العلوم، أو يعدِّد بعضها علىٰ أقلِّ يقدير، فقد عقدتُ العزم للبحث فيما عزف عنه باحثون كثيرون من قبلي، ورحتُ أشرح أسباب تعدُّد علوم الدَّلالة، وأتحدَّث عن تصنيفها ومجالات تطبيقها أيضًا، ولعلَّ القارئ الكريم يدرك أنَّ هذا النَّوع من البحث يحتاج إلىٰ وقت طويل، وكثير من التّقصِّي العلميِّ الدَّقيق.

شرعتُ أتتبَّع علوم الدَّلالة، وأقتفي أثرها قبل صدور الطَّبعة الأولىٰ من هذا الكتاب بعقد من الزَّمن تقريبًا، وبرغم اكتفائي بتعداد علوم الدَّلالة وشرح خمسة منها، بعد الحديث عن تصنيفها ومجالات تطبيقها وتعدُّد مرجعيَّاتها وأسباب اختلاف التَّأويل وتعدُّدها فقد راج هذا الكتاب، وانتشرت نسخته العربيّة في كثير من بلدان الوطن العربيِّ لدىٰ المشتغلين في مجالات التَّأويل

والدَّلالة من باحثين في اللُّغة والأدب والفنَّ والفلسفة والتَّاريخ والآثار والسِّياسة وعلوم الدِّين والاجتماع والأنثروبولوجيا وغيرها؛ فنفدت طبعته الأولىٰ بعد شهادات علميَّة قيِّمة أعتزُّ بها، وضعتُ بعضها في مقدِّمة الكتاب، وقرَّرتُ نشر الطَّبعة الثَّانية من علوم الدَّلالة، برغم انطلاقتي في كتاب جديد، وشروعي بتفصيل القول في بعض من علوم الدَّلالة الأخرىٰ الَّتي اكتفيت بالحديث الموجز عنها في هذا الكتاب؛ مثلما نعمل الآن علىٰ ترجمة النُّسخة العربيَّة الأصليَّة منه إلىٰ اللُّغة الإنكليزيَّة، علىٰ أمل أن يستفيد منه العاملون في التّأويل والدَّلالة في ميادين البحث العلميِّ المتعدِّدة، والحقُّ أنَّ العمل في التَّأويل والدَّلالة عمل متعب نظرًا لحركيَّة المعنىٰ، وتعدُّد مرجعيَّات التّأويل، واتِّساع أبواب العلوم الدّلاليَّة باتِّساع مجالات الحياة في وقتنا الرَّاهن.

سوف يُستكمل البحث في علوم الدَّلالة المشار إليها في هذا الكتاب بجهود قادمة، وآمل أن يأتي باحثون آخرون؛ ليشمِّروا عن ساعد الجدِّ، ويفصِّلوا القول في بعض من إشارات هذا الكتاب، وإنِّي لآنس بهم لأنَّني مازلت أحفر بإزميل الكدِّ عن ملامح هذا العلم أو تطبيقات ذاك من علوم الدَّلالة الكثيرة، ولعلِّي أضفت لبنة إلىٰ المعرفة الإنسانيَّة، وحقَّقتُ الغاية المرجوَّة أو بعضها بعد نفاد الطَّبعة الأولىٰ من الكتاب، ومن خلال طبعته الثَّانية الَّتي أضعها بين أيديكم الآن؛ ولأنَّ هذا المشروع الدَّلاليَّ الكبير يستكمل من خلال التَّرجمة وكتابة الأبحاث الأخرىٰ، لم أُعدِّل في طبعة الكتاب الثَّانية غير غلاف الكتاب الخارجيِّ، وإضافة هذه المقدِّمة الموجزة إلىٰ الطَّبعة الثَّانية، وآمل للقارئ الكريم أن يجد في هذا الكتاب ضالَّته أو غايته العلميَّة المنشودة،

ولعلَّه يلتمس لي العذر إن وجد شيئًا من التَّقصير في بعض من أبواب هذا الكتاب أو فصوله الَّتي تحتاج إلىٰ مزيد من الشَّرح والتَّفصيل في بحوث دلاليَّة-تأويليَّة قادمة.

د.مهنَّا بلال الرَّشيد

2021م.

مقدِّمة الطَّبعة الأولىٰ

لا يخالف هذا الكتاب آراء القائلين بحداثة علم الدَّلالة وازدهاره في القرن التَّاسع عشر وحسب، بل يبرهن علىٰ قِدم علم الدَّلالة واصطلاح البشر -منذ أقدم مراحل وجودهم-علىٰ رموز وعلامات وأيقونات؛ لها دوالُّها ومدلولاتها وسياقاتها ومرجعيَّات تأويلها أيضًا، وما العلامة والرَّمز والأيقونة والدَّالُّ والمدلول والسِّياق والمرجع إلَّا أركان علم الدَّلالة الحديث، الَّتي تتباهىٰ النَّظريَّات الدَّلاليَّة الحديثة بالكلام عليها، برغم أنَّ الكُتَّاب القدماء ومنظِّري علم الدَّلالة القديم أصَّلوا لهذه العلامات والدَّوالِّ والمدلولات، ودبَّجوا مؤلَّفات قديمة مهمَّة لا يمكن فهمها وتأويلها دونما إقرار بأصالة علم الدَّلالة القديم لدىٰ تلك الشُّعوب وأولئك الأقوام والمؤلِّفين.

حين نمرُّ بمرحلة التَّفاعل السِّيميائيِّ ونحن نتأمَّل أقدم الجداريَّات في مصر والعراق وسوريا واليمن وشبه الجزيرة العربيَّة؛ نتوصَّل إلىٰ دلالات مهمَّة؛ نرجِّح أنَّ مدوِّني تلك اللَّوحات والجداريَّات أرادوا بعضها إن لم يكونوا قد قصدوها كلَّها، وحين نقرأ نصوص ملحمة جلجامش والنُّسخ القديمة من الكتاب المقدَّس وأناشيد الفيدا وأفستا؛ كتاب زرادشت وحوليَّات العراق الآشوريَّة ومراسلات مصر الفرعونيَّة ومعاجم العراق وإيبلا الأكديَّة بالحرف المسماريِّ نوقن بازدهار علم الدَّلالة القديم منذ ما لا يقلُّ عن **٢٥٠٠** سنة قبل الميلاد؛ فلماذا نكرِّر آراء بعض المعاصرين؛ الَّذين يقولون بحداثة علم الدَّلالة؛ لأنَّهم لم يقرؤوا تلك المدوَّنات الشَّرقيَّة الفريدة قبل قولهم بحداثة علم الدَّلالة؟

لم يكتف هذا البحث بالتَّعريف بعلم الدَّلالة القديم، بل أحصينا في الفصل الأوَّل ثمانية وعشرين علمًا من علوم الدَّلالة؛ لكلٍّ واحد منها استقلاليَّته وتطبيقاته ورموزه وعلاماته ودوالُّه ومدلولاته في الحياة؛ وبرغم أنَّها تفرَّعت عن علم الدَّلالة القديم؛ فقد وصل كثير منها إلىٰ مرحلة الوجود المستقلِّ والانفصال عن الأصل نتيجة للتَّراكم المعرفيِّ عبر مرحلة زمنيَّة طويلة؛ وهذا ما دفعنا إلىٰ التَّعريف الموجز بها والحديث عن طرائق تصنيفها ومجالات تطبيقها في الأدب والفنِّ والسِّياسة والحياة في الفصل الأوَّل من هذا الكتاب. كيف ازدهرت الحضارات القديمة دون ازدهار علم الدَّلالة، الَّذي يساعدها علىٰ تدوين مؤلَّفاتها وتأويل مصطلحات العلوم ودوالِّها ومدلولاتها؟ وهل يمكن لها أن تبقىٰ علمًا واحدًا بعد هذه المرحلة التَّاريخيَّة الطَّويلة من التَّراكم المعرفيِّ؟ وكيف استقلَّ هذا العلم من علوم الدَّلالة عن أصله أو أشقَّائه من علوم الدَّلالة الأخرىٰ؟ وكيف نصنِّف علوم الدَّلالة ونرتِّبها في وقتنا الرَّاهن؟

تحدَّثنا في الفصل الثَّاني عن علم الدَّلالة القديم، وبيَّنَّا أنَّ هذا العلم قديم قِدم الإنسان ذاته، وأنَّه علم حركيٌّ لا سكونيٌّ؛ بمعنىٰ أنَّه علم يتطوَّر دائمًا؛ فتزداد العلامات الدَّالَّة في هذا الباب أو ذاك المجال من مجالات الحياة؛ حتَّىٰ تشكِّل علمًا قائمًا بذاته؛ تستقلُّ عن أصلها؛ وهكذا اتَّسع علم الدَّلالة وتشعَّب بتشعِّب مجالات الحياة وتعدَّد بتعدِّدها؛ فصار علومًا متعدِّدة في الدَّلالة لا علمًا واحدًا.

خدمت الدِّراسات الأنثروبولوجيَّة علم الدَّلالة القديم، ورفدته-من خلال تنقيباتها وبحوثها-بمجموعة من العلامات والدوَّالِّ والمدلولات

القديمة، الَّتي تحتاج إلىٰ دراستها وتأويلها من خلال الجمع بين معلومات كثيرة؛ ترتبط بالسِّياق التَّاريخيِّ والموقع الجيوسياسيِّ لتلك العلامات؛ فصارت القبور والعظام والمستحاثَّات واللُّقىٰ الأثريَّة علامات دالَّة؛ لذلك جاء الحديث عن علم الدَّلالة الأنثروبولوجيِّ في الفصل الثَّالث من هذا الكتاب، وكان رديفًا مهمًّا للكلام علىٰ علوم الدَّلالة الأخرىٰ؛ ولا سيَّما علم الدَّلالة القديم لأنَّ هذين العلمين كثيرًا ما يشتركان في القِدم والعراقة والأصالة والنُّزوع العلميِّ والنَّزعة العلمانيَّة أيضًا.

ينظر علم الدَّلالة إلىٰ النُّصوص والمرويَّات الشَّفويَّة واللُّقىٰ الأثريَّة القديمة بوصفها نصوصًا؛ لها علاماتها ودوالُّها ومدلولاتها وسياقاتها ومرجعيَّاتها، الَّتي تُعين علىٰ فهمها وتأويلها، وبرغم أنَّ النُّزوع الأيدولوجيَّ لدىٰ هذا المؤوِّل أو ذاك يدفع نحو تأويلات محدَّدة، تنزع الفيلولوجيا إلىٰ تأويلات علميَّة رصينة؛ ولهذا أفردنا الفصل الرَّابع من هذا الكتاب للتَّعريف بعلم الدَّلالة النَّصِّيِّ وتأويل النُّصوص بين الفيلولوجيا والأيديولوجيا.

شكَّلت الفصول الأربعة الأولىٰ من هذا الكتاب أرضيَّة مناسبة للحديث في الفصل الخامس والأخير عن علم الدَّلالة الجيوسياسيِّ، الَّذي يهتمُّ بقيادة المجتمع وتوجيه البشر وسياستهم والتَّأثير فيهم، ويحتاج المنظِّر فيه إلىٰ معرفة كثيرة بطباع البشر وخصائصهم وأديانهم ومعتقداتهم وثقافاتهم والعوامل السِّياسيَّة والاقتصاديَّة والتَّاريخيَّة والجغرافيَّة المؤثِّرة في حياتهم؛ وتبيَّن لنا أنَّ نصوص هذا العلم واسعة جدًّا، ولها سياقات متعدِّدة؛ يحتاج الباحث فيها والرَّاغب في تأويلها إلىٰ معرفة بكثير من العلوم الدَّلاليَّة السَّابقة قبل التَّصدِّي

لدراسة نصٍّ من نصوص علم الدَّلالة الجيوسياسيِّ؛ مع العلم أنَّ نصًّا واحدًا من نصوص هذا العلم قد يكون خريطة طوبوغرافيَّة أو سياسيَّة لموقع جغرافيٍّ يسكنه قوم ما، أو موقع أثريٍّ أو حقل نفطيٍّ أو مورد مائيٍّ تشرف عليه دولة، أو تتنازع عليه دول أو قوىً سياسيَّة أو عسكريَّة متعدِّدة؛ لذلك يستعين القادة بأصحاب الرَّأي السَّديد لتأويل هذا النَّوع من النُّصوص قبل اتِّخاذ هذا الموقف السِّياسيِّ أو ذاك.

د.مهنَّا بلال الرَّشيد

2020م.

	الفصل الأوَّل مرجعيَّات علوم الدَّلالة وتصنيفها ومجالات تطبيقها	٢٠-٧٧
١	تمهيد	٢١-٢٣
٢	تأسيس نظريٌّ موجز	٢٣-٣٠
٣	مرجعيَّات علوم الدَّلالة	٣٠-٤٠
أ	مرجعيَّة فرديناند دو سوسير (F.de Saussure) (١٨٥٧-١٩١٣م)	٣٢-٣٤
ب	المرجعيَّة الثُّلاثيَّة من أفلاطون (Plato) (٣٤٧-٤٢٧ ق.م) حتَّىٰ تشارل كاي أوجدن (Ch.K.Ogdan) (١٨٨٩-١٩٥٧م) وإيفور أرمسترنج ريتشاردز (I.A.Richards) (١٨٩٣-١٩٧٩م)	٣٤-٣٦
ج	مرجعيَّة رومان ياكوبسون المختلطة (Roman Jakobson) (١٨٩٦-١٩٨٢م)	٣٦-٣٧
د	مرجعيَّتا تشارل بيرس (Ch.S.Peirce) (١٨٣٩-١٩١٤م) وتشارل موريس (Ch.W.Morris) (١٩٠٣-١٩٧٩م) بين الرُّباعيَّة والخماسيَّة	٣٧-٤٠
٤	نحو تصنيف موضوعيٍّ لعلوم الدَّلالة	٤٠-٧١
٥	تفسير العلامات وقراءة الأدلَّة وتحوُّلاتها الرَّمزيَّة	٧١-٧٥
٦	خاتمة الفصل ونتائجه	٧٥-٧٧

١ تمهيد

يتحدَّث هذا الفصل عن عراقة علوم الدَّلالة وأصولها المشرقيَّة القديمة، ويكشف عن تعدُّدها في وقتنا الرَّاهن بسبب تراكمها المعرفيِّ واتِّساع أبوابها وفصولها خلال عصور زمنيَّة طويلة، ولعلَّ الحديث عن أصالة علوم الدَّلالة في المدوَّنات المشرقيَّة القديمة وتعدُّدها ردٌّ منطقيٌّ علىٰ كلِّ ما يقال عن حداثتها، وبرغم أنَّ حداثة علم الدَّلالة لدىٰ الأوروبِّيِّين لا تنفي أصالة هذا العلم وقِدمه لدىٰ المشرقيِّين فإنَّ إطلاق مصطلح: (الدِّراسات الدَّلاليَّة) علىٰ (علم الدَّلالة المشرقيِّ القديم) حينًا أو ربطه (بعلم الدَّلالة الأوروبِّيِّ الحديث) حينًا آخر لا يخفي نزوعًا سياسيًّا واضحًا، يهدف إلىٰ تغييب جهود المشرقيِّين أو مصادرتها، وتكوين رؤية أوروبِّيَّة خاصَّة؛ نظرًا لأهمِّيَّة علم الدَّلالة وارتباطه بتأويل الكتب المقدَّسة وتقسيم البشر إلىٰ شعوب وجماعات وفقًا لبعض النَّظريَّات السِّياسيَّة والعرقيِّة؛ ولذلك نرىٰ نفرًا من المفكِّرين الأوروبِّيِّين لا يبرحون عن ردِّ كثير من العلوم الحديثة إلىٰ (جمهوريَّة) **أفلاطون (Plato)** (**٤٢٧-٣٤٧ ق.م**) أو كتاب **أرسطو (Aristotle)** (**٣٨٤-٣٢٢ ق.م**) (فنِّ الشِّعر)؛ فلِمَ يصحُّ تأصيل بعض العلوم الحديثة بردِّ أصولها إلىٰ كلٍّ من أفلاطون وأرسطو مع عدم حديثهما صراحة عن تلك العلوم، ولا يصحُّ ذلك مع العلوم والمدوَّنات المشرقيَّة الَّتي ترجع إلىٰ أكثر من ألفي سنة قبل الميلاد؟ وكيف لكتَّاب المشرق القديم أن يدوِّنوا ملحمة **جلجامش (Gilgamesh)**، ويكتبوا أساطير الخلق والطُّوفان، ويترجموا شريعة **حمورابي**

(**Hammurabi**) (**١٧٩٢-١٧٥٠ ق.م**)، ويصنعوا لذلك علم الدَّلالة المعجميِّ في سورية ومصر والعراق القديمة دون وجود علم الدَّلالة القديم؟!

تؤكِّد مؤلَّفات **عبد الله بن المقفَّع (٧٢٤-٧٥٩م) وابن النَّديم (٩٣٢-٩٩٥م) والبيرونيِّ (٩٧٣-١٠٤٨م)** أصالة علم الدَّلالة القديم في المشرق، وتشكِّل مدوَّناتهم صلة وصل بين مؤلَّفات المشرق القديمة ومدوَّنات الغربيِّين الحديثة، الَّتي ظهرت بواكيرها لدىٰ كلٍّ من **وليام جونز (William Jones) (١٧٤٦-١٧٩٤م) وهردر (Johann Gottfried Herder) (١٧٤٤-١٨٠٣م) وشلوزر (August Ludwing von Schlozer) (١٧٣٥-١٨٠٩م) وسوسير (Ferdinand de Saussure) (١٨٥٧-١٩١٣م)** حين بنوا دراساتهم اللِّسانيَّة والدَّلاليَّة الحديثة علىٰ هامش بعض المدوِّنات المشرقيَّة القديمة؛ **كأناشيد الفيدا (Rigveda) والأفسته (Avesta)**، وإن دفعت السِّياسة والغيرة العلميَّة الباحثين الأوروبِّيِّين إلىٰ القول بنشأة علم الدَّلالة الحديث في أوروبَّا فإنَّ الباحث المشرقيَّ مدعوٌّ إلىٰ الكشف عن علم الدَّلالة والمدوَّنات الدَّلاليَّة المشرقيَّة القديمة، إن لم يفنِّد آراء علماء الدَّلالة الغربيِّين، ولعلَّ رغبتنا بالتَّعريف بأصالة علم الدَّلالة القديم في المشرق بعيدًا عن الآراء التَّقليديَّة أو الإشارة الخجولة إلىٰ بعض المدوَّنات الدَّلاليَّة المشرقيَّة القديمة أبرز ما يميِّز هذا الفصل، ولا سيَّما أنَّ علم الدَّلالة الحديث يؤكِّد أصالة علم الدَّلالة القديم لدىٰ المشرقيِّين حين بحثوا عن المعنىٰ بطريقة تنسجم مع تعريف علم الدَّلالة الحديث الَّذي يُعرَّف بأنَّه: علم البحث عن المعنىٰ من خلال العلاقة بين أركان

الدَّلالة الرَّئيسة؛ كالمرسل والرِّسالة والمتلقِّي والدَّالِّ والمدلول والمرجع والسِّياق.

٢ تأسيس نظريٌّ موجز

تكشف المكتبة العربيَّة الحديثة عن تنامي عدد البحوث والدِّراسات الدَّلاليَّة، غير أنَّ الزِّيادة الكمِّيَّة ظلَّت أكثر من الزِّيادة النَّوعيَّة برغم تعدُّد عناوين الدِّراسات الدَّلاليَّة وتنوُّعها، ولا سيَّما في أواخر القرن العشرين ومطلع القرن الحادي والعشرين، حيث اتَّجه كثير من المؤلَّفات الدَّلاليَّة نحو التَّنظير الدَّلاليِّ حينًا، ورغب أصحاب بعض المؤلَّفات بضبط المصطلحات حينًا آخر، ونزعوا إلىٰ الاستفادة من منهج النَّقد (الأسلوبيِّ-الدَّلاليِّ) في دراسة مدوَّنات جديدة وتأويلها، كما فعل أستاذي الدُّكتور **فايز الدَّاية** في عدد من بحوثه ومؤلَّفاته، وكذلك حاول أستاذنا الدُّكتور (**أحمد مختار عمر**) (**١٩٣٣-٢٠٠٣**.م) التَّجديد في ميدان البحث الدَّلاليِّ؛ فتحدَّث عن أثر البحث اللُّغويِّ لدىٰ الهنود في الدِّراسات اللُّغويَّة العربيَّة عمومًا، وترجم كتاب (علم الدَّلالة) **لفرانك بالمر** (**Frank R. Palmer**) (**١٩٢٢-٢٠١٩**.م)؛ فأتاح بذلك للبحث الدَّلاليِّ العربيِّ أن يطَّلع علىٰ علم الدَّلالة الأوروبِّيِّ الحديث، غير أنَّ هذه التَّرجمة وما شابهها من ترجمات كرَّست القول بحداثة علم الدَّلالة ونشأته الأولىٰ لدىٰ **ميشيل بريال** (**Michel Breal**) (**١٨٣٢-١٩١٥**.م)، وأسهمت في تكرار آراء الأوروبِّيِّين، برغم أنَّ قراءة كتاب (علم الدَّلالة) (لميشيل بريال) ذاته تكشف أنَّ المدوَّنات المشرقيَّة القديمة سبقته في الحديث عن المرسِل والرَّسالة والمتلقِّي والدَّالِّ والمدلول والمرجع والسِّياق، ولعلَّنا نجد في هذه

المدوَّنات المشرقيَّة جذور كثير من فروع علم الدَّلالة واللِّسانيَّات الحديثة؛ كعلم الدَّلالة المعجميِّ واللِّسانيَّات الجنائيَّة وعلم الدَّلالة الجنائيِّ، فقد كتب المشرقيُّون أسس التَّرجمة الدَّلاليَّة، ووضعوا قوائم لترجمة الدَّوالِّ والمدلولات من لغة إلىٰ أخرىٰ، وفنَّدوا زيفَ عملٍ قديم منسوب **لجلجامش (Gilgamesh)** غير ملحمة جلجامش الشَّهيرة، ونقدوا نحل الشِّعر وانتحاله أيضًا.

يتلقَّف الباحثون والمفكِّرون الغربيُّون أقوال **أفلاطون (Plato) (٤٢٧-٣٤٧ ق.م)** و**أرسطو (Aristotle) (٣٨٤-٣٢٢ ق.م)** و**القدِّيس أوغسطين (Augustine of Hippo) (٣٥٤-٤٣٠.م)**؛ وغيرهم، ويربطون العلوم الحديثة بهم حين يتحدَّثون عن نشأة الفلسفة وعلم الاجتماع لدىٰ أفلاطون والنَّقد الأدبيِّ لدىٰ أرسطو، ويشرحون بدايات علم التَّأويل وفلسفة التَّاريخ علىٰ يدي القدِّيس أوغسطين برغم عدم استخدامهم أسماء هذه العلوم أو مصطلحاتها؛ فـ (**فولتير Voltaire**) (**١٦٩٤-١٧٧٨.م**)-علىٰ سبيل المثال-كان أوَّل من استخدم مصطلح (فلسفة التَّاريخ) «لكنَّ هذا لا يعني عدم وجود فلسفة التَّاريخ لدىٰ من سبق فولتير»[1]؛ فلماذا يصحُّ الحديث عن أصول هذه العلوم لدىٰ الغربيِّين برغم عدم استخدامهم مصطلحاتها، ولا يصحُّ ذلك مع العلوم المشرقيَّة؟ ولِمَ لا تنحو الدِّراسات المشرقيَّة -عربيَّة وغير عربيَّة- هذا المنحىٰ؟ حيث تؤكِّد معاجم التَّرجمة والنُّقوش الأثريَّة

---

[1] مجموعة من المؤلِّفين، **فلسفة التَّاريخ (جدل البداية والنِّهاية والعود الدَّائم)**، ابن النَّديم للنَّشر والتَّوزيع، ط١، وهران، الجزائر ٢٠١٢.م، ص١٥٨.

بلغاتها القديمة المتعدِّدة ازدهار التَّرجمة بوصـفها قضـيَّة دلاليَّة، وتُبرهِن علىٰ شـيوع علم الدَّلالة المعجميِّ، وما ترجمة الكتب القديمة مثل كتاب كليلة ودمنة وترجمة المراسلات الدِّبلوماسيَّة؛ كرسائل تلِّ العمارنة إلَّا أدلَّة علىٰ هذا الازدهار الدَّلاليِّ، الَّذي تؤكِّده رُقُم الحضارات القديمة ونقوشها ومدوَّناتها في العراق وماري وإيبلا وأوغاريت ومصـر واليمن والجزيرة العربيَّة وغيرها؛ فهل اطَّلع مَن يُنسب إليهم تأسيس علم الدَّلالة الحديث علىٰ هذه الرُّقم والمدوَّنات الكثيرة؟ هل شـاهدوا مخطوطات القرآن الكريم وتفاسـيره القديمة؟ هل نظروا في نُسَخ (الأفستة) وشرحه (الزَّند أفسته) و(أناشيد الفيدا) و(الكتاب المقدَّس) بعهديه: القديم والجديد ومؤلَّفات عبد الله بن المقفَّع وابن النَّديم والبيرونيِّ؟ وإن اطَّلعوا علىٰ تلك النُّسـخ والمؤلَّفات وتفسـيراتها وتأويلاتها المتعدِّدة فما الأسباب الَّتي دفعتهم إلىٰ إغفال الحديث عن علم الدَّلالة القديم في المشـرق تنظيرًا وتطبيقًا برغم تلهُّفهم لربط كثير من العلوم بأصـول أوروبِّيَّة في مؤلَّفـات أفلاطون وأرسـطو وغيرهمـا؟ وهـل حقًّـا كُتبـت تلـك الشُّـروح والتَّفسـيرات وتأويلات المدوَّنات المشـرقيَّة كلُّها اعتمادًا علىٰ مباحث دلاليَّة متفرِّقة؟ وهل دُبِّجت تلك المؤلَّفات دونما وجود حقيقيٍّ لعلم الدَّلالة؟ وهل نستمرُّ في تكرار آراء السَّابقين في التَّأكيد علىٰ حداثة علم الدَّلالة بعد اكتشاف هذه المدوَّنات الدَّلاليَّة الكثيرة الَّتي أغفلها مَن يُنسَـب إليهم تأسـيس علم الدَّلالة الحديث لهذا السَّبب أو ذاك؟ أنكتفي بتعداد علوم الدَّلالة بعد تأكُّدنا من قِدَم علم الدَّلالة وتفرُّعه إلىٰ علوم دلاليَّة متعدِّدة في وقتنا الرَّاهن أم نعرِّف بها، ونشرح بعض جوانب تطبيقها ونسعىٰ إلىٰ تصنيفها وترتيبها؟

كيف ازدهرت الحضارات القديمة دون ازدهار علم الدَّلالة؛ الَّذي يساعدها علىٰ تدوين مؤلَّفاتها وتأويل مصطلحات العلوم ودوالِّها ومدلولاتها؟ وهل يمكن لها أن تبقىٰ علمًا واحدًا بعد هذه المرحلة التَّاريخيَّة الطَّويلة من التَّراكم المعرفيِّ؟ وكيف استقلَّ هذا العلم من علوم الدَّلالة عن أصله أو أشقَّائه من علوم الدَّلالة الأخرىٰ؟ وكيف نصنِّف علوم الدَّلالة ونرتِّبها في وقتنا الرَّاهن؟ لعلَّنا عقدنا هذا البحث للإجابة عن هذه الأسئلة الجوهريَّة في ميدان علوم الدَّلالة.

*****

يرتبط علم الدَّلالة بنظريَّة التَّواصل ارتباطًا وثيقًا إلىٰ الحدِّ الَّذي لا نتمكَّن فيه من الحديث عن التَّواصل دون أن نتحدَّث عن الدَّلالة وعلومها؛ لأنَّ توصيل الدَّلالة غاية كلِّ تواصل من خلال التَّفاعل السِّيميائيَّ بين علامات (المدوَّنة/ المرسَلة) ودوالِّها ومدلولاتها ومرسِلها ومتلقِّيها، وما نفعُ التَّواصل إن اقتصر علىٰ حدود الاتِّصال، وافتقد إلىٰ التَّفاعل السِّيميائيِّ والدَّلاليِّ بين المرسل المتلقِّي؟ وما الفائدة من الإرسال إذا وصلت الرِّسالة إلىٰ المتلقِّي دونما استجابة لتأثيرها بردَّة فعل ما؟ وهكذا يبدو لنا أنَّ الاتِّصال غريزة لدىٰ الكائنات الحية كلِّها؛ كالحيوانات والطُّيور والحشرات؛ غير أنَّ التَّواصل الدَّلاليَّ والتَّفاعل السِّيميائيَّ يميِّز التَّواصل البشريَّ من أنواع الاتِّصال الأخرىٰ؛ لذلك يُفضِّل بعض من علماء الدَّلالة أن يتحدَّثوا عن توقيفيَّة اللُّغة أو إلهامها الغريزيِّ لدىٰ جماعات البشر الأولىٰ قبل الشُّروع في الحديث عن

تطوُّرات دلاليَّة واصطلاحات عرفيَّة أو وضعيَّة قادت إلىٰ تعدُّد اللَّهجات حينًا، وأسهمت في تنوُّع اللُّغات وتباعدها وتحوُّلاتها الرَّمزيَّة حينًا آخر[1].

والحقُّ أنَّ الإنسان حقَّق تفاعلًا سميائيًّا ودلاليًّا مع علامات علم الدَّلالة القديم الأولىٰ حين أوَّلَ علامات دالَّة من حقول دلاليَّة كثيرة؛ كحقل الطَّبيعة وحقل الكون وحقل الصَّحراء وغيرها؛ واستجاب بسلوكيَّات محدَّدة لعلامات الأعاصير والعواصف، وهاجر تبعًا لتأويله مجموعة من الدَّلائل علىٰ وجود العشب والماء؛ فإن لم يؤكِّد تفسير هذه العلامات وتأويلها وجودَ علوم الدَّلالة لغياب المتلقِّي حينًا وفقدان مرجعيَّة التَّأويل حينًا آخر فإنَّ هذه العلامات والرُّموز والأيقونات تبقىٰ ركنًا رئيسًا من أركان علوم الدَّلالة كلِّها، ويظلُّ وجودها محفِّزًا علىٰ التَّواضع علىٰ دلالاتها ومعانيها؛ فالغيوم أخبرت البشر بقدوم الأمطار، وصارت علامة عليها، والرِّياح القويَّة أنذرتهم بقدوم العواصف، وهكذا سهَّلت بعض العلامات الطبيعيَّة علىٰ البشر عمليَّة الاصطلاح والتَّواضع علىٰ دلالات العلامات الأخرىٰ منذ أزمنة بعيدة؛ فأصبحت بعض الصَّرخات لدىٰ مجموعات ما قبل الكلام إنذارًا عن خطر قادم، وصارت بعض الأصوات الأخرىٰ بشارة علىٰ طعام كثير وخير وفير لدىٰ مجتمعات الجمع والصَّيد القديمة.

إذا كان الاصطلاح الأوَّليُّ علىٰ دلالة بعض الأصوات والصَّرخات والرَّقصات دليل علىٰ التَّواضع الدَّلاليِّ؛ فلا شكَّ أنَّ إنشاد الأشعار والأغاني

---

[1] يُنظر: أنيس، إبراهيم، **الأصوات اللُّغويَّة**، دار النَّهضة العربيَّة، القاهرة، ط٣، ١٩٦١م، ص ١٢-١٣.

والابتهالات الدِّينيَّة شفويًا تأليف دلاليٌّ بشكل أو بآخر؛ لأنَّ مبدع النَّصِّ أو منشده الأوَّل هو كذلك متلقِّيه الأوَّل العارف بمقاصده ودلالاته وفقًا لسياقاته ومرجعيَّاته؛ ومن هنا لا بدَّ أن يكون واضعو الدَّوالِّ علىٰ مدلولاتها في مدوَّنات مصر والعراق وسورية أوائل مرسِلي تلك العلامات ومتلقِّيها العارفين بدلالاتها المعجميَّة والسِّياقيَّة أيضًا؛ ولهذا كلِّه يصحَّ الحديث عن مبادئ علم الدَّلالة القديم في المرويَّات الشَّفويَّة قبل الكتابة والتَّدوين، ولا سيَّما أنَّ ملاحم البشر الأولىٰ ومرويَّاتهم الشَّفويَّة؛ كالقصص والأناشيد والأغاني والأشعار والأدعية والابتهالات شكَّلت تراث البشريَّة الدَّلاليَّ ردحًا طويلًا من الزَّمن قبل اختراع الكتابة، وظلَّ هذا التُّراث مُلهم الكُتَّاب والشُّعراء والمبدعين وعلماء التَّأويل والدَّلالة في مرحلة ما بعد اختراع الكتابة أيضًا.

إذا كان الحديث عن مبادئ علم الدَّلالة في المرويَّات الشَّفويَّة موضع نقاش أو جدل دلاليٍّ فلا شكَّ أنَّ اختراع الكتابة أو وجودها دليل قاطع علىٰ وجود علم الدَّلالة؛ فلا تدوين دون رموز وعلامات؛ لها دوالُّها ومدلولاتها وسياقاتها ومرجعيَّاتها التَّأويليَّة، وحين نعلم أنَّ الشَّرق القديم قد أنجز مجموعة من الكتب والمدوَّنات الدَّلاليَّة المهمَّة في كلٍّ من مصر والعراق وسورية واليمن وشبه الجزيرة العربيَّة والهند نوقن بوجود علم الدَّلالة القديم، ويزداد يقيننا رسوخًا حين نقرأ بعض مدوَّنات الشَّرق القديم؛ كألواح كوشيم وملحمة جلجامش ومسلَّة حمورابي والحوليَّات الآشوريَّة في العراق ولوح باليرمو والبرديَّات والجداريَّات والمراسلات الدِّبلوماسيَّة الفرعونيَّة في مصر، ونقوش اليمن وشبه الجزيرة العربيَّة ومكتبات ماري وإيبلا وأوغاريت في سورية،

وأناشيد الفيدا وأفسته؛ كتاب زرادشت وشرحه الزَّند أفسته، ونسخة كتاب كليلة ودِمنة الهنديَّة القديمة.

وحين نعلم بوجود معاجم لغويَّة وترجمات لرسائل دبلوماسيَّة ورسائل أخوانيَّة بين فراعنة مصر وملوك العراق وأمراء سورية منذ ألفي سنة قبل الميلاد، ونطَّلع علىٰ نسخ متعدِّدة من الكتاب المقدَّس بعهديه: القديم والجديد، ومخطوطات القرآن الكريم، نوقن بوجود علم الدَّلالة القديم، ونستغرب تكرار آراء الأوروبِّيِّين ومواصلة الكلام علىٰ حداثة علم الدَّلالة وعدم تفرُّعه إلىٰ علوم متعدِّدة، وقد يكون عدم اطِّلاع ميشيل بريال (Michel Breal) (١٨٣٢-١٩١٥م) في عصره علىٰ مدوَّنات الشَّرق القديم سبب الكلام علىٰ حداثة علم الدَّلالة؛ لأنَّ اكتشاف كثير من مدوَّنات المشرق الدَّلاليَّة كان في أواخر حياة بريال، وكانت ترجمتها وشهرتها بعد وفاته أيضًا، لكنَّ تكرار آراء بريال بعد أكثر من قرن علىٰ وفاته واكتشاف كنوز المشرق الدَّلاليَّة مدعاة إلىٰ إعادة النَّظر في أقواله ونقدها وتفنيدها أو عدم تكرارها علىٰ أقلِّ تقدير. أمَّا عن تفرُّع علم الدَّلالة إلىٰ علوم متعدِّدة في وقتنا الرَّاهن فأكثر ما يدلُّ علىٰ ذلك ما تضمُّه مكتبات الشَّرق والغرب من كتب تحمل عناوين كثيرة لعلوم الدَّلالة المتنوِّعة؛ ولهذا كلِّه جاء هذا الفصل؛ ليتحدَّث عن نشأة علم الدَّلالة القديم في المشرق، ويعرِّف بمجموعة من علوم الدَّلالة وأشهر مرجعيَّاتها، ويقترح تصنيفًا موضوعيًّا لهذه العلوم خدمة للعاملين في الدَّلالة وتسهيلًا علىٰ المؤوِّلين بعد تعريفهم بتأثير المرجعيَّات والسِّياقات في فهم

العلامات وتفسير النُّصوص وتأويلها وسط الزّحام الكبير من آراء الأوروبِّيِّين المكرَّرة.

٣ مرجعيَّات علوم الدَّلالة

أحصينا ثمانيةً وعشرين علمًا من علوم الدَّلالة، وهي قابلة للزِّيادة في دراسات مستقبليَّة آتية، ولو عدنا بالتَّاريخ إلىٰ بداية الوجود البشريِّ علىٰ سطح المعمورة لوجدنا أنَّ علوم الدَّلالة والمعارف البشريَّة كلَّها كانت علمًا واحدًا أو معلومات بسيطة؛ نمت وتراكمت عبر الأيَّام، وعلم الدَّلالة واحد من الميادين الَّتي شهدت تراكمًا معرفيًّا كبيرًا خلال تاريخ البشر الطَّويل؛ ولعلَّ أقدم علامات هذا العلم ودوالِّه ومدلولاته أصوات وكلمات تعبِّر عن حاجات الإنسان الرَّئيسة إلىٰ الأمن والسَّلام والطَّعام والشَّراب، وتُعينه علىٰ قراءة حيِّزه الحيويِّ وما فيه من علامات جغرافيَّة وفلكيَّة ومناخيَّة تدلُّ علىٰ وجود الماء والطَّعام أو اقتراب هطول المطر، وحين تشكَّلت الممالك والدُّول القديمة بعد الثَّورة الزِّراعيَّة دوِّنت هذه المعارف الدَّلاليَّة في وثائق لتسهيل قراءتها وتداولها والاستفادة منها، ثمَّ تراكمت هذه المعارف، وصار لزامًا علىٰ علم الدَّلالة أن ينقسم إلىٰ علوم دلاليَّة متعدِّدة؛ كانت في أساسها علمًا واحدًا، لكنَّها تفرَّعت، وصار لها رموزها واصطلاحاتها ودوالُّها ومدلولاتها.

ولعلَّ علم الدَّلالة السِّيميائيِّ واحد من أقدم علوم الدَّلالة نشأة وأكثرها اتِّساعًا واشتمالًا علىٰ علامات من حيِّز الإنسان الحيويِّ الكبير وحقوله الدَّلاليَّة المتعدِّدة؛ كحقول الفلك والنُّجوم والأنواء والجغرافية والمناخ وغيره، في حين تخصَّص كلٌّ من علم الدَّلالة المعجميِّ وعلم الدَّلالة اللُّغويُّ وعلم

الدَّلالة التَّواصليُّ وعلم الدَّلالة اللِّسانيُّ في البحث عن المعنىٰ في مجموعة من الرُّموز والعلامات اللُّغويَّة الشَّفويَّة والمكتوبة، وما يزال البحث عن المعنىٰ التَّواصليِّ ديدن كثير من علوم الدَّلالة سواء أُرسل المعنىٰ إلىٰ المتلقِّي علىٰ شكل رسالة منطوقة أو مكتوبة أو مشفَّرة بحروف هذه اللُّغة أو تلك، وربَّما كان تشفير الرِّسالة بأرقام الرِّياضيَّات أو معادَلات التَّفاعلات الكيميائيَّة أو رموز القوانين الفيزيائيَّة أو مصطلحات الطِّبِّ أو الهندسة أو غيرها من مصطلحات العلوم والفنون الأخرىٰ؛ حيث تكشف رُقم العراق عن معارف وعلوم دلاليَّة مكتوبة أو مشفَّرة برموز الرِّياضيَّات والأنظمة العُشريَّة والسِّتِّينيَّة، وتؤكِّد علىٰ استفادة العراقيِّين القدماء من تطبيقاتها في مجالات الحياة المتعدِّدة؛ لكنَّ مبدأ التَّشفير الدَّلاليِّ ظلَّ واحدًا من حيث إشارة الرَّمز إلىٰ معنىٰ ما برغم تعدُّد علوم الدَّلالة وتنوُّعها؛ فلِعلم الدَّلالة القديم رموزه الَّتي يبحث علماء الدَّلالة عن معانيها، ولعلم الدَّلالة الطِّبِّيِّ مصطلحاته الدَّالَّة، ولعلم الدَّلالة السِّيميائيِّ علاماته، ولعلم الدَّلالة الجيوسياسيِّ أيقوناته ورموزه ومصطلحاته.

ويبدو واضحًا أنَّ علوم الدَّلالة تزداد علاماتها ورموزها ومصطلحاتها ومجالات تطبيقها باتِّساع مجالات الحياة وعلومها وفنونها ومهنها واختصاصاتها يومًا بعد آخر، ويبقىٰ إحصاء علوم الدَّلالة مرتبطًا بسيرورة الحياة واتِّساع مجالاتها، ويظلُّ تأويل العلامات مرتبطًا بمرجعيَّة المُرسل وطريقة التَّأويل وثقافة المؤوِّل وسياق الإرسال والتَّأويل أيضًا؛ لذلك يصعب تصنيف علوم الدَّلالة، ويرتهن إلىٰ ثقافات: المرسل والمتلقي والمصنِّف ومرجعيَّاتهم

وسياقاتهم أيضًا؛ فقد يعتمد المصنِّف علىٰ مبدأ تقارب هذه العلوم أو تباعد مجالات تطبيقها وتوظيفها في الحياة العمليَّة، ويمكن للمصنِّف أن يعتمد مبدأ الأسبقيَّة في النَّشأة التَّاريخيَّة أو الانفصال عن علم الدَّلالة القديم أو الاستقلال عن علم الدَّلالة السِّيميائيِّ، وقد يعتمد في التَّصنيف علىٰ فلسفة هذا العلم أو ذاك في فهم العلامة السِّيميائيَّة أو الإشارة الدَّالَّة ذاتها.

ولعلَّ فلسفة المؤوِّل في تحديد العلاقة بين الدَّالِّ والمدلول والمرجع تؤدِّي دورًا مهمًّا في قراءة العلامات الدَّالَّة وتأويل الإشارات والأيقونات والشِّيفرات، وتُسهم في ترتيب علوم الدَّلالة وتصنيفها وتحديد مجالات تطبيقها، وتتسبَّب في تعدُّد تأويلات النَّصِّ الواحد أيضًا؛ نظرًا لاختلاف المرجعيَّة الفلسفيَّة أو اللِّسانيَّة النَّاظمة للعلاقة بين علامات النَّصِّ ودلالاتها أو دوالِّها ومدلولاتها ومراجعها لدىٰ هذا المؤوِّل أو ذاك؛ ويمكننا في هذا المجال أن نشير إلىٰ مجموعة من أهمِّ المرجعيَّات الفلسفيَّة النَّاظمة للعلاقة بين العلامات والدَّوالِّ والمدلولات والسِّياقات ومراجع التَّأويل، ونذكر منها:

أ- مرجعيَّة فرديناند دو سوسير الثُّنائيَّة (F.de Saussure) (١٨٥٧-١٩١٣م)

ازدهر علم الدَّلالة اللِّسانيِّ بشكل ملحوظ مع طروحات فرديناند دو سوسير من خلال كتابه: (محاضرات في اللِّسانيَّات العامَّة)، الَّذي نشرة تلامذة سوسير، ونعثر فيه علىٰ تصوُّر ثنائيٍّ للعلامة اللِّسانيَّة؛ يبسِّط تأويل الشِّيفرات كلَّها بعدما ساد تصوُّر أفلاطون وأرسطو الثُّلاثيُّ ردحًا طويلًا من الزَّمن، وصار التَّأويل ذا طابع فلسفيٍّ محض لدىٰ بعض الفلاسفة والمتكلِّمين وعلماء الفقه

وأصوله، ولم يزل نفر من الباحثين ينزعون إلىٰ تأويل النُّصوص منطلقين من خلفيَّات فلسفيَّة أرسىٰ دعائمها حوارات أفلاطون وبحوث أرسطو ومؤلفات أوغسطين ومن جاء بعدهم في القرون المتلاحقة.

لا شــك أنَّ فهم الدَّلالة وتأويل النَّصِّ رهن بفهم علاماته أو تأويل شــيفراته أوَّلًا؛ ولذلك أدرك ســوســير جيِّدًا أنَّه لن يســتطيع التَّجديد في علوم الدَّلالة والتَّأويل إلَّا إذا انطلق من مفهوم العلامة ذاتها، وقدَّم شــيئًا جديدًا غير ذلك القديم المستهلك إلىٰ حد السَّفسطة؛ ومن هنا قدَّم رؤيته الثُّنائيَّة البسيطة أو المبسَّــطة لمفهوم العلامة اللِّســانيَّة علىٰ أنَّها خليط أو علاقة جدليَّة بين: الدَّالِّ والمدلول؛ فالعلامة اللِّسانيَّة (شجرة)-عند سوسير-تتألَّف من الدَّالِّ، وهو: الأصــوات اللُّغويَّة لهذا المفهوم في أيِّ لغة من اللُّغات، والمدلول: هو معنىٰ الصَّوت أو المفهوم المتخيَّل عند سماع هذه الأصوات[١].

غير أنَّ سوسير ما لبث أن أدرك أنَّ العلامات: (الدَّوالَّ والمدلولات معًا) لا يمكنها أن تشكِّل دلالة مستقلَّة عن سياق تنتظم فيه، ومتلقٍّ يقوم بعمليَّة التَّأويل أو يعيد إنتاج المعنىٰ؛ فقال: إنَّ استبدال قطعة واحدة من الحجارة في سياق رقعة الشَّطرنج بعود من أعواد الكبريت -علىٰ سيبل المثال- سيمنح عود الكبريت القيمة الدَّلاليَّة الَّتي تمتلكها القطعة الأصليَّة في سياق اللُّعبة؛ ومن هنا نستنتج أنَّ سوسير حاول أن يقدِّم طرحًا ثنائيًّا مبسَّطًا في تأويل العلامات اللِّسانيِّة والسِّيميائيَّة؛ إلَّا أنَّه عاد إلىٰ توسيع هذا الطَّرح؛ فتقاطع مع طروحات

[١] يُنظر: بن زروق، نصر الدِّين، **محاضرات في اللِّسانيَّات العامَّة**، مؤسَّسة كنوز الحكمة للنَّشر والتَّوزيع، ط١، الجزائر ٢٠١١م، ص ١٢.

سابقيه الثُّلاثيَّة، الَّتي اعتمدها كلٌّ من أفلاطون وأرسطو والقدِّيس أوغسطين وأوجدن وريتشاردز وغيره؛ وبذلك يكون سوسير قد أسهم في توسيع علوم الدَّلالة وزيادة طرائقها في دراسة المعنىٰ أو تأويله.

ب المرجعيَّة الثُّلاثيَّة من أفلاطون (**Plato**) (٤٢٧-٣٤٧ ق.م) حتَّىٰ تشارلز كاي أوجدن (**Ch.K.Ogdan**) (١٨٨٩-١٩٥٧م) وإيفور أرمسترنج ريتشاردز (**I.A.Richards**) (١٨٩٣-١٩٧٩م)

آثر كثير من الباحثين التَّصوُّر الثُّلاثيَّ لمفهوم العلامة: (الإشارة أو الرَّمز أو الشِّيفرة أو الأيقونة)؛ نظرًا لسهولة استخدامه في التَّنظير لعلوم الدَّلالة ومرونته وانسجامه وسهولة توظيفه في الدِّراسات التَّطبيقيَّة حول تأويل النُّصوص علىٰ تعدُّدها وتنوُّعها، وحتَّىٰ سوسير الَّذي أراد تبسيط مفهوم العلامة اللِّسانيَّة بتقسيمها إلىٰ ثنائيَّة: (الدَّالِّ والمدلول) لم يغفل عن الإشارة إلىٰ وظيفة السِّياق في تحوُّلات المعنىٰ ودورِه في تنشيط التَّفاعل السِّيميائيِّ بين شيفرات النَّصِّ أو علاماته؛ حيث نبَّه إلىٰ دور التَّفاعل السِّيميائيِّ وتأثيره المباشر في توجيه الدَّلالة[1]، ثمَّ وجد نفر من الباحثين في علوم التَّأويل والدَّلالة في نموذج سوسير الثُّنائيِّ تجديدًا وتبسيطًا؛ فعزفوا عن النَّموذج الثُّلاثيِّ في التَّأويل، ولعلَّ «مقابلة النَّموذج الثُّنائيِّ بالنَّموذج الثُّلاثِي ما هي إلَّا نتيجة وليست مبدأ. والفارق بينهما [كبير]، فما يُمكن أن تدلَّ عليه الإشارة لا يُمكن أن يُحدَّد بالكامل خارج السِّياق الَّذي تُستعمل فيه الإشارة، أكان

[1] يُنظر: حسنين، صلاح الدِّين صالح، **الدَّلالة والنَّحو**، منشورات مكتبة الآداب، ط١، بدون تاريخ، ص **٣٧**.

هذا الاســتعمال متعلِّقًا بأشــياء خارجيَّة، أم بمســـارات نفســيَّة، أم بعمليَّة الإرجاع...[حيث] نجد هنا نمطين لا يُمكن الخلطُ بينهما، وهما لا يحدِّدان بالطَّريقة نفســها ما يُمكن معرفته منطقيًّا عن الأنظمة الرَّمزيَّة. فالنَّموذج الثُّنائيُّ لا يقضي بتاتًا أن تقتصر كلُّ دراسة عليه. إنَّه يسمح فقط بعزل ما هو خاصٌّ بالتَّرتيب الرَّمزيِّ في نظام ما من أنظمة الإشـــارات. لكنَّ هذا-بدون شـــكٍّ-لا يكفي لاســتعمال النِّظام. لهذا، نحن دائمًا بحاجةٍ إلىٰ أن تُعرَّف علاقة هذا النِّظام بالأشياء في العالم»[1].

يحتوي التَّصوُّر الثُّلاثيُّ لمفهوم الشِّيفرة أو الأيقونة أو العلامة اللِّسانيَّة أو العلامة السِّيميائيَّة علىٰ ثلاثة أقطاب؛ هي: (١-اللَّفظ أو الرَّسم أو الرَّمز، ٢-الشَّيء المسمَّىٰ، ٣-تصوُّر الشَّيء أو دلالته)، وقد تختلف أسماء هذه الأقطاب الثَّلاثة من باحث إلىٰ آخر[2]؛ لكنَّها تؤدِّي في المحصِّلة فكرة واحدة. وقد اعتمد علىٰ هذا التَّقسيم الثُّلاثيِّ للعلامة أو الشِّفيرة كلٌّ من أفلاطون وأرسطو وزينون الرِّواقيُّ وأوغسطين وبوثيوس وفرانسيس بيكون وديكارت وغوتفريد فيهلم وفون ولايبتز وإدموند هوتسرل وأوجدن وريتشاردز وإيفور وتشارلز وغيرهم[3]، وقد عدَّ كثير من الباحثين في علم الدَّلالة كلًّا من تشارل

---

[1] مجموعة من المؤلِّفين: (ســيلفان أورو، جاك ديشـــان، جمال كولوغلي)، **فلســـفة اللُّغة**، ترجمة وتقديم: بسَّـــام بركة، مراجعة: ميشـــال زكريًّا، المنظَّمة العربيَّة للتَّرجمة، ط١، بيروت ٢٠١٢م، ص١٩٤-١٩٥.

[2] يُنظر: **فلسفة اللُّغة**، ص ١٤٢.

[3] يُنظر: تشاندلر، دانيال، **أسس السِّيميائيَّة**، ترجمة: طلال وهبة، مراجعة: ميشال زكريًّا، منشورات المنظَّمة العربيَّة للتَّرجمة، ط١، بيروت ٢٠٠٨م، ص٧٥.

موريس وتشارل بيرس بين من اعتمدوا التَّقسيم الثُّلاثيَّ للعلامتين: اللِّسانيَّة والسِّيميائيَّة؛ لكنَّ موريس وبيرس في الحقيقة أضافا شيئًا أو أشياء أخرىٰ لأقطاب العلامة في التَّقسيمين: الثُّنائيِّ والثُّلاثيِّ؛ ولذلك سنعرض لهما في مرجعيَّة التَّقسيم الرُّباعيِّ[1].

ج مرجعيَّة رومان ياكوبسون المختلطة (Roman Jakobson) (١٨٩٦-١٩٨٢م)

حاول رومان ياكبسون أن يجمع بين التَّصوُّرات الثُّنائيَّة والثُّلاثيَّة حول مفاهيم: (الرَّمز والإشارة والعلامة والشِّيفرة والأيقونة)؛ لعلَّه يقف علىٰ شعريَّة النَّصِّ المدروس أو جماليَّات بلاغته التَّواصليَّة، ورأىٰ أنَّ فكرة الاتِّحاد بين الدَّالِّ والمدلول الَّتي تحدَّث عنها سوسير ما هي إلَّا وهم مضلِّل، يعتقد أصحابه باضطراد الشِّيفرة واستقلالها عن الحياة الاجتماعيَّة مع أنَّ الحقيقة غير ذلك؛ ومن هنا وجد ياكوبسون أنَّه لا يمكن الحديث عن التَّأويل من زاوية تأويل الشِّيفرات وإنتاج دلالتها من خلال التَّشفير وفكِّ التَّشفير دون سواها، وإنَّما يجب النَّظر أيضًا إلىٰ «السِّياقات المعنيَّة بها. يقول ياكوبسون: يوجد مصدران لتفسير الإشارة، أحدهما هو الشِّيفرة والآخر هو السِّياق، ويشدِّد أيضًا علىٰ أنَّه لا يكفي معرفة الشِّيفرة لفهم المُرسَلة...نحتاج إلىٰ معرفة السِّياق»[2].

---

[1] يُنظر: أسس السِّيميائيَّة، ص ٧١.

[2] أسس السِّيميائيَّة، ص ٣٠٧-٣٠٨.

ثم دعا ياكوبسون إلىٰ تجاوز التَّضمين الشَّكليِّ لتأثير السِّياق وعمليَّة التَّشفير ذاتها في تأويل الدَّلالة؛ وبذلك يكون قد تخطىٰ «الإطار السُّوسوريَّ الَّذي انطلق منه؛ [ذاك] الإطار الَّذي استبعد كلَّ سياق إرجاعيٍّ خارج منظومة الإشارات في حدِّ ذاتها. ولا يُساند ياكوبسون الصِّيغة الرَّمزية فقط، الموجودة في نموذج سوسير ونموذج بيرس (Ch.S.Peirce)، [لكنَّه يساند] أيضًا الطَّابع الإرجاعيَّ الَّذي تحويه صيغتا بيرس: الأيقونيَّة والتَّأشيريَّة. [و]مهما كانت التَّساؤلات حول نموذج الإشارة عند ياكوبسون، يُعتبر نموذج التَّواصل عنده جسرًا أُفهوميًّا بين تقليدَين سيميائيَّين كبيرَين. يستند تحديد المعنىٰ في النَّموذج السُّوسوريِّ إلىٰ منظومة العلاقات في الشِّيفرة، ويستند في النَّموذج البيرسيِّ إلىٰ السِّياق الإرجاعيِّ، أمَّا في نموذج ياكوبسون فيستند إلىٰ الاثنين معًا»[١].

د مرجعيَّتا تشارل بيرس (Ch.S.Peirce) (١٨٣٩-١٩١٤م) وتشارل موريس (Ch.W.Morris) (١٩٠٣-١٩٧٩م) بين الرُّباعيَّة والخماسيَّة

اُشتهر تقسيم العلامة الدَّالَّة الثُّلاثيُّ إلىٰ: (الرَّمز والشَّيء المسمَّىٰ وتصوُّره)، وذاعت تطبيقاته في دراسات أوجدن وريتشاردز الشَّهيرة حول مثلَّث المعنىٰ من خلال كتابيهما: نظريَّة الأدب ومعنىٰ المعنىٰ[٢] مع أنَّ أفلاطون وأرسطو اعتمدا هذا التَّقسيم قبل سوسير وأوجدن وريتشاردز بزمن طويل. وإن

[١] **أسس السِّيميائيَّة**، ص ٣٠٩-٣١٠.

[٢] يُنظر: **الدَّلالة والنَّحو**، ص ٩، ٢٧.

اتَّجه سوسير إلىٰ تبسيط التَّقسيم الثُّلاثيِّ، وحوَّله إلىٰ تقسيم ثنائيٍّ، وجمع ياكوبسون بين التَّقسيمين: الثُّنائيِّ والثُّلاثيِّ، فقد نجح أوجدن وريتشاردز في بعث التَّقسيم الثُّلاثيِّ ذاته. أمَّا تشارل بيرس (**Ch.S.Peirce**) (**١٨٣٩-١٩١٤م**) وتشارل موريس (**Ch.W.Morris**) (**١٩٠٣-١٩٧٩م**) فقد اتَّجها اتجاهًا عكسيًّا نحو توسيع التَّقسيم الثُّلاثيِّ لفهم أثر التَّفاعلات السِّيميائيَّة في تحوُّلات المعاني الرَّمزيَّة والحراك الدَّلاليِّ في فضاء النَّصِّ، وإن كان التَّقسيم الثُّلاثيُّ قد حقق مزيدًا من الشُّهرة العالميَّة في دراسات أوجدن وريتشاردز؛ فإنَّ هذه الشُّهرة أو ذاك الشُّيوع «لا يكفي لأن يكون بُرهانًا لصالحه. [و]يمكننا التَّفكير بأنَّه النَّموذج الأكثر عموميَّة، والَّذي يتضمَّن العناصر اللَّازمة في كلِّ العلوم المتعلِّقة باللُّغة. لكنَّ النَّموذج الثُّلاثيَّ نفسه يبدو غير كافٍ؛ فالفيسلوف الأميركي بيرس (Ch.S.Peirce) عرض نموذجًا نجد فيه أيضًا ثلاثة عناصر، لكنَّها تُضاف إلىٰ عنصر آخر وهو الإشارة بذاتها: تمتلك الإشارة بحدِّ ذاتها ثلاثة مراجع: أوَّلًا، إنَّها إشارة (بالنِّسبة) لأيِّ فكرة من الممكن أن تفسِّرها. وثانيًا، إنَّها إشارة لِموضوع ما يكون معادلًا لها ضمن هذه الفكرة. وثالثًا، إنَّها إشارة في هيئة ما أو صفة ما، تُكوِّنان صِلة الوصل بين الإشارة وموضوعها. إنَّ أحد أهمِّ العلماء الحديثين الَّذين أدخلوا فكرة تأسيس علم للإشارات أو السِّيمياء هو موريس (Ch.Morris). [وبرغم اعتماده علىٰ أفكار بيرس (Ch.S.Peirce) وأخذه عنه فقد أضاف إلىٰ تقسيم بيرس] عنصرين اثنين؛ هما: المتكلِّم [...] والسِّياق: تُعدُّ السِّيمياء (semiosis) علاقة بين خمسة عناصر ـــ v, w, x, y, z ـــ نجد

داخل هذه العلاقة أنَّ v تولِّد في w الاستعداد لردّة فعل بطريقة معيّنة هي x، تجاه موضوع معيّن هو y (وهو لا يكون حافزًا في هذه المرحلة)، وذلك في شروط معيّنة هي z. في الأمثلة علىٰ هذه الورقة، تمثّل v الإشارات، وتمثّل w المؤوّلون، وx المؤوِّلات، وy الدَّلالات، وz السِّياقات الَّتي تعمل فيها الإشارات»[١].

*****

وبرغم مراوحة نموذج بيرس بين كلٍّ من النَّموذج الرُّباعيِّ في ظاهره والخماسيِّ أو السُّداسيِّ في تطبيقات بيرس وموريس إلَّا أنَّه لا تخفىٰ علىٰ المتابع جذوره أو أصوله الثُّلاثيَّة، وإن كان هذا النَّموذج أكثر شمولًا من النَّموذجين: الثُّنائيِّ والثُّلاثيِّ للعلامة فإنَّ «وجود مُرجَع إليه في النَّموذج الثُّلاثيِّ للإشارة»[٢] لا يعفيه من الإشكال الَّذي تعرَّضت له النَّماذج الأخرىٰ، وإنَّما يضعه في دائرة النَّقد والتَّفنيد؛ وهو ما دفع كلًّا من موريس وبيرس إلىٰ توسيعه إلىٰ نموذج خماسيٍّ مرَّة وسداسيٍّ مرَّة أخرىٰ في كثير من تطبيقاتهما؛ حيث تنبَّها إلىٰ تفاعل الشِّيفرات السِّيميائيَّة في كلِّ واحد من هذه النَّماذج؛ كالمُمَثَّل والموجودة وتأويل الإشارة مع ثقافة المرسل والمتلقِّي وسياقات الإرسال والتَّلقِّي؛ ليُنتج هذا التَّفاعل ما سمَّاه بيرس «سيرورة المعنىٰ»[٣]، الَّتي تقود في النِّهاية إلىٰ التَّحوُّلات الرَّمزيَّة في الدَّلالة.

---

(١) فلسفة اللُّغة، ص١٩٦-١٩٧.

(٢) أسس السِّيميائيَّة، ص ٧٦.

(٣) أسس السِّيميائيَّة، ص٧١.

وقد شرح بيرس تفاعل الشِّيفرات السِّيميائيِّ، الَّذي يقود إلىٰ التَّحوُّل الرَّمزيِّ في الدَّلالة بقوله: «تعمل العناصر الثَّلاثة، الَّتي تؤلِّف الإشارة كَتَسمية موضوعة علىٰ علبة غير شفَّافة تحوي (موجودة). في البداية، مجرَّد وجود علبة عليها تسمية يوحي بأنَّها تحوي شيئًا، ثمَّ بعد ذلك نقرأ التَّسمية فنعرف ما هو هذا الشَّيء، فتكون سيرورة المعنىٰ، أو فكُّ تشفير الإشارة كالآتي: أوَّل ما يُلاحظ وجوده هما العلبة والتَّسمية (الممَثَّل)، ممَّا يجعلنا ندرك أن شيئًا ما (الموجودة) يوجد داخل العلبة. وتأويل الإشارة هو الَّذي يوفِّر هذا الإدراك والتَّوصُّل إلىٰ معرفة محتوىٰ العلبة. وما (قراءة التَّسمية) سوىٰ استعارة بلاغيَّة للتَّعبير عن سيرورة فكِّ شيفرة الإشارة. المهمُّ في ذلك هو أن ندرك أنَّ موضوع الإشارة (الموجودة) مستتر دائمًا. في الواقع، لا يمكننا فتح العلبة ومُشاهدة الموجودة مُباشرة. والسَّبب بسيط: لو كان يمكن الاطِّلاع علىٰ الموجودة مُباشرة لما احتجنا لإشارة تمثِّلها. لا نعلم بأنَّ هناك موجودة إلَّا من خلال ملاحظة وجود التَّسمية والعلبة، ثمَّ (قراءة التَّسمية) وتشكيل صورة عقليَّة، في أذهاننا، عن الموجودة؛ لذلك نقول: إنَّ الموجودة المستترة لا تُدرك إلَّا من خلال التَّفاعل بين المُمثِّل والموجودة»[١].

٤ نحو تصنيف موضوعيٍّ لعلوم الدَّلالة

يشبه البحث في الدَّلالة والتَّطوُّر الدَّلاليِّ البحثَ في فلسفة التَّاريخ من حيث علاقة البحوث الجديدة بالبحوث القديمة كلِّها، وإن كان التَّاريخ سلسلة

[١] أسس السِّيميائيَّة، ص٧١-٧٢.

متواصلة من الأحداث؛ لا يُمكن فهم أيِّ حدث إلَّا بالعودة إلىٰ سلسلة من الأحداث قبله؛ فإنَّ البحث في التَّطوِّر الدَّلاليِّ والتَّحوُّل الرَّمزيِّ يقتضي مثل هذه المنهجيَّة في فلسفة التَّاريخ؛ ولذلك يحظىٰ كلٌّ من علم الدَّلالة القديم وعلم الدَّلالة السِّيميائيِّ بأهمِّيَّة بالغة بين علوم الدَّلالة المتعدِّدة؛ لأنَّهما من أقدم علوم الدَّلالة كلِّها؛ حيث يزوِّدنا علم الدَّلالة القديم بمجموعة من أقدم الرُّموز والعلامات والإشارات في حين يُعدُّ علم الدَّلالة السِّيميائيُّ واحدًا من أوسع علوم الدَّلالة كلِّها؛ لأنَّه يدرس معاني الإشارات علىٰ إطلاقها، أمَّا إذا أردنا أن نبحث عن معنىٰ الإنسان ذاته ونشأته الأولىٰ ونشأة لغته وتواصل الأقوام الأوَّلين وفنونهم فنحن أمام علم الدَّلالة الأنثروبولوجيِّ، الَّذي يُعنىٰ بهذه المادَّة البحثيَّة، ويحتاج إلىٰ مَن يضبطها ضمن منهجيَّة واضحة، يراعي فيها تطوُّر دلالات الرُّموز، واختلاف تداولها وتحوُّل مقاصدها بتأثير مباشر من سيرورة التَّاريخ في هذا الحيِّز الجغرافيِّ أو ذاك، أمَّا علم الدَّلالة التَّاريخيُّ فيبحث في وصف حياة البشر وسرد أخبارهم من ظهورهم الأوَّل إلىٰ وقتنا الرَّاهن من خلال ما يتوفَّر لدىٰ الباحثين من أدلَّة وعلامات سيميائيَّة، وفي المحصِّلة يبدو تصنيف علوم الدَّلالة وفقًا لموضوعاتها وما يقع في حقولها البحثيَّة من دوائر دلاليَّة أسهل من تصنيفها علىٰ أساس ظهورها التَّاريخيِّ أو علىٰ أساس مرجعيَّة أعلامها أو فلسفة كلٍّ واحد منهم في التَّأويل أو البحث عن الدَّلالة، وسنعرِّف بإيجاز بأهمِّ علوم الدَّلالة الَّتي أحصيناها؛ وهي:

١ علم الدَّلالة القديم (Ancient Semantics)

علم يبحث عن المعنىٰ في أقدم النُّصوص والإشارات والرُّموز والعلامات والأيقونات الَّتي أنتجها البشر، وتركوها بعدهم، ويثبت وجودَه كثير من المدوَّنات في حضارات العالم القديم وكتبها الدِّينيّة وشروحها وقوانينها وتتفسيرها ومؤلّفاتها ومعاجمها وترجماتها، ولا سيَّما المشرقيَّة منها، كشريعة حمورابي ونُسخ كُتب الرّسالات السَّماويَّة وغيرها، وسنُفرد لهذا العلم الفصل الثَّاني من فصول هذا الكتاب[١].

٢ علم الدَّلالة السِّيميائيُّ (نظريَّة الإشارة الكبرىٰ) (Semantic Semantics)

هو واحد من أوسع علوم الدَّلالة، وينازع علم الدَّلالة القديم علىٰ كثير من إشاراته وعلاماته وأيقوناته القديمة؛ يمكننا أن نُطلق عليه: نظريَّة الإشارة الكبرىٰ بين علوم الدَّلالة كلِّها؛ لتقاطعه مع كثير منها، وتعدُّد حقول علاماته وتنوُّع مرجعيَّاتها؛ فالنَّار والدُّخان من أقدم علامات التَّواصل الاصطلاحيَّة في علم الدَّلالة السِّيميائيِّ، وتغيُّرات الأنواء ومراتب الأفلاك ودلالاتها علامات مهمَّة في هذا العلم، الَّذي تُساعدنا أدواته ومفاتيحه ومصطلحاته السِّيميائيَّة المتعدِّدة علىٰ قراءة أيِّ نصٍّ من نصوص الحياة بدءًا من ظواهرها الكونيَّة

---

(١) يُنظر: مجموعة من المؤلِّفين، **مراجعات في علوم اللُّغة والأدب التُّراثيَّة والوافدة (المصطلح)**، بحث للدُّكتور: مهنَّا بلال الرَّشيد بعنوان: **علم الدَّلالة القديم (مفهومه، نشأته، مصادره، مجالاته وتطبيقاته)**، منشورات سونجاغ، ، ط١، أنقرة **٢٠٢٠**.م، ص**١٥٠-١٨٧**.

والفلكيَّة والمناخيَّة؛ مثل: كسوف الشَّمس وخسوف القمر وعلامات الزَّلازل والبراكين وحركات الأفلاك السَّماويَّة ومواقع النُّجوم والأبراج وعلامات العواصف والأعاصير والثُّلوج والأمطار مرورًا بنصوص الحياة الفنِّيَّة والأدبيَّة والسِّياسيَّة ومنجزاتها الحضاريَّة وصولًا إلىٰ أدقِّ العلامات والأدلَّة صِغرًا في علم الدَّلالة الطِّبِّيِّ؛ كنبضات القلب وكُريَّات الدَّم وغيرها من دلائل كثيرة؛ وهذا ما دفع أ.كندراتوف إلىٰ القول: «حقًا إنَّ كلَّ شيء يتكلَّم، حتَّىٰ الطَّبيعة تتكلَّم، إذا كنَّا نعني بذلك نقل معلومات؛ فأغصان الأشجار المائلة دليل علىٰ أنَّ ثمَّة ريحًا هوجاء، والسَّحاب الدَّاكن نذير عاصفة»[1].

ومن خلال علم الدَّلالة السِّيميائيِّ نقرأ العلامات التَّواصليَّة فوق التِّلال والجبال وفي جداريَّات الأهرامات وبرديَّاتها والنُّقوش اللُّغويَّة والتَّصويريَّة القديمة والحديثة وحروفيَّات الخطِّ العربيِّ ولوحات الرَّسم الزَّيتيِّ ونصوص الفنِّ التَّشكيليِّ والفقرات المشهديَّة في السَّرد والشِّعر والدّراما. ولا تفوتنا الإشارة في هذا المقام إلىٰ تميِّز علم الدَّلالة السِّيميائيِّ في قراءة النُّصوص الَّتي تحتوي علىٰ إشارات سيميائيَّة من مجالات متنوِّعة وفنون حياتيِّة متعدِّدة؛ كالنُّصوص الدّراميَّة والمسرحيَّة، الَّتي تتَّسع لتشتمل علىٰ إشارات كثيرة من فنون تعبيريَّة ومرئيَّة ومسموعة؛ كاللُّغة والموسيقا والغناء والإنشاد وحركات الجسد والرَّقص والملابس والألوان وغيرها ممَّا يحتمل أن يكون علامة دالَّة.

---

(1) أ.كندراتوف، **الأصوات والإشارات**، ترجمة: شوقي جلال، الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب، ط١، القاهرة **١٩٧٢**م، ص ١٠.

٣ علم الدَّلالة الأنثروبولوجيُّ (Anthropological Semantics)

يهتمُّ بنشأة الإنسان ولغته وفنونه وأنماط معيشته، ويرتبط بشكل مباشر بكلٍّ من علم الدَّلالة الحيويِّ وعلم الدَّلالة الثَّقافيِّ. ولا نعدم في أدبنا العربيِّ أكثر من إشارة أنثروبولوجيَّة ترتبط بثقافة المجتمع العربيِّ، وتدلُّ على أنَّ الحديث اللُّغويَّ مع الضَّيف نوع من أنواع القِرىٰ وإشارة من إشارات الكرم. وحين دعا عالم الأنثروبولوجيا **برونسيلاف مالينوفسكي** (**Bronistaw Malinowski**) (**١٨٨٤-١٩٤٢م**) إلىٰ تمييز اللُّغات الحيَّة من اللُّغات الميتة بدا علم الدَّلالة الأنثروبولوجيُّ قريبًا من كلٍّ من علم الدَّلالة الحيويِّ وعلم الدَّلالة اللِّسانيِّ وعلم الدَّلالة المقارن، وميَّز مجموعة من دلالات الكلمات وفقًا لأصولها أو دوائرها الدَّلاليَّة الأولىٰ والحقول الدَّلالية الَّتي صارت تُستخدم فيها لاحقًا تلك الكلمات، وسنفرد الفصل الثَّالث من فصول هذا الكتاب للحديث عن علم الدَّلالة الأنثروبولوجيِّ[١].

٤- علم الدَّلالة الطِّبِّيُّ (Medical Semantics)

يُعرَّف علم الدَّلالة الطِّبِّيِّ بأنَّه «علم يُعرف به أحوال بدن الإنسان من صحَّة ومرض ومزاج وأخلاط وغيرها، مع أسبابها من المآكل وغيرها»[٢]،

---

[١] يُنظر: **الدَّلالة والنَّحو**، ص ١٨، ٣٧.

[٢] أحمد، عبد الله نذير، **خزانة العلوم في تصنيف العلوم الإسلاميَّة ومصادرها (شرح رسالة اللُّؤلؤ النَّظيم في رَوم التَّعلم والتَّعليم لشيخ الإسلام أبي يحيىٰ زكريَّا الأنصاريِّ)**، دار البشائر الإسلاميَّة، دون طبعة. ص ١٦١.

ويُطبَّق هذا العلم في ميادين الصِّحَّة والحفاظ عليها والإعلام عن أحوالها وأحوال الأمراض الَّتي تعتري الإنسان، ويتفرَّع من هذا العلم علم الدَّلالة الوراثيُّ، الَّذي يُعدُّ واحدًا من أبرز علوم الدَّلالة الَّتي تستفيد منها العلوم الطِّبِّيَّة لمعرفة أثر الوراثة في تطوّر النَّوع البشريِّ ووراثة الأجيال الجديدة من أسلافها خصائصَ فيزيولوجيَّة وسلوكيَّة، وكذلك يهتمُّ هذا العلم بالأعراق والأصول والأنساب، ويُطبَّق في مجال الدِّراسات السِّياسيَّة والقوميَّة والعنصريَّة والاجتماعيَّة وعلم الأنساب ودلالة بعض الخصائص الوراثيَّة على أعراق محدَّدة وجماعات بشريَّة معيَّنة، ويقترب من علم الفراسة أو علوم التَّفرُّس والعلوم الحيويَّة وعلوم الكيمياء والسِّحر والسِّيمياء أيضًا.

٥ علم الدَّلالة التَّاريخيُّ (Historical Semantics)

علم الدَّلالة التَّاريخيُّ واحد من أعرق علوم الدَّلالة وأقدمها، يهتمُّ بحياة الإنسان وتاريخه القديم منذ ظهوره على سطح المعمورة، ولا يقتصر على دراسة تحوُّلات المعنى دراسة وصفيَّة تاريخيَّة؛ بل يعتمد منهجيَّة فلسفة التَّاريخ في البحث عمَّا وراء الأحداث الظَّاهرة؛ لمعرفة عللها الخفيَّة؛ فاستهوت منهجيَّة علم الدَّلالة التَّاريخيُّ في تحليلها وتفسيرها وتعليلها كثيرًا من الباحثين؛ فطبَّقوها في دراساتهم المتعدِّدة ولا سيَّما العلوم الإنسانيَّة؛ ومن هنا يمكننا أن نميِّز علم الدَّلالة التَّاريخيَّ القديم جدًّا من جانب، من المنهج الوصفيِّ التَّاريخيِّ من جانب آخر، برغم تداخل علم الدَّلالة التَّاريخيِّ مع منهجيَّة البحث التَّاريخيِّ بعدما أدخل ميشيل بريال (Michel Breal) (١٨٣٢-١٩١٥م) علم الدَّلالة التَّاريخيَّ إلى دائرتي: العلوم الدَّلاليَّة والدِّراسات اللُّغويَّة

والسِّيميائيَّة في أواخر القرن التَّاسع عشر[١] مع الإشارة إلىٰ نقاشات كثيرة تدور حول تصنيف علم التَّاريخ ذاته؛ لوضعه في دائرة العلوم تارة وفي دائرة الفنون تارة أخرىٰ؛ وذلك لاشتمال علم الدَّلالة التَّاريخيِّ علىٰ أدوات العلوم واستفادته من مفاتيح الفنون خلال عمله علىٰ تأويل أقدم النُّقوش والجداريَّات والنُّصوص والمخطوطات والمدوَّنات الأثريَّة، الَّتي تكشف عن تطوُّر علم الدَّلالة التُّاريخيِّ منذ عصور قديمة جدًّا[٢].

٦ علم الدَّلالة الأثريُّ (Archaeological Semantics)

يتقاطع علم الدَّلالة الأثريُّ مع علم الدَّلالة التَّاريخيِّ في اهتمامه بقراءة الأدلَّة التَّاريخيَّة ودراسة معاني ما خلَّفته الحضارات والشُّعوب القديمة، ويتعاون مع كلٍّ من علم الدَّلالة الفيلولوجيِّ وعلم الدَّلالة الأنثربولوجيِّ وعلم الدَّلالة الحيويِّ (البيولوجيِّ)؛ لتُشكِّل هذه العلوم أبرز المصادر الَّتي يستقي منها علم التَّاريخ مادَّته الدِّراسيَّة كلَّها. ويمكن القول: إنَّ علم الدَّلالة التَّاريخيَّ يسبق علم الدَّلالة الأثريَّ في النَّشأة والظهور، ولا سيَّما أنَّ الآثار- بوصفها نصوصًا ومدوَّنات وعلامات ودلائل مكتوبة أو مدوَّنة-ترجع إلىٰ زمن أحدث من أزمنة كثير من العلامات المرويَّة أو الشَّفويَّة؛ لكنَّ الاهتمام بها ازداد بعد ازدهار علم الدَّلالة التَّاريخيِّ؛ لأنَّها أدلَّة تاريخيَّة حيويَّة أنثروبولوجيَّة تؤكِّد آراء هذا الباحث التَّاريخيِّ أو ذاك المُنَظِّر في فلسفة التَّاريخ.

---

[١] يُنظر: **الدَّلالة والنَّحو**، ص ٥.

[٢] يُنظر: عبد الجليل، منقور، **علم الدَّلالة (أصوله ومباحثه في التراث العربي)**، منشورات اتِّحاد الكتَّاب العرب، ط١، دمشق ٢٠٠١م، ص ١٧.

٧ علم الدَّلالة الجيوسياسيُّ (Geopolitical Semantics)[١]

واحد من أبرز علوم الدَّلالة عامَّة، يهتمُّ بانتشار البشر وتوزُّعهم الجغرافيِّ في العصور المتلاحقة، ويستقرئ أبرز العوامل المؤثِّرة في هجراتهم وميولهم واتِّجاهاتهم من أجل توظيفها في سياسة المجتمع أو قيادته وتوجيهه. ويجمع بين كلٍّ من علامات علم الدَّلالة وعلامات علم السِّياسة، الَّذي يُعرَّف بأنَّه «علم بأصول يُعرف بها أنواع الرِّياسات والسِّيادات المدنيَّة وأحوالها. وفائدته: معرفة السِّياسات المدنيَّة الفاصلة بين الخصوم والإنصاف بينهم»[٢]. ولا نعدم في هذا المجال كثيرًا من المؤلَّفات القديمة، الَّتي تدخل في صميم علم الدَّلالة العامِّ، وتنمُّ عن تطورِّه وازدهاره منذ آلاف السِّنين؛ ككتاب الجمهورية لأفلاطون وكتاب كليلة ودمنة، الَّذي ألَّفه فيلسوف الهند فيشنو شارما (بَيدَبا/ ديبيا) (Vishnu Sharma) (....-٣٠٠ ق.م) بعد غزو الإسكندر بن فيليب المقدونيِّ (Alexander of Macedon) (٣٥٦-٣٢٣ ق.م) بلاد الهند وانتصاره على مِلكهم. وقد وجد طاشكبري زاده (١٤٩٥-١٥٦١م) أنَّ علم السِّياسة: «علم يُعرف منه أنواع الرِّياسات والسِّياسات والاجتماعات المدنيَّة وأحوالها: من أحوال السَّلاطين والملوك والأمراء وأهل الاحتساب

---

[١] يُنظر: مجموعة من المؤلِّفين، **اللِّسانيَّات والعلاقات الدُّوليَّة، بحث للدُّكتور مهنًّا بلال الرَّشيد بعنوان: علم الدَّلالة الجيوسياسيُّ (دراسة حيويَّة في العوامل المؤثِّرة في توجيه الشُّعوب وقيادتها)**، منشورات ركاز للنَّشر والتَّوزيع، ط١، إربد، الأردن ٢٠٢١م، ص ١٤٩-١٧١.

[٢] **خزانة العلوم**، ص ١١٩.

والقضاة والعلماء، وزعماء الأموال ووكلاء بيت المال ومن يجري مجراهم»[(١)].

وأكثر ما يُعنىٰ علم الدَّلالة الجيوسياسيُّ بمعرفة مراتب البشر، وينفع في تشكيل المجتمعات المدنيَّة الفاضلة، «ودفعِ علل زوالها وجهات انتقالها»[(٢)]، ويرتبط هذا العلم في كثير من جوانبه بكلٍّ من علم الدَّلالة الفلسفيِّ وعلم الدَّلالة السُّلوكيِّ وعلم الدَّلالة الاجتماعيِّ وعلم المنطق وعلم الجدل وعلم الأخلاق الَّذي يُعرَّف بأنَّه: «علم بأصول يُعرف بها أنواع الفضائل وكيفيَّة اكتسابها وأنواع الرَّذايل وكيفيَّة اجتنابها»[(٣)]، وسنُفرد الفصل الخامس من فصول هذا الكتاب للحديث عن علم الدَّلالة الجيوسياسيِّ.

٨ علم الدَّلالة الفلسفيُّ (Philosophical Semantics)

يُعرَّف علم الدَّلالة الفلسفيُّ بأنَّه علم «تُعرف به حقائق الأشياء والعمل بما هو أصلح»[(٤)]، ويرتبط به كلٌّ من علم الدَّلالة السُّلوكيُّ وعلم الدَّلالة النَّفسيُّ وعلم الدَّلالة الاجتماعيُّ، الَّذي يدرس المجتمعات البشريَّة منذ أقدم العصور إلىٰ وقتنا الرَّاهن، ويشتمل علىٰ آراء المنظِّرين والباحثين في علوم الأنثروبولوجيا والفلسفة والاجتماع والسُّلوك والأخلاق والسِّياسة. وإن كانت بدايات هذا العلم تعود إلىٰ عصور قديمة في زمن أفلاطون وأرسطو، إلا أنَّه شهد ازدهارًا ملحوظًا في مجال التَّنظير والتَّطبيق علىٰ يد عبد الرحمن بن خلدون

---

(١) خزانة العلوم، ص ١١٩.

(٢) خزانة العلوم، ص ١١٩.

(٣) خزانة العلوم، ص ١٣٤.

(٤) خزانة العلوم، ص ١٧٠.

(١٣٣٢-١٤٠٦م)؛ ومن هنا تظهر لنا تقاطعات هذا العلم مع علوم دلاليَّة أخرىٰ، وتتعدَّد مصادره الَّتي يستقي منها مادته البحثيَّة[1].

٩ علم الدَّلالة التَّواصليُّ (Communicative Semantics)

علم الدَّلالة التَّواصليُّ علم قديم؛ يرتبط بغرائز البشر التَّواصليَّة وتوظيفها في التَّواصل داخل المجتمعات أو التَّجمُّعات البشريَّة المتطوّرة عبر مراحل التَّاريخ المتعدِّدة والمتطوِّرة بتطوّر وسائل التَّواصل، ومَثَلُه في ذلك مَثَل كثير من علوم الدَّلالة الأخرىٰ؛ بمعنىٰ أنَّنا نعثر علىٰ بذور هذا العلم أو جذوره الأولىٰ أثناء بحثنا عنها في الحضارات القديمة، لكنَّ هذا لا يعني أنَّه كان علمًا مزدهرًا منذ نشأته الأولىٰ؛ فالنَّار بوصفها علامة تواصليَّة دالَّة لم تكن كذلك حين اكتشفها الإنسان مصادفة للمرَّة الأولىٰ، وبعد مرور الزَّمن انتقل تطبيق النَّار إلىٰ مجالات أخرىٰ؛ كصناعة الدِّفء والنُّور والطَّعام، ثمَّ ارتبط إشعالها وإطفاؤها ودخانها بمعانٍ اصطلاحيَّة تواصليَّة خالصة[2]، وينطبق هذا علىٰ معظم علامات التَّواصل وأنظمته، الَّتي شهدت ازدهارًا وتطوُّرات ملحوظة في الأزمنة التَّاريخيَّة المتلاحقة؛ كنظام التَّواصل اللُّغويِّ بالأحاديث الشَّفويَّة ونظام التَّواصل الكتابيِّ وأنظمة التَّواصل المِلاحيَّة والفضائيَّة ومواقع التَّواصل الاجتماعيَّة الحديثة.

---

(١) يُنظر: **الدَّلالة والنَّحو**، ص١٣، ١٨.

(٢) يُنظر: **الأصوات والإشارات**، ص ٢٠-٢١.

١٠ علم الدَّلالة اللِّسانيُّ أو علم الدَّلالة اللُّغويُّ (Linguistic Semantics or linguistic semantics)

بعد نشأة اللُّغة البشريَّة أو تطوِّرها أو بعد تلقِّي آدم-عليه السلام- الأسماء الَّتي تعلَّمها من الله-عزَّ وجلَّ-تطوَّر علم الدَّلالة اللِّسانيُّ، وحملت رموز اللُّغة وأصواتها دلالات المفاهيم والموجودات، ثمَّ ازدهر هذا العلم مع اختراع الكتابة وتدوين النُّصوص اللُّغويَّة وظهور النَّظريَّات اللِّسانيَّة؛ ولأنَّ نظام التَّواصل اللُّغويَّ أو اللِّسانيَّ أكثر الأنظمة التَّواصليَّة خصوصيَّة بالبشر وشيوعًا بينهم صار إطلاق مصطلح علم الدَّلالة يشير إلىٰ علم الدَّلالة اللُّغويِّ أو علم الدَّلالة اللِّسانيِّ إذا لم تتبعه كلمة ثالثة تصف هذا العلم أو تخصِّصه[١].

ظهر علم الدَّلالة اللِّسانيُ بعد توافق الجماعات البشريَّة علىٰ أسماء الأشياء فيما بينها، وتطوَّر بعد اختراع الكتابة، وتفرَّع إلىٰ علوم دلاليَّة متعدِّدة بعد تطوِّر وسائل الكتابة وانتشار المدوَّنات اللُّغويَّة، كما زاد اختراع الكتابة من هيمنة علم الدَّلالة اللُّغوي أو اللِّسانيِّ، وعزَّز اعتقاد بعض الباحثين أنَّ علم الدَّلالة العامَّ أو علوم الدَّلالة كلَّها وليدة علم الدَّلالة اللِّسانيِّ، في حين أنَّ علم الدَّلالة اللِّسانيَّ لم ينشأ ويزدهر إلَّا بعد تطوِّر علم الدَّلالة السِّيميائيِّ واتِّساعه من خلال نشاط التَّواصلَين: اللُّغوي الشَّفويِّ والتَّدوين الكتابيِّ، وبرغم هذا كلِّه يحاول بعض الباحثين أن يربط نشأة علم الدَّلالة اللِّسانيِّ الأولىٰ بكلٍّ من

---

[١] يُنظر: **الدَّلالة والنَّحو**، ص١٣، ١٨.

سوسير مرَّة وبريال مرَّة أخرىٰ أو غيرهما من الباحثين مرَّة ثالثة[1]. ولعلَّ البحث الطَّويل في علم الدَّلالة اللِّسانيِّ والاعتماد علىٰ اللُّغة لتدوين العلوم والفنون البشريَّة المتعدِّدة سيجعل علم الدَّلالة اللِّسانيَّ أصلًا لكثير من علوم الدَّلالة الجديدة المرتبطة به أو المتفرِّعة عنه؛ لأنَّها في الأصل بعض أبواب هذا العلم، الَّتي تُعرف بأنواع الدَّلالة في اللِّسانيَّات الحديثة؛ كالدَّلالات الصَّوتيَّة والصَّرفيَّة والمعجميَّة والتَّركيبيَّة والإيقاعيَّة وغيرها[2]، ناهيك عن ارتباط هذا العلم بعلوم دلاليَّة أخرىٰ أساسًا؛ كعلم الدَّلالة التَّداوليِّ وعلم الدَّلالة الأصوليِّ، الَّذي يُقصد به في هذا المقام: علم بدلالات الألفاظ بالاستناد إلىٰ آراء العلماء في الشَّريعة الإسلاميَّة، ويُعنىٰ «بالأدلَّة الشَّرعيَّة الكلِّيَّة من حيث إنَّها كيف يستنبط عنها الأحكام الشَّرعيَّة»[3].

١٢- علم الدَّلالة النَّصِّيُّ (Textual Semantics)[4]

يرتبط هذا العلم بكلٍّ من علم الدَّلالة الأسلوبيِّ وعلم الدَّلالة التَّواصليِّ وعلم الدَّلالة اللِّسانيِّ، ويدرس أنظمة الخطاب وأساليب التَّأثير في

---

(١) يُنظر: **الدَّلالة والنَّحو**، ص ١١.

(٢) يُنظر: نهر، هادي، **علم الدَّلالة التَّطبيقي (في التُّراث العربيِّ)**، دار الأمل للنَّشر والتَّوزيع، ط١، أربد، الأردن، ص ٤٧. ويُنظر: سلاميُّ، عبد القادر، **علم الدَّلالة في المعجم العربيِّ**، منشورات مكتبة الآداب، ط١، عمَّان-الأردن ٢٠٠٧، ص٥.

(٣) **خزانة العلوم**، ص ١٤٢.

(٤) يُنظر: الرَّشيد، مهنَّا بلال، **علم الدَّلالة النَّصِّيُّ (تأويل النُّصوص بين الفيلولوجيا والأيديولوجيا)**؛ بحث منشور في كتاب جماعيٍّ يضمُّ بحوث مؤتمر اللُّغات الدُّوليِّ، منشورات أبيبل، قونية، تركية، ٢٠٢٠م، ص ٥٣٢-٥٤١.

المتلقِّين، ويُعنىٰ بتأويل النُّصوص وتحوُّلات المعنىٰ بين الفيلولوجيا والأيديولوجيا، ومع أنَّنا لا نعدم مؤلَّفات قديمة تنمُّ عن نشأة هذا العلم القديمة وتطوُّر الدِّارسات الدَّلاليَّة النَّصِّيَّة مثل كتاب: (كليلة ودِمنة) و(الجمهوريّة) و(الخطابة)، وإشارات متعدِّدة لكثير من الشُّعراء العرب؛ كقول قول زهير بن أبي سُلمىٰ:

ومن صامتٍ ترىٰ لك معجب   زيادته أو نقه في التكلمِ

إلّا أنَّ بعض الباحثين يفضِّلون الرَّبط بين ازدهار علم الدَّلالة النَّصِّيِّ من جانب والدِّراسات الفيلولوجيَّة والأسلوبيَّة بوصفها مناهج نقديَّة حديثة أو مدارس أدبيَّة أو لغويَّة جديدة من جانب آخر، مع وجود آراء قديمة تشير إلىٰ أنَّ أسلوب الإنسان هو الإنسان ذاته، وتنادي بتقييم الإنسان من خلال أسلوبه وصمته وكلامه معًا، كما جاء في قول زهير بن أبي سُلمىٰ السَّابق.

ويقترب من علم الدَّلالة النَّصِّيُّ من كلٍّ من علم الدَّلالة الإحصائيِّ بوصفه مؤشرًا من مؤشرات التِّكرار الأسلوبيِّ الدّالّة[1]وعلم الدَّلالة الجيوسياسيِّ وعلم الدَّلالة التَّداوليِّ بوصفهما علمين يهتمَّان بالأساليب الشَّائعة والمتداولة بين الجماهير والمؤثِّرة فيها، وسنفرد الفصل الرَّابع من فصول هذا الكتاب للحديث عن علم الدَّلالة النَّصِّيِّ.

---

[1] يُنظر: مانغونو، دومينيك، **المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب**، ترجمة: محمد يحياتن، منشورات: الدَّار العربيَّة للعلوم ناشرون ودار الاختلاف، ط١، الجزائر ٢٠٠٨م. ص ٨٠-٨١.

١٢ علم الدَّلالة التَّطبيقيُّ (Applied Semantics)

درج كثير من الباحثين علىٰ تقسيم اللَّسانيَّات العامَّة إلىٰ لسانيَّات نظريَّة ولسانيَّات تطبيقيَّة[١]، وأصدر آخرون كتبًا في كلٍّ من علم اللُّغة العامِّ أو علم اللُّغة النَّظريِّ وعلم اللُّغة التَّطبيقيِّ، إلىٰ أن أسفرت هذه الكتب والدِّراسات التَّطبيقيَّة عن ولادة علم الدَّلالة التَّطبيقيِّ؛ ونذكر من هذه الدِّراسات كتاب: محمود إسماعيل صالح (الألفاظ الإسلاميَّة وأساليب معالجتها في النُّصوص المترجمة)، ثمَّ اعتنىٰ الدُّكتور هادي نهر بعلم الدَّلالة التَّطبيقيِّ، ووظَّف مصطلحاته في دراسة علىٰ التُّراث العربيِّ[٢]. وتتعدَّد مصطلحات هذا العلم ومفاتيحه وفقًا لتعدُّد النُّصوص المدروسة وتنوُّعها وخصوصيَّة كلٍّ منها، فإن كان النَّصُّ لغويًّا سادت مصطلحات علم الدَّلالة السِّيميائيِّ، وإن كان لسانيًّا فلا شكَّ أنَّ مصطلحات علم الدَّلالة اللِّسانيِّ أنسب المفاتيح للولوج إلىٰ عوالم النَّصِّ المدروس، وقد يكون البحث في مستوىٰ واحد من مستويات النَّصِّ اللِّسانيِّ؛ كالمستوىٰ الصَّوتِي أو المستوىٰ الصَّرفِيِّ أو المستوىٰ المعجميِّ أو المستوىٰ التَّركيبيِّ، وحينها تكون مصطلحات هذا المستوىٰ أنسب المصطلحات لدراسة هذا المستوىٰ والوقوف علىٰ دلالاته، وقد تتراكم

[١] يُنظر: **الدَّلالة والنَّحو**، ص ٦.

[٢] يُنظر: **علم الدَّلالة التَّطبيقيَّ (في التَّراث العربيِّ)**، ص ٥.

الدِّراسات في مستوىٰ صغير من المستويات؛ فتغدو هذه الدِّراسات المتراكمة علمًا مستقلًّا قائمًا بذاته، علىٰ النَّحو الَّذي تأسَّس فيه علم الدَّلالة المعجميُّ.

١٣ علم الدَّلالة المعجميُّ (Lexical Semantics)

نتج عن علم تفسير القرآن أو تأويل معانيه مجموعة كبيرة من العلوم الأخرىٰ، اشتُهرت فيما بعد باسم علوم القرآن، ولم تقف حدود الاتِّساع علىٰ دائرة علوم القرآن وحدها، بل اتَّسعت هذه الدَّائرة لتُنتج علوم النَّحو والصَّرف وعلم الدَّلالة المعجميَّ الَّذي يهتمُّ بتصنيف المعاجم العربيَّة، الَّتي تُقسم إلىٰ: معاجم لغويَّة ومعاجم في المعاني ومعاجم ترجمة ومعاجم اشتقاقيَّة ومعاجم تطوُّريَّة ومعاجم خاصَّة[١]، وتتنوَّع هذه المعاجم العربيَّة في أحجامها وطرق ترتيب ألفاظها وإيراد معانيها[٢]. وعلم الدَّلالة المعجميُّ علم يدرس المعاجم العربيَّة علىٰ تعدُّدها، وينظر في مناهج مؤلِّفيها المتنوِّعة؛ كمناهج معاجم المعاني الَّتي تقدِّم الألفاظ العربيَّة في حقول معرفيَّة أو دوائر دلاليَّة، ويوضح طرق تصنيف المعاني المتعدِّدة بالعودة إلىٰ جذورها اللُّغويَّة وشرح ما تفيده معاني حروف الزِّيادة المضافة إلىٰ كلِّ جذر من الجذور اللُّغويَّة، وكثيرًا ما يدرس هذا العلم شواهد المعجميِّين الَّتي أوردوها للتَّدليل علىٰ صحَّة المعاني الَّتي أثبتوها

---

[١] يُنظر: يعقوب، إميل، **المعاجم اللغويَّة العربيَّة (بداءتها وتطوُّرها)**، دار العلم للملايين، ط٢، بيروت ١٩٨٥م، ص ١٥-١٧. ويُنظر: **خزانة العلوم**، ص ٦٢.

[٢] يُنظر: **علم الدَّلالة في المعجم العربيِّ**، ص ٣.

للألفاظ في معاجمهم[١]. وقد أسفر علم الدَّلالة المعجميُّ عن دراسات في ظواهر دلاليَّة؛ كالتَّرادف والمشترك اللَّفظيَّين والتَّطوُّر الدَّلاليِّ، مثلما أنتج معاجم متعدِّدة في الأضداد ومثلَّثات الكلام.

١٤ علم الدَّلالة التَّداوليُّ (Pragmatic Semantics)

يهتمُّ علم الدَّلالة التَّداوليُّ بالسَّائد من الأساليب والشَّائع من أنظمة التَّواصل بين الجماهير، وهو في اهتمامه هذا قريب من مجموعة من علوم الدَّلالة، كعلم الدَّلالة التَّاريخيِّ وعلم الدَّلالة المقارن وعلم الدَّلالة الحِجاجيِّ، الَّتي تدرس التَّحوُّلات التَّاريخيَّة والتَّطوُّرات الاجتماعيَّة الَّتي أدَّت إلىٰ شيوع نظام تواصليٍّ ما واندثار نظام آخر أو تطوِّر اللُّغات والظَّواهر والأساليب التَّواصليَّة والحِجاجيَّة والبلاغيَّة[٢]، وكثيرًا ما يستفيد علم الدَّلالة التَّداوليُّ من علم الدَّلالة المقارن حين يقارن الشَّائع المتداول من الألفاظ في مدَّة زمنيَّة ما بالسَّائد المتداول في مرحلة زمنية أخرىٰ.

١٥ علم الدَّلالة الثَّقافيُّ (Cultural Semantics)

يركِّز علم الدَّلالة الثَّقافيُّ علىٰ لغات النَّاس ولهجاتهم وعاداتهم وتقاليدهم وفولكلورهم وألبستهم بوصفها أنظمة تواصليَّة أو بنًىٰ ثقافيَّة تكشف عن أنظمة تواصليَّة أو ترتبط بمعتقدات فكريَّة، وتعبِّر في مجملها عن ثقافة المجتمع الأسطوريَّة والدِّينيَّة والشَّعبيَّة، وتعكس وعيه التَّاريخيَّ

---

[١] يُنظر: جحفة، عبد المجيد، **مدخل إلىٰ الدَّلالة الحديثة**، منشورات دار توبقال للنَّشر، ط١، المغرب ٢٠٠٠، ص ٨٢.

[٢] يُنظر: **الدَّلالة والنَّحو**، ص ٥.

والسِّياسيِّ ونظرته إلىٰ الحياة والوجود الإنسانيِّ. وكثيرًا ما يتقاطع علم الدَّلالة الثَّقافيُّ مع علم الدَّلالة الأنثروبولوجيِّ، فقد كان كثير من الباحثين في علم الدَّلالة الثَّقافيِّ من المهتمِّين بعلم الدَّلالة الأنثروبولوجيِّ، ورجعوا إلىٰ الأنثروبولوجيا لتأصيل كثير من نظرياتهم وأفكارهم المطروحة[١].

١٦ علمُ الدَّلالة الحيويُّ (Vitality Semantics)

يُعنىٰ علم الدَّلالة الحيويُّ بقراءة علامات الحياة في المجتمع البشريِّ وتأويل مؤشِّرات النَّشاط والحيويَّة لدىٰ الإنسان، وتفسير مؤشِّرات الأمراض وعلاماتها عند الكائنات الحيَّة، ويَعُدُّ علم الدَّلالة الحيويُّ الوهن والمرض نقيض مؤشِّرات النَّشاط والحيويَّة وعلامات الحياة؛ لذا يتقاطع هذا العلم مع علم الدَّلالة المرضيِّ، الَّذي يُعنىٰ بقراءة التَّحاليل والصُّور والتَّخطيطات الطِّبِّيَّة بوصفها مؤشِّرات عن التَّعافي من الأمراض أو الإصابة بها، ويتعالق هذا العلم مع علم الدَّلالة الكيميائيِّ أو الكيمياء الحيويَّة، ويُعرَّف علم الدَّلالة الحيويُّ أحيانًا باسم علم الدَّلالة البيولوجيِّ أو علم الأحياء، الَّذي يتجاوز دراسة المؤشِّرات الحيويَّة في المجتمع البشريِّ إلىٰ دراستها في عوالم الحيوانات والنَّباتات والجراثيم أيضًا.

١٧ علم الدَّلالة الجنائيُّ (Criminal Semantics)

واحد من أبرز علوم الدَّلالة الحديثة نسبيًّا، وهو علمٌ يتطوَّر يومًا بعد يوم آخر بتطوِّر العلوم والتِّقنيَّات المعاصرة، ونقرأ بوساطته الأدلَّة الجنائيَّة الَّتي

---

[١] ينُظر: ماتن، بونين، ورينجهام، فليزيتاس، **معجم مصطلحات السِّيميوطيقا**، ترجمة: عابد خزندار، منشورات المركز القوميِّ للتَّرجمة، ط١، القاهرة ٢٠٠٨م، ص ٦.

تساعد علىٰ التَّعرف إلىٰ الجُناة والمجرمين برغم احترافيَّة بعضهم ومحاولتهم إخفاء الأدلَّة الحقيقيَّة، أو تزويد مسرح الجريمة بأدلَّة وهميَّة أو خدَّاعة[1]. ويُعدُّ كتاب (غسل الآفات) الَّذي كُتبه **سيونغ تسو (Sung Tzu)** (**١١٨٦-١٢٤٩**.م) في الصِّين في القرن الثَّالث عشر الميلاديِّ واحدًا من أبرز المؤلَّفات في علم الدَّلالة الجنائيِّ في العصور الوسطىٰ، فقد شرح مؤلِّف هذا الكتاب أهمِّيَّة الأدلَّة في مسرح الجريمة، وشدَّد علىٰ ضرورة قراءتها الدَّقيقة أو الاستدلال الصَّحيح بها، وقال مؤلِّف الكتاب: «إنَّ الشَّعرة الواحدة في مكان الجريمة تُحدِث أهميَّة في التَّحقيق توازي مسافة مئة ميل»[2].

ويرتبط علم الدَّلالة الجنائيُّ بالتَّشريعات والقوانين وكذلك له ارتباط وثيق بفروع الطِّبِّ البشريِّ، ولا سيَّما الكيمياء الحيويَّة وعلم الأنسجة. وفي كثير من الأحيان يُعدُّ علم الدَّلالة الجنائيُّ جزءًا من الطِّبِّ الشَّرعيِّ الَّذي راح يتطوَّر في أوروبَّا بشكل ملحوظ في القرن السَّادس عشر الميلاديِّ حين أصدر إمبراطور ألمانيا شارل الخامس قانون كارولين Caroline Code، الَّذي أكَّد علىٰ أهمية الخبرة ودورها في قراءة الأدلَّة الجنائيَّة أو استنطاقِها للوصول إلىٰ نتائج صادقة في التَّعرُّف إلىٰ المتهمِّين وتجريم مرتكبي الجرائم. وأسهم في

---

[1] يُنظر: المهديُّ، السَّيِّد، **مسرح الجريمة ودلالته في تحديد شخصيَّة الجاني**، ترجمة: مركز التَّعريب والبرمجة، دار النَّشر بالمركز العربيِّ للدِّراسات الأمنيَّة والتَّدريب، ط١، الرِّياض **١٩٩٣**م، ص **١٩**.

[2] يُنظر: إينس، براين، **الأدلَّة الجنائيَّة (عالم التَّحقيقات الجنائيَّة المدهشة وكيف ساعد علىٰ حلِّ لغز أكثر من ١٠٠ جريمة حقيقيَّة)**، ترجمة: مركز التَّعريب والبرمجة، الدَّار العربيَّة للعلوم، ط١، بيروت **٢٠٠٢**.م، ص ٧.

تطوُّر علم الدَّلالة الجنائيِّ والطبِّ الشَّرعيِّ كلٌّ من الجرَّاح الفرنسيِّ أمبراوز باريه (Ambroise Pare) (١٥١٠-١٥٩٠م) والطَّبيب الإيطاليِّ جيوفاني مورغانيي (Giovanni Battista Morgagni) (١٦٢٢-١٧٧١م)، الَّذي يُعدُّ أوَّل من وظَّف علم التَّشريح الحديث في مجال قراءة الأدلَّة الجنائيَّة في القرن الثَّامن عشر الميلاديِّ[١]. وعلم الدَّلالة الجنائيِّ في وقتنا الرَّاهن علىٰ علاقة وثيقة باللِّسانيَّات الجنائيَّة، وهو علم مزدهر نظرًا لكثرة التِّقنيَّات الحديثة الَّتي توفِّر أدلَّة متعدِّدة ومتنوِّعة؛ منها أدلَّة قاطعة لا تقبل تأويلات متعدِّدة؛ كالبصمات ومقاطع الصُّور المتحرِّكة الَّتي تنتجها آلات التَّصوير والمراقبة والتَّسجيلات الصَّوتيَّة والمنشورات المتعدِّدة في مواقع التَّواصل الاجتماعيِّ[٢].

١٨ علم الدَّلالة البيطريُّ (Veterinary Semantics)

علم الدَّلالة البيطريُّ قريب من الطِّبِّ البيطريِّ، لكنَّه أوسع منه؛ لأنَّه يتجاوز مجال تطبيب الحيوانات والعناية بها إلىٰ تدجينها ودراسة طبائعها ومعرفة سلوكها وخصائصها؛ لتسهيل تربيتها وتدجينها وتوجيهها أو سياستها، ولا سيَّما أنَّ علماء السُّلوك يحاولون نقلَ كثير مما يُجرَّب علىٰ تدجين الحيوانات وتهذيب سلوكها إلىٰ ميدان السُّلوك البشريِّ، و«مقابلة أوجه النَّاس بأوجه الحيوانات وإطلاق أخلاق الحيوانات علىٰ شبيهها الإنسان»[٣]؛ كنظريَّة إيفان بافلوف (Ivan Pavlov) (١٨٤٩-١٩٣٦م) في التَّعليم الشَّرطيِّ

---

[١] يُنظر: **الأدلَّة الجنائيَّة**، ص ٧.

[٢] يُنظر: **الأدلَّة الجنائيَّة**، ص ٨.

[٣] **الفِراسة بين الأمس واليوم**، ص ٨.

ونظرية القرود الخمسة ونظريَّات تدجين كلاب الصَّيد وتربية كلاب الحراسة وتدريبها وسياسة الخيول وتدريب الصُّقور علىٰ الصَّيد لأصحابها بدلًا من الصَّيد لها. ويُعرَّف علم البيطرة بأنَّه: «علم بأصول تُعرف بها أحوال الدَّوابِّ من صحَّة أو مرض»[(١)]؛ للعناية بالحيوانات من أجل الانتفاع بها، وأكثر ما عُني بالخيل في العصور القديمة؛ وذلك «لمنفعتها للإنسان في الطَّلب والهرب ومحاربة الأعداء وجمال صورها وحسن أدواتها»[(٢)].

ويرتبط **علم البيزرة** بعلم البيطرة ويتفرَّع عنه، ويعنىٰ بتربية الجوارح من الطُّيور والحيوانات وتدجينها ومعرفة طبائعها؛ للانتفاع منها بالحراسة والصَّيد بعد تعليمها وتدريبها. وكذلك يرتبط علم الدَّلالة الزِّراعيِّ بعلم الدَّلالة البيطريِّ، ويُعنىٰ هذا العلم بمعرفة أحوال البذور والنَّباتات والأشجار وخصائصها لزراعتها والعناية بها من خلال تقليمها وتطعيمها وإكثار ثمارها والانتفاع من جملة محاصيلها، وعلم الفلاحة عند العرب هو علم يُعنىٰ «بمعرفة أحوال النَّباتات من حيث تنميته بالسَّقي والعلاج»[(٣)].

١٩ علم الدَّلالة الكونيُّ أو علم الدَّلالة الفلكيُّ (Astronomical Semantics)

وقد عرفته الشُّعوب من عصور سالفة، واشتُهرت به شعوب العراق وسكَّان بلاد الرَّافدين القديمة؛ كالسُّومريِّين والعُبيديِّين والأكديِّين

(١) خزانة العلوم، ص ١٧٨.

(٢) خزانة العلوم، ص ١٧٨.

(٣) خزانة العلوم، ص ١٨٠.

والبابليِّين، وأطلق عليه العرب قديمًا علم الهيئة، وهو «علم تُعرف به الأجرام السَّماويَّة من حيث كيانها وكيفيّاتها وأوضاعها وحركاتها اللَّازمة لها»[1]، ويتقاطع هذا العلم مع علوم الرِّياضيَّات والجبر والهندسة والأجرام السَّماوية والتَّنجيم أو علم مواقع النُّجوم ومنها علوم الأبراج وقراءة الطَّالع، ومن فروعه أيضًا «كتابة التَّقويم، وعلم حساب النُّجوم، وعلم كيفيَّة الأرصاد، وعلم الآلات الرَّصديَّة، وعلم المواقيت، وعلم الآلات الظِّلِّيَّة، وعلم الأكر، وعلم الأكر المتحرِّكة، وعلم تسطيح الأرض، وعلم صور الكواكب، وعلم مقادير العلويَّات، وعلم منازل القمر»[2]، وعلم أحكام النُّجوم الَّذي يُعرَّف بأنَّه: «علم يُعرف به الاستدلال بالتَّشكيلات الفلكيَّة على الحوادث السُّفليَّة»[3].

ولعلَّ هذه العلوم تتطلَّب حذقًا في الرِّياضيَّات والهندسة ورجاحة في العقل؛ ولذلك كثيرًا ما استشار القادة الفاتحون المنجِّمين، ولربَّما كان الإسكندر المقدونيُّ واحدًا من أشهر القادة الَّذين اُشتهروا باستشارة المنجِّمين لقراءة الطَّالع أو لمعرفة أحوال الطقس والأرصاد الجوِّيَّة على أقلِّ تقدير؛ لكنَّ الخليفة العبَّاسيَّ المعتصم (٧٩٦-٨٤٢م) استشار المنجِّمين، وخالفهم يوم فتح عمُّوريَّة؛ فأنشد في ذلك أبو تمَّام (٨٠٣-٨٤٥م):

السَّيف أصدق أنباءً من الكتبِ   في حدِّه الحدُّ بين الجدِّ واللَّعبِ

---

[1] خزانة العلوم، ص ١٠٤.

[2] خزانة العلوم، ص ١٠٥.

[3] خزانة العلوم، ص ١٨٩.

٢٠ علم الدَّلالة الجوِّيُّ أو علم الأرصاد الجوِّيَّة (Meteorology Semantics)

من الواضح أنَّ هذا العلم قريب جدًّا من علوم الفلك والرِّياضيَّات في حساب سرعة الرِّياح وحركات المدِّ والجزرِ وغيرها ممَّا يؤثِّر في الطَّقس والمناخ واستعداد النَّاس لأعمالهم اليوميَّة والمستقبليَّة، غير أنَّه يركِّز علىٰ مجال التَّنبُّؤ بأحوال الطَّقس والأرصاد الجوِّيَّة وحساب درجات الحرارة وسرعة الرِّياح، ومع ذلك عدَّه النَّاس–ولا سيَّما في نشأته الأولىٰ–نوعًا من علوم العرافة أو النُّبوءة أو التَّنجيم. ويتفرَّع من هذا العلم علم الميقات الَّذي تُعرف به أزمنة الأيَّام واللَّيالي وأحوالها، وأوقات العبادات وتوخِّي جهاتها ومقادير الظِّلال والارتفاعات وسُموت البلدان وانحراف بعضها الأوَّل عن بعضها الآخر[١].

٢١ علم الدَّلالة العرفانيُّ (Cognitive Semantics)

يهتمُّ علم الدَّلالة العرفانيُّ في جانب من جوانبه بتجريد القلب لله تعالىٰ، ويفضِّل نفر أوائل العارفين بهذا العلم أو العاملين في مجاله لقب (العارف بالله)؛ حيث يعتمدون علىٰ قلوبهم في تأويل ما تقع عليه عيونهم وقلوبهم وعقولهم من رموز وإشارات، ومنهجهم قريب من منهج المفسِّرين بالرَّأي، ولا سيَّما حين ينطلقون من قاعدة: (استفتِ قلبك ولو أفتوك)، ولعلَّ علم الرُّموز الصُّوفيَّة أو علم الدَّلالة الصُّوفيَّة يتقاطع مع علم الدَّلالة العرفانيِّ، ولا يقتصر أتباع هذا

[١] يُنظر: خزانة العلوم، ص ١٦٦.

المذهب التَّأويليِّ على ملَّة أو ديانة دون سواها، وكلُّهم ينهجون منهجًا خاصًّا في التَّسليم للخالق مسيِّر الدَّلائل، ويحتفظون لأنفسهم بالاستدلال على صلاح القلب والحواسِّ والإنسان كلِّه في ظلِّ ما يرونه أو يسمعونه أو يحسُّون به من علامات[1]، لكنَّ هذا العلم يتطوَّر بشكل مستمرٍّ، ولم يعد يقتصر على هذا النَّوع من المعرفة الوجدانيَّة بل صار علمًا محضًا، وهو قريب من علوم الدَّلالة الطِّبِّيَّة والحيويَّة والوراثيَّة، ودخلت تطبيقاته في هذه الأيام مراكز البرمجة العصبية والذَّكاء الاصطناعيِّ، ويُعد مدخلًا مهمًّا من مداخل المعرفة الإنسانيَّة في عمومها أيضًا.

٢٢ علم الدَّلالة الاقتصاديُّ (Economic Semantics)

عِلمٌ يُستدلُّ به على أحوال الأسواق والسِّلع وحركة البيع والشِّراء أو العرض والطَّلب، وتُقرأ من خلاله حركة التِّجارة العالميَّة وكثير من أسباب الحروب والصِّراعات السِّياسية والعسكريَّة على النُّفوذ والمادَّة. وتُفيد معرفة هذا العلم في تفسير كثير من جوانب حياة البشر وسلوكهم إلى الحدِّ الَّذي راح يُعدُّ فيه علم الدَّلالة الاقتصاديُّ واحدًا من أشهر النَّظريَّات العلميَّة الدَّقيقة؛ لأنَّها تفسِّر حركة التَّاريخ وسيرورته بواقعيَّة ومنطقيَّة كبيرتين[2]، ويُعد آدم سميث (Adam Smith) (**١٧٢٣-١٧٩٠**.م) وكارل ماركس (Karl Marx) (**١٨٤٣-١٨٨٣**.م) من أشهر العاملين في علم الدَّلالة الاقتصاديِّ الحديث، الَّذي يتقاطع مع علم الاقتصاد السِّياسيِّ، وفي ضوء من هذا العلم

---

[1] يُنظر: **خزانة العلوم**، ص **٩٥**.

[2] يُنظر: **خزانة العلوم**، ص **٣٠**.

أعطىٰ ماركس تفسيرًا منطقيًّا لكثير من أحداث التَّاريخ، وصدق كثير من تفسيراته الاقتصاديِّة والمادِّيَّة علىٰ العلاقات الاجتماعيِّة وسيرورة التَّاريخ، «ولا يعني هذا أنَّ التَّاريخ عند ماركس يمثِّل الشَّيء المطلق، لكن هو ما نحتكم إليه عند دراسة التُّراث الإنسانيِّ ومعرفة تطوُّره وتغيُّره الاجتماعيِّ والاقتصاديِّ»[١].

٢٣ علم الدَّلالة الكيميائيُّ (Chemical Semantics)

علم الدَّلالة الكيميائيُّ علم متشعِّب إلىٰ حدٍّ كبير، ويتعالق مع كثير من العلوم الأخرىٰ، ويدخل في حيِّز واسع من مجالات الحياة، ويُعرَّف هذا العلم في أصله بأنَّه: «علم بأصول تعرف بها معدن الذَّهب والفضَّة»[٢]، ويساعد علىٰ الانتفاع بهذه المعادن من خلال تعليم خصائصها وتفاعلاتها وطرائق استخراجها، ثم تفرَّع هذا العلم وتقسَّم إلىٰ علوم كثيرة؛ منها: علم الدَّلالة الكيميائيُّ العامُّ وعلم الكيمياء العضويَّة وعلم الكيمياء الحيويَّة وعلم الكيمياء البحتة وعلم كيمياء الحشرات وعلم الكيمياء الجنائيَّة[٣]، ولكلٍّ من هذه العلوم رموزه وعلاماته وتفاعلاته وطرق استخدامها وتطبيقاها في مجالات الحياة المتعدِّدة؛ لذلك راح النَّاس يضربون المثل بصعوبة الكيمياء؛

---

[١] فلسفة التَّاريخ (جدل البداية والنِّهاية والعود الدَّائم)، ص ٢٠٣.

[٢] يُنظر: خزانة العلوم، ص ١٧٢.

[٣] يُنظر: الضَّبأَّح، عبد الرَّحمن بن محمَّد، و: آل جابر، سلطان بن سعيد، **الكيمياء الجنائيَّة**، منشورات وزارة الدَّاخليَّة السُّعودية (كلِّيَّة الملك فهد الأمنيَّة، مركز الدِّراسات والبحوث)، ط١، الرِّياض ٢٠١٣م، ص ٣١، ٤٥، ٩٦.

نظرًا لتعدُّد علومها وكثرة رموزها وتطبيقاتها إلىٰ الحدِّ الَّذي يصعب عنده تذكُّرها بعض الأحيان.

ويتعالق علم كيمياء الحشرات-علىٰ سبيل المثال-مع كلٍّ من علم الدَّلالة التَّواصليِّ من حيث قراءة أنظمة التَّشفير والتَّواصل لدىٰ خلايا النَّحل والنَّمل وجماعات الطُّيور والأسماك في رحلاتها الطَّويلة، وعلم الدَّلالة الجنائيِّ من حيث الاستدلال علىٰ بعض الجرائم والجنايات من خلال وجود بعض الحشرات أو وجود إفرازاتها الكيماويَّة علىٰ بعض الجثث، مثلما يتعالق علم الدَّلالة الكيميائيُّ مع كلٍّ من علم الدَّلالة الأنثروبولوجيِّ وعلم الدَّلالة الحيويِّ وغيرهما من علوم الدَّلالة الكثيرة. ويرتبط علم الدَّلالة الكيميائيُّ ارتباطًا وثيقًا بعلم الدَّلالة السِّيميائيِّ، ولعلَّ قراءة نتائج التَّفاعلات الكيميائيَّة من خلال ما تتركه من علامات دالَّة يقع في مجال علم الدَّلالة السِّيميائيِّ، ويكشف عن تقارب هذين العلمين، ويدلُّ كذلك علىٰ اقتراب علم السِّحر والطَّلسمات منه أيضًا، حين يكتب برموز خفيَّة، ويقرأ طلسمات غامضة، وعلم السِّحر والطلسمات: «علم بكيفيَّة استعدادات تقتدر بها النُّفوس البشريَّة علىٰ ظهور التَّأثير في عالم العناصر إمَّا بلا معين أو بمعين سماويٍّ، والأوَّل: السِّحر، والثَّاني: الطَّلسمات» [(١)].

(١) خزانة العلوم، ص ١٨١.

٢٤ علم الدَّلالة الهندسيُّ (Geometric Semantics)

هو علم «تُعرف به خواصُّ المقادير وكمِّيَّة مقادير الأشياء: الخطّ والسَّطح والجسم التَّعليميّ وأوضاعها»[١] ولواحقها: كالنُّقاط والزَّوايا المحرقيَّة والأقواس الدَّائريَّة وتطبيقاتها في الرِّياضيَّات والهندسة المعماريَّة[٢] والقطع والخطوط المستقيمة والأبعاد والمساحات والحجوم والنِّسب وخواصِّ الأشياء وقوانين أشكالها وحساب مقاديرها. ولا يختلف علم الدَّلالة الهندسيُّ الحديث عن علم الهندسة قديمًا، إلَّا بازدياد مجالات التَّطبيق العمليِّ واتِّساع بعض النَّظريَّات وشرح بعض القوانين، وعلم الدِّلالة الهندسيُّ علم رياضيٌّ «يبحث في الخطوط والأبعاد والسُّطوح والزَّوايا والكمِّيَّات أو المقادير المادِّيَّة من حيث خواصِّها أو تقويمها وعلاقة بعضها ببعض»[٣].

وفي القرن الثَّالث قبل الميلاد استفاد الفيلسوف اليونانيُّ إراتوستينس القوريني Eratosthenes of Cyrene (٢٧٦-١٩٤ ق.م) من قوانين الهندسة، واستطاع من خلالها أن يحسب قطر الكرة الأرضيَّة دون أن يسافر أو يرحل إلىٰ الفضاء، ودون أن يمتلك أدوات متطوِّرة لقياس المسافات، وإنَّما قاس زاوية شعاع الضَّوء بين مسلَّة في الإسكندرية وأخرىٰ في أسوان؛ فكانت نتيجته أنَّ المسافة بين الإسكندريَّة وأسوان مضروبة بثلاثمئة وستِّين درجة

---

[١] يُنظر: **خزانة العلوم**، ص ٩٩.

[٢] يُنظر: **خزانة العلوم**، ص ١٠٠.

[٣] يُنظر: **خزانة العلوم**، ص ٩٩.

تساوي محيط الكرة الأرضيَّة؛ ومن هنا استنتج أنَّ محيط الكرة الأرضيَّة يساوي **٤٦٢٥٠** كم، في حين يقرِّر العلم الحديث في وقتنا الرَّاهن أنَّ محيط الكرة الأرضيَّة يساوي **٤٠٠٧٥** كم؛ ومن هنا يبدو لنا أيضًا أنَّ علم الدَّلالة الهندسيَّ يتقاطع مع كلٍّ من علم الدَّلالة الفلكيِّ وعلم الدَّلالة الجغرافيِّ وعلم الدَّلالة التَّنبُّئيِّ أو علم الأرصاد الجويَّة أو علم الدَّلالة الجوِّيِّ، ويقترب من علم الدَّلالة الهندسيِّ كلٌّ من علم الدَّلالة الإحصائيِّ، وعلم الدَّلالة الحسابيِّ، الَّذي عرَّفه صاحب الخزانة بقوله: «علم بأصول يتوصَّل بها إلىٰ استخراج المجهولات العدديَّة»[١].

٢٥ علم الدَّلالة التَّعليميُّ (Educational Semantics)[٢]

التَّعليم علم كبير قائم بذاته، والفروق الفرديَّة بين المتعلِّمين كثيرة جدًّا؛ تحتاج إلىٰ دراية بفنون التَّعليم وطرائق التَّدريس، ناهيك عن تعدُّد بيئات التَّعليم ومناهجه وطرقه ونظريَّاته؛ ولهذا كلِّه يزوِّدنا علم الدَّلالة التَّعليميُّ بكثير من الأدوات والمفاتيح والنَّظريَّات الَّتي تساعد في قيادة العمليَّة التَّعليميَّة وتوجيهها، بدءًا من تعليم الطِّفل الصَّغير، الَّذي يعدُّ كثيرٌ من المعلِّمين

---

[١] يُنظر: خزانة العلوم، ص **٩٩**.

[٢] يُعرِّف صاحب خزانة العلوم العلم التَّعليميَّ بأنَّه: ما يُبحث فيه عن أشياء موجودة في مادَّة كالمقادير والأشكال والحركات، ويعني به العلم الرِّياضيَّ، الَّذي يعرِّفه بقوله: هو علم بأحوال ما يفتقر في الوجود الخارجيِّ دون التعقُّل إلىٰ المادَّة كالتَّربيع، والتَّثليث، والتَّدوير، والكرويَّة، والمخروطيَّة، والعدد، وخواصِّه، فإنَّها تفتقر إلىٰ المادَّة في وجودها لا في حدودها، ويُسمىٰ أيضًا بالعلم التَّعليميِّ، وبالعلم الأوسط، وبالحكمة الوسطىٰ. ص ١٠٧.

عقله صفحة بيضاء، يسهل ضبطها وتنظيمها، مثلما يعطينا علم الدَّلالة التَّعليميُّ مجموعة من الوسائل الَّتي تساعدنا علىٰ تشخيص الفروق الفرديَّة والاستدلال علىٰ مستويات الذَّكاء المتعدَّدة، ويزوِّدنا بخبرات علميَّة كثيرة في مجال إدارة الصُّفوف التَّعليميَّة، وطرق التَّفاعل مع المتعلِّمين وضبط سلوكيَّاتهم المتعدِّدة علىٰ اختلاف أعمارهم وأجناسهم وبيئاتهم وثقافاتهم، بدءًا من مراحل التَّعليم المبكِّرة في الرَّوضة وصولًا إلىٰ تعليم طلبة الدِّراسات العليا في مراحل الماجستير والدُّكتوراه ومتعلِّمي اللُّغات الأجنبيَّة من النَّاطقين بغيرها، ويتآزر مع علم الدَّلالة التَّعليميِّ في هذا المجال كلٌّ من علم اللُّغة التَّطبيقيِّ واللِّسانيَّات التَّطبيقيَّة وعلم الدَّلالة السُّلوكيِّ وعلم الدَّلالة النَّفسيِّ وعلم الدَّلالة الاجتماعيِّ وغيرها من علوم الدَّلالة الكثيرة.

٢٦ علم الدّلالة القيافيُّ (Traceral Semantics)

القيافة مصدر الفعل (قاف-يقوف)، ويعني **علم الدَّلالة القيافيُّ**: «الاستدلال علىٰ أحوال الإنسان بالنَّظر إلىٰ جلود النَّاس، وهيئات الأعضاء، خصوصًا الأقدام» [(١)]. ويضمُّ هذا العلم كلًّا من: **علم العيافة وعلم الاختلاج وعلم الرِّيافة**: الَّذي يُستدلُّ به علىٰ «عمق الماء في باطن الأرض، بشمِّ التُّراب، ورؤية النَّبات والحيوان، ومراقبة حركاته» [(٢)]. ويتضَّمن كذلك **عِلم العِيافة أو علم اقتفاء الأثر** الَّذي يعني: «تتبَّع آثار الأقدام والحوافر والأظلاف والأخفاف

---

(١) الفِراسة بين الأمس واليوم، ص ٩.

(٢) الفِراسة بين الأمس واليوم، ص ٩.

في الطُّرق الرَّمليَّة والطِّينيَّة وغيرها ممَّا تتشكَّل بشكل القدم»[1]. ويقع **علمُ الاختلاج** في دائرة علم الدَّلالة القيافيِّ، ويعني: «الاستدلال علىٰ ما سوف يحدث لإنسان من النَّظر إلىٰ اختلاج أعضائه من الرَّأس إلىٰ القدم»[2]، ويُعبَّر أحيانًا عن علم الدَّلالة القيافيِّ بعلم الفراسة الَّذي يُستدلُّ به-كذلك-علىٰ الأنساب والأصول والطَّبائع والأخلاق والمسير من خلال قراءة علامات محدَّدة يعرفها الفرَّاسون والقفَّاؤون والرَّفَّاؤون. ويُعرف علم الفراسة بأنَّه: «معاينة المغيَّبات بالأنوار الرَّبَّانيَّة؛ بسبب تفرُّس آثار الصُّور»[3]؛ لنعرف به أخلاق الإنسان من هيئته ومزاجه وتوابعهما.

٢٧ علم الدَّلالة المسرحيُّ (Theatrical Semantics)

تتناغم في عرض مسرحيٍّ واحد مجموعة كبيرة من الفنون الزَّمكانيَّة: القوليَّة والتَّعبيريَّة معًا؛ كالشِّعر والغناء والإنشاد والخطابة والرَّقص والتَّمثيل والموسيقا والإخراج والرَّسم والتَّصوير والإضاءة والتَّصميم وغيرها؛ فهو فنٌّ سهلٌ ممتنِع في آن واحد، وقد تُبدع فرقة مسرحيَّة في تقديم عرضها النَّاجح في الشَّارع أو الهواء الطَّلق، وقد تحشد فرقة أخرىٰ طاقات هائلة لتقديم عرضها، ولا تحقِّق نجاحها المأمول؛ وذلك لأنَّ قيادة التَّفاعل السِّيميائيِّ وتوجيهه في مسرحيَّة ناجحة عمل يحتاج إلىٰ كثير من الدِّراية بأسرار التَّحوُّل الرَّمزيِّ في المسرح، ولعلَّ توجيه التَّفاعل الدَّلاليِّ والتَّحكُّم به مع سيرورة العرض

[1] الفِراسة بين الأمس واليوم، ص ٩.

[2] الفِراسة بين الأمس واليوم، ص ٩.

[3] خزانة العلوم، ص ١٨٥.

المسرحيِّ نحو مقاصد محدَّدة يتجاوز حشد تلك الفنون إلىٰ ضرورة الإلمام بأسرار تفاعلها السِّيميائيِّ ومدىٰ الحاجة لهذا الفنِّ أو ذاك في العرض المسرحيِّ، ولو تشتَّت ذهن المتلقِّي بين حشد من الفنون والمؤثِّرات لحظة واحدة، ولم يحافظ المخرج علىٰ تصاعد التَّفاعل السِّيميائيِّ معه من خلال العرض المسرحيِّ سيفقد زمام المبادرة، وسيصعب عليه إعادة المتلقِّي إلىٰ جوِّ العمل وإمتاعه أو التَّأثير فيه من خلال مقاصد العرض المسرحيِّ الدَّلاليَّة؛ ومن هنا يشبه علم الدَّلالة المسرحيُّ علم الدَّلالة السِّيميائيَّ في كثرة علاماته وتفاعلاتها السِّيميائيَّة والدَّلاليَّة، ويتقاطع معه في كثير من العلامات والمصطلحات، وبرغم التَّنظير الكثير في التَّأليف المسرحيِّ وصناعة المشاهد المسرحيَّة وإخراجها من منظور لغويٍّ حينًا ومن نواحٍ تمثيليَّة وتأليفيَّة وإخراجيَّة ومشهديَّة أحيانًا أخرىٰ يبقىٰ الإلمام بمصطلحات علم الدَّلالة المسرحيِّ ومفاتيحه ومنهجيَّته وأدواته النَّقديَّة مُعينًا مهمًّا للكتُّاب والنُّقَّاد والممثِّلين والمخرجين المسرحيِّين كلِّهم.

يعدُّ كثير من الباحثين المسرح أبا الفنون كلِّها، ويحتوي العرض المسرحيُّ الواحد علىٰ كثير من العلامات الدَّالَّة؛ اللِّسانيَّة والسِّيميائيَّة؛ ولذلك يساعد علم الدَّلالة السِّيميائيُّ علىٰ معرفة الأسباب الكامنة وراء فشل بعض الأعمال المسرحيَّة برغم احتوائها علىٰ إشارات سيميائيَّة جيِّدة، وتفاؤل مؤلِّفيها بنجاحها؛ نظرًا لتشظِّي التَّفاعلات السِّيميائيَّة بين شيفرات الفنون المتعدِّدة وعجز أصحابها عن قيادتها وتوجيهها للوصول إلىٰ سينوغرافيا مشهديَّة متلاحمة، تُنبِئ عن تحوُّلات رمزيَّة ومقولات دلاليَّة تتجاوز الحشد الاعتباطيِّ

لبعض المواقف الكوميديَّة أو التَّراجيديَّة؛ فيؤدِّي هذا الحشد الاعتباطيُّ لمجموعة كبيرة من العلامات السّيميائيّة دورًا مضلِّلًا يشبه دور الأحداث التّاريخيَّة الظَّاهرة في تضليل قارئها إن لم يعرف الأسباب الكبرىٰ الَّتي تقع خلفها، أو تكمن وراءها.

٢٨ علم الدَّلالة المقارِن (Comparative Semantics)

يُشبه هذا العلم علمَ الدَّلالة السِّيميائيَّ أو نظريَّة الإشارة الكبرىٰ في اشتمالها علىٰ كثير من علوم الدَّلالة الأخرىٰ، ويمتاز بمجموعة من الأدوات المنهجيَّة الَّتي تمكِّنه من مقارنة علم دلاليٍّ بآخر أو ظاهرة دلاليَّة بأخرىٰ بالاستفادة من شموليَّته وتعدُّد أدواته، ولا يعقد هذا العلم مقارناته من أجل المقارنة ذاتها وإنَّما يعقدها من أجل الوصول إلىٰ نتائج متميِّزة في مجال الاستدلال أو قراءة العلامات السِّيميائيَّة والإشارات الدَّالَّة، ومن خلال مقارناته تتحدَّد في كثير من الأحيان الميادين التَّطبيقيَّة لكلِّ علم من علوم الدَّلالة، وتتبيَّن قدرة كلِّ علم علىٰ توفير الأدوات والمفاتيح اللَّازمة لقراءة العلامات والإشارات قراءة صحيحة والاستدلال بها للوصول إلىٰ معلومات وتفسيرات دقيقة أو قريبة من الدِّقَّة إلىٰ حدٍّ بعيد[١]؛ ويقودنا علم الدَّلالة المقارِن إلىٰ فقرة مهمة من فقرات البحث؛ ترتبط بقراءة الأدلَّة وطرائقها المتعدِّدة.

بقي أن نشير إلىٰ أنَّ علوم الدَّلالة في تطوّر مستمرٍّ وحركيَّة دائمة؛ تزداد يومًا بعد آخر؛ فكلَّما اتَّسع علم من علومها، وتعدَّدت فصوله ومباحثه استقلَّت

---

[١] يُنظر: **الدَّلالة والنَّحو**، ص ٥.

تلك الفصول، وصار بعض تلك المباحث علمًا قائمًا بذاته؛ له علاماته وأيقوناته ومصطلحاته ودوالُّه ومدلولاته، ولا سيَّما أنَّ لغات التَّشفير في زمن الثَّورة الرَّقميَّة كثيرة، ويصعب إحصاء اللُّغات وتصنيفها في تطبيقات البرامج الإلكترونيَّة؛ غير أنَّ أهمّيَّة هذا العلم الدَّلاليِّ أو ذاك تتحدَّد بمدىٰ انتشار العلم وحاجة النَّاس له وتأثيره في حياتهم، ولا شكَّ أنَّنا في هذه اللَّحظة الَّتي نخطُّ فيها سطور هذا البحث تتراجع أهمِّيَّة بعض العلوم الدَّلاليَّة، ويزدهر بعضها الآخر، ويتقاطع بعض منها مع علوم أخرىٰ، ويستقلُّ بعض من فروع هذا العلم الدَّلاليِّ عن أصله؛ ليغدو علمًا قائمًا بذاته؛ لذلك يبقىٰ إحصاء علوم الدَّلالة إحصاءً تقريبيًّا، ويختلف تصنيفها باختلاف طريقة التَّصنيف ومرجعيَّة المصنِّف أيضًا.

٥ تفسير العلامات وقراءة الأدلَّة وتحوُّلاتها الرَّمزيَّة

يستعين الباحث الدَّلاليُّ بعلم الدَّلالة المعجميُّ بوصفه مدخلًا مهمًّا من مداخل التَّأويل؛ ويكثر أن يتجاوز التَّأويل حدود الدَّلالات المعجميَّة نظرًا لسيرورة المعنىٰ وتحوُّل دلالات العلامات أو تطوُّرها الدَّلاليُّ في سياقاتها الجديدة بسبب التَّفاعل السِّيميائيِّ بين أقطاب التَّواصل: (المرسل والرِّسالة والمتلقِّي والسِّياق والمرجع)؛ ممَّا يدفع علم الدَّلالة المعجميَّ نحو تحديث أمثلته وشواهده، وهو يشرح معاني الجذور اللُّغويَّة في سياقات متعدِّدة. والحقُّ يجب علىٰ المجامع اللُّغويَّة أن ترصد الحراك الدَّلاليَّ، وتقدِّم بحوثها التَّطبيقيَّة حول التَّطوُّرات الدَّلاليَّة في مراحل انتقاليَّة؛ لتقف علىٰ الأسباب الكامنة وراء

تحوُّلات المعاني، وتحدِّث معاجمها اللُّغويَّة بما يواكب الحراك الدَّلاليَّ في المجتمع.

تؤثِّر العلاقة الجدليَّة بين الدَّالِّ والمدلول والسِّياق والمرجع في تشكيل المعنىٰ، وقد تتعدَّد تأويلات الجملة الواحدة بتعدُّد المؤوِّلين؛ نظرًا لاختلاف مرجعيَّاتهم وتعدُّد ثقافاتهم؛ ممَّا يجعل قراءة تلك العلامات وتأويلها مهمَّة صعبة تحتاج إلىٰ كثير من العلم والمهارة والأدوات والمفاتيح المناسبة للقراءة والخوض في عوالم التَّأويل، ولا سيَّما أنَّ قانون العلاقة الاعتباطيَّة بين الدَّالِّ والمدلول داخل بِنىٰ العلامات يفسِّر عدم جدوىٰ البحث عن تشابهات: (صوتيَّة، إيقاعيَّة، أيقونيَّة) بين شكل العلامة ودلالتها، ولعلَّ يقيننا بحتميَّة سيرورة المعنىٰ وتحوُّلاته الرَّمزيَّة يزداد رسوخًا حين نضيف تأثير السَّياق والمرجع إلىٰ تأثير الاعتباطيَّة في تحوُّلات المعنىٰ؛ لذلك يمكن القول: إن حقيقة الحياة غير ما تبدو عليه في كثير من الأحيان، وهكذا يؤدِّي تداخل مجالات الحياة وتقاطع علومها دورًا مضلِّلًا إذا لم يكن المؤوِّل حصيفًا، أو إن لم يكن علىٰ خبرة واسعة بتضليل الأدلَّة المتراكمة، ويمكن مقارنة تضليل الحياة بتضليل المجرم أو الجاني من خلال الإكثار من الأدلَّة الوهميَّة في مسرح الحياة أو مسرح الجريمة؛ حيث يعمد بعض المجرمين المحترفين إلىٰ تزويد مسرح الجريمة بأدلَّة وهميَّة أو مزيَّفة لا ترتبط بالمجرم الحقيقيِّ أو الجريمة؛ فتضلِّل المحقِّق بدل أن تفيده وترشده؛ كأن يلقي -عمدًا- في مسرح الجريمة منديلًا عليه بصمات غيره أو قطرة من دماء شخص آخر، أو وثيقة من وثائق الآخرين، أو أن يلبس قفازًا يغيِّب من خلاله بصماته، أو أن يعطِّل آلات التَّصوير

والمراقبة؛ وما أشبه عمل الحياة بهذا العمل! وما أشبه عمل الفنَّان المبدع بعمل المجرم المخاتل حين يُخدِّر وعي المتلقِّي، ويقوده في عوالم نصوصه ومدوَّناته! غير أنَّه شتان بين المجرمَين والجريمتين والمخاتِلَين! فما أقبحَ مخاتلة المجرمَ وما أروع مراوغات الفنَّان المبدع!

يعتقد بعض الباحثين أنَّ لذَّة الحياة تكمن في الأشياء الغامضة الَّتي تحتاج إلىٰ العمل والسَّعي لتفسير ظواهرها وأشيائها، ولا لذة أبدًا في الأشياء الَّتي تقولها الحياة جليَّة واضحة، وأكثر ما تنطبق هذه المقولة علىٰ نصوص الفنَّ والأدب. وإن أجمع الباحثون علىٰ ضرورة توشية النُّصوص الفنِّيَّة والأدبيَّة برموز وإشارات دلاليَّة عميقة، فإنَّهم اختلفوا في درجة التَّوشية ذاتها بين أوَّلٍ مؤمن بالتَّرميز ومنحاز له حتَّىٰ وإن قاد إلىٰ الغموض كما في بعض المذاهب السِّرياليَّة والفنون التَّجريديَّة، وثانٍ راغب بتوشية النَّصِّ الفنِّيِّ أو الأدبيِّ ببعض الرُّموز والإشارات العميقة في حدٍّ متوسِّط لا يؤدِّي إلىٰ غموض النَّصِّ، ولا يسيء إلىٰ دلالته؛ فيحوِّلها إلىٰ نوع من الطَّلاسم المبهمة الَّتي تحتاج إلىٰ عالم مختصٍّ أو متبحِّر في الدَّلالة لمعرفة مقاصدها ومراميها؛ لأنَّ قسمًا كبيرًا من لذَّة النَّصِّ الفنِّيِّ يرتبط بشيوعه وانتشاره بين الجماهير، والنُّزوع نحو الغموض سيقود بالضَّرورة إلىٰ تحويل النَّصِّ الفنِّيِّ من نصٍّ جماهيريٍّ إلىٰ نصٍّ نخبويّ.

غير أنَّ القسمَين من الباحثين يؤمنان بألَّا قيمة للنُّصوص السَّطحيَّة السَّاذجة أو المقولات التَّقريريَّة المباشرة الَّتي لا تحتوي بنيتها العميقة علىٰ شيء آخر غير الَّذي تقوله بنيتها السَّطحيَّة، ولا تختلف هذه النُّصوص السَّطحية عن كلام البشر العاديِّ ونصوص الطَّبيعة إلَّا في ترتيب شكلها علىٰ نحو محدَّد،

أو نسبة هذا النَّصِّ إلىٰ هذا الفنَّان أو ذاك الإنسان بدلًا من تركه علىٰ شيوعه أو نسبته إلىٰ الطَّبيعة ذاتها، غير أنَّ لنصوص الطَّبيعة جماليَّاتها الفريدة، الَّتي تروق لنا جميعًا، ويفضِّل بعض النُّقَّاد نصوص الطَّبيعية؛ كمناظر فصل الرَّبيع وتغريد الطُّيور في الغابة في أوقات الشُّروق أو الغروب علىٰ كثير من نصوص الإبداع البشريِّ نظرًا لأصالتها وتميُّزها من كثير من نصوص البشر الَّتي تفقد روح الإبداع أو الأصالة، أو ينخفض ترتبيها علىٰ سلَّم الدَّرجات الجماليَّة.

تُعيدنا الفقرة السَّابقة حول قضيَّتي: الغموض والوضوح في النُّصوص الفنِّيَّة إلىٰ مذاهب العلماء في تصنيف العلامات الدَّالَّة ومناهجهم في تأويلها، وتدفعنا إلىٰ التَّساؤل عن فائدة توشية النُّصوص الفنِّيَّة بعلامات وإشارات سيميائيَّة دالَّة. ولعلَّ إجماع الباحثين حول انخفاض القيم الجماليَّة في النُّصوص السَّطحيَّة يكشف عن تلازم بين التَّرميز والفنِّ؛ ولأنَّ التَّرميز يقوم علىٰ مبدأ التَّشفير؛ فهو لا يخلو من بعض الكناية أو الغموض أو التَّضليل الفنِّيِّ، إن صحَّ التَّعبير.

يقوم مبدع النَّصِّ الفنِّيِّ بتخدير وعي المتلقِّي؛ لكنَّ أثر هذا التَّخدير لا بدَّ له أن يزول في نهاية المطاف؛ ليكشف النَّصُّ عن مقولته، أو يفصح عن مغزاه بعد أن أغرق المبدع فضاء النَّصِّ بأدلَّة أو علامات (مخدِّرة، أو مضلِّلة أو مخاتلة علىٰ أقلِّ تقدير)؛ تجعل من مبدع النَّصِّ أو مرسله أشبه بالجاني حين يُغرق مسرح الجريمة بأدلَّة مزيَّفة، وهذه حال بعض الأدلَّة المتراكمة في نصوص سيميائيَّة كبرىٰ؛ (كقراءة حضارة ما بوصفها نصًّا سيميائيًّا، أو قراءة موقع جيوسياسيٍّ بوصفه نصًّا ذا دلالة...)، لكن المجرم الجاني يقصد التَّضليل

ذاته، في حين تدعونا نصوص الحياة ونصوص المبدعين إلىٰ التَّأمُّل في دلائلها وعلاماتها، ويسعىٰ المؤلِّف المبدع إلىٰ إمتاع المتلقِّي ومؤانسته من خلال تخديره أو مخامرة وعيه كيلا يباشره بمقولة نصِّه الفنِّيِّ الحقيقيَّة من خلال مراوغات وإدهاشات ومفارقات فنِّيَّة، تخدِّر وعيه حينًا، وتدفعه نحو تصوُّر أشياء مختلفة عن مرامي النَّصِّ الحقيقيَّة حينًا آخر، ولعلَّ أمهر الفنَّانين المبدعين هم مُجِيدو هذا التَّخدير أو ذاك النَّوع من المخاتلة وفنِّ تجميع المفارقات والإدهاشات المقصودة للإمتاع والتَّطهير.

ويبدو أنَّ المبدع الحقَّ يقصد مخاتلة المتلقِّي ومراوغته من خلال ربطه المؤقَّت بدلالات بعض العلامات ومفاجأته في تأويل الرُّموز والإشارات عند نهاية النَّصِّ بعد أن طاف به في عوالم إبداعيَّة متعدِّدة؛ فصنع نصًّا ساخرًا مضحكًا حينًا، أو مضحكًا مبكيًا حينًا آخر، أو بعد أن قال ما أراد أن يقوله بطريقة جماليَّة احترافيَّة في كثير من الأحيان الأخرىٰ، وإن كان تضليل الحياة من خلال الإكثار من علاماتها السِّيميائيَّة مدعاة إلىٰ التَّأمُّل، وتضليل الجاني جريمة تدعو إلىٰ الجدِّ والعمل لكشفه وتقديمه للعدالة، فإنَّ تضليل الفنَّان المبدع مدعاة إلىٰ تقديره لما يدعونا إليه من حبٍّ وخير، وما يقدِّمه لنا من جمال وإمتاع ومؤانسة.

٦ خاتمة الفصل ونتائجه

عرَّف هذا الفصل بثمانية وعشرين علمًا من علوم الدَّلالة، وبيَّن أنَّ علم الدَّلالة القديم وعلم الدَّلالة السِّيميائيَّ اثنان من أقدم علوم الدَّلالة، وأكَّد أنَّ مدوَّنات الشَّرق القديم لم يكن لها أن تُدبَّج، ولا يمكن لها ذلك بدون وجود

علم الدَّلالة القديم، الَّذي درس دلالات النُّصوص المكتوبة، وقارنها بأصلها الشَّفويِّ؛ لتوضيح مقاصدها للنَّاس عند كتابتها وتدوينها، ولعلَّ كُتَّاب بلاد الرَّافدين القدماء الَّذين كتبوا ملحمة جلجامش، وشرحوا شريعة حمورابي، ونصبوا مسلَّات شروحها في ساحات المدن من أقدم مَن عمل في الدَّلالة، وأدرك تحوُّلات المعنىٰ، وظهر لنا أنَّ علم الدَّلالة القديم لم يقف عند هذا الحدِّ من حدود التَّأليف الدَّلاليِّ؛ فقد كتب علماء الدَّلالة القدماء في علم الدَّلالة المعجميِّ، وناقشوا قضايا دلاليَّة غاية في الأهمِّيَّة؛ كقضيَّة التَّرجمة الدَّلاليَّة، وألَّفوا قوائم لغويَّة مهمَّة في علم الدَّلالة المعجميِّ، وترجموا أهمَّ المراسلات الدِّبلوماسيَّة؛ كرسائل تلِّ العمارنة، مثلما ظهرت لنا شموليَّة علم الدَّلالة السِّيميائيِّ، وتبيَّن أنَّ اتِّساع أبواب علم الدَّلالة القديم، وتعدُّد مباحث علم الدَّلالة السِّيميائيِّ من أهمِّ أسباب تعدُّد علوم الدَّلالة في وقتنا الرَّاهن.

كشف الفصل عن طرائق متعدِّدة لتصنيف علوم الدَّلالة في العصر الحديث؛ كالتَّصنيف التَّاريخيِّ والتَّصنيف المرجعيِّ، ووجد أنَّ التَّصنيف الموضوعيَّ تصنيف سهل ومفيد، يساعد علىٰ تجاوز النِّقاش الطَّويل حول مرجعيَّات الباحثين المتعدِّدة وتصوُّراتهم الكثيرة حول طبيعة العلامات الدَّالَّة؛ كالتَّصوُّرات الثُّنائيَّة والثُّلاثيَّة والرُّباعيَّة والخماسيَّة، الَّتي تقود حكمًا إلىٰ تفسيرات ومذاهب تأويليَّة كثيرة ومتمايزة إلىٰ الحدِّ الَّذي يصحُّ فيه الحديث عن معادلة يتساوىٰ فيها طرفٌ أوَّل يحتوي علىٰ دلالات النَّصِّ الكثيرة مع طرف ثانٍ يضمُّ عدد المتلقِّين أو المؤوِّلين، وكذلك وضَّح البحث مجالات استخدام علوم الدَّلالة وحيثيَّات تطبيقها في كثير من جوانب الحياة العمليَّة، ووجد أنَّ

العلوم الإنسانيَّة كلَّها تتَّجه من البساطة إلىٰ التَّقعيد والانتظام، ثمَّ تصل إلىٰ الاتِّساع والتَّصنيف والتَّعدُّد والتَّشعُّب والانقسام.

ثمَّ وقف الباحث في ختام هذا الفصل علىٰ الأسباب الكامنة وراء الدَّلالات المخاتلة؛ فوجد أنَّ كثيرًا من الأشياء في الحياة ليست كما تبدو عليه حقيقة؛ نظرًا لتراكم الأدلَّة المضلِّلة، واختلاف أدوات المؤوِّلين وتفاوت ثقافاتهم وتعدُّد مذاهبهم واختلاف زوايا الرُّؤية الَّتي ينطلق منها كلُّ واحد منهم في عمليَّة التَّأويل ذاتها، ورأىٰ البحث أنَّ تراكم الأدلَّة قد يكون سنَّة عفويَّة في مسرح الحياة؛ مما يدعو إلىٰ تأمُّلها والنَّظر فيها؛ لفهم الكون وسنن الحياة، وقد يكون إرسال الأدلَّة المضلِّلة أو تجميعها في مسرح الجريمة أو داخل النَّصِّ الفنِّيِّ عملًا مقصودًا لغايات جنائيَّة لدىٰ المجرمين، وغايات جماليَّة إمتاعيَّة مؤنسة لدىٰ المبدعين؛ تمكِّنهم من تخدير وعي المتلقِّي إلىٰ حين مفاجأته بكثير من المفارقات والإدهاشات المحمَّلة بالحبِّ والخير والجمال في الأعمال الفنِّيَّة المتميِّزة.

	الفصل الثَّاني علم الدَّلالة القديم مفهومه، نشأته، مصادره، ومجالات تطبيقه	١٣٣-٧٨
١	مدخل إلىٰ علم الدَّلالة القديم	٨٢-٧٩
٢	مصطلح علم الدَّلالة بين فلسفة اللُّغة وفلسفة الكتابة	٩٣-٨٢
٣	مصادر علم الدَّلالة (المرويَّات واللُّقىٰ الأثريَّة)	١٠٠-٩٣
٤	علم الدَّلالة من اختراع الكتابة إلىٰ وثيقة وليام جونز (**William Jones**) (١٧٤٦-١٧٩٤م)	١٠٦-١٠٠
٥	أهمُّ مصادر علم الدَّلالة في حضارات الشَّرق القديم	١٢٥-١٠٦
أ	شريعة حمورابي (**Hammurabi**) (١٧٩٢-١٧٥٠ قبل الميلاد)	١١١-١٠٩
ب	رسائل تلِّ العمارنة	١١٥-١١١
ج	كتاب كليلة ودِمْنة	١٢٠-١١٥
د	التَّرجمة السَّبعينيَّة للتَّوراة أو العهد القديم	١٢٥-١٢٠
ج	جَمْعُ القرآن بين التَّدوين ومنهج علم الدَّلالة الحديث	١٣٠-١٢٥
٦	خاتمة الفصل ونتائجه	١٣٣-١٣٠

١ مدخل إلىٰ علم الدَّلالة القديم

يقدِّم هذا الفصل تعريفًا بعلم الدَّلالة، ويناقش بعد ذلك مجموعة من أهمِّ مصادر علم الدَّلالة القديم؛ بقسميها: ١-مرويَّات شفويَّة و٢-لُقىٰ ومدوَّنات أثريَّة، ويفنِّد آراء القائلين: بحداثة علم الدَّلالة، ويُثبت بالأدلَّة العلميَّة القاطعة عراقة هذا العلم وأصالته وإنسانيَّته وعِلمانيَّته ومساهمة شعوب الحضارات القديمة كلِّها في تطوُّره وازدهاره؛ ليُبيِّن في نهاية المطاف أنَّ هذا العلم قديمٌ قِدَم الإنسان ذاته، مادام علمًا لا ينفصل عن دراسة المعنىٰ والاصطلاح علىٰ الرُّموز والعلامات اللِّسانيّة؛ دوالِّها ومدلولاتها؛ لتحمل معانيها، بالإضافة إلىٰ اشتغال علم الدَّلالة القديم علىٰ تدوين النُّصوص بلغة جماليَّة أو دبلوماسيَّة وترجمتها بطريقة تُسَهِّل تلقِّيها أو تأويلها في سياقاتها الجديدة؛ ويستعرض هذا الفصل مجموعة من أهمِّ المدوَّنات الدَّلاليَّة والوثائق المشرقيَّة القديمة للتَّدليل علىٰ صحَّة مذهبه وطرحه الفكريِّ الجديد.

علم الدَّلالة واحد من أكثر العلوم الإنسانيَّة حيويَّة وتجدُّدًا لارتباطه- في جزء كبير منه-بلغة الإنسان المتطوِّرة والمتجدِّدة يومًا بعد يوم، ومعلوم أنَّ التَّطوُّر والتَّجدُّد يُسفران عن موت ألفاظ ورموز، وبِلَىٰ عبارات وجمل وأساليب، ويقودان إلىٰ ولادة أُخَر، ويُنْتِجان تراكمات لغويَّة ومعرفيَّة؛ تؤدِّي مع مرور الأيَّام إلىٰ تضخُّم علم ما وانقسامه إلىٰ علوم متعدِّدة؛ كانت في أصلها علمًا واحدًا. إنَّ انقسام العلوم واستقلال بعضها الثَّاني عن بعضها الأوَّل بعد تشعُّب الأصل وتفرُّعه واتِّساعه سُنَّة كونيَّة لا يحيد عنها مجمل العلوم الإنسانيَّة، ولاسيَّما تلك العلوم المُغْرِقة في القِدَم؛ كعلم الدَّلالة القديم قِدَم الإنسان ذاته،

ولعلَّ هذا العلم لم يكن علمًا واحدًا إلَّا في مرحلة نشأته المبكِّرة الأولىٰ، وهي مرحلة قديمة جدًّا ترتبط ببداية وجود الإنسان علىٰ سطح المعمورة كما أسلفنا.

ولن يتأثَّر الرَّأي القائل بنشأة علم الدَّلالة القديمة إن رجحت النَّظريَّة الدِّينيَّة أو الأسطوريَّة (الميثولوجيَّة) حول بداية وجود الإنسان ونشأة لغته، والَّتي تقول: إنَّها نشأة توقيفيَّة؛ ألهم الله آدم-عليه السّلام-مفرداتها، وعلَّمه أسماءها، أو إن مال بعضنا إلىٰ نظريَّة الطَّفرة الجينيَّة أو الوراثيَّة[1]، أو إن اقتنع آخرون بالنَّظريَّة التَّطوُّريَّة الحيويَّة (البيولوجيَّة)، الَّتي تقول: إنَّ لغة الإنسان تطوَّرت عبر مراحل زمنيَّة من محاكاة أصوات الطَّبيعة البسيطة إلىٰ النِّظام اللُّغويِّ الاعتباطيِّ. إلَّا أنَّه يجب التَّركيز-قبل كلِّ شيء-علىٰ عِلْمَانِيَّة هذا العلم وعلمانيَّة البحث فيه أيضًا، ونعني بهذه العلمانيَّة نوعًا من الحياديَّة بعيدًا عن تجيير علم الدَّلالة للقدماء أو المُحدَثين من هذا العِرْق أو تلك الملَّة أو نسبته لحضارة دون أخرىٰ؛ بقدر ما نسعىٰ إلىٰ الإضاءة علىٰ هذا المصدر القديم أو ذاك من مصادر علم الدَّلالة القديم؛ تلك الَّتي لم يكن لها أن تُكتَب أو تُدبَّج دون معرفة مبدعيها وكتَّابها بدلالة الألفاظ مفردة ومركَّبة، ولعلَّهم قلَّبوا كلَّ جملة من جُمل مؤلَّفاتهم القديمة علىٰ وجوهها الدَّلاليَّة الممكنة أو المحتملة قبل توثيقها في مؤلَّفاتهم الأدبيَّة والسِّياسيَّة والقانونيَّة والوعظيَّة أو قبل تثبيتها في كتبهم ونقوشهم ومعاهداتهم السِّياسيَّة ومراسلاتهم الدِّبلوماسيَّة.

---

[1] يُنظَر: هراريُّ، يوفال نوح، **العاقل (تاريخ مختصر للنَّوع البشريِّ)**، ترجمة: حسين العبريِّ، صالح ابن علي الفلاحيِّ، دار منجول للنَّشر، ط١، نيودلهي، الهند **٢٠١٨**.م، ص **٣٤-٣٦**.

والحقُّ أنَّه يضيق المجال في هذا الفصل عن استعراض مصادر علم الدَّلالة القديم أو جذوره ووثائقه القديمة كلِّها؛ فقد زوَّدتنا التِّنقيبات الأثريَّة في القرنين: التَّاسع عشر والعشرين بآلاف الوثائق الدَّلاليَّة المكتشفة في مصر وسوريا والعراق والهند وغيرها؛ لذا سنميِّز القول بالنَّشأة الحديثة لعلم الدَّلالة من إحياء علم الدَّلالة القديم وازدهاره في العصر الحديث، ولا سيَّما بعد زيادة الاهتمام به في القرنين: الثَّامن عشر والتَّاسع عشر الميلاديَّين بتأثير مباشر من ازدهار فقه اللُّغة المقارن وازدياد الوثائق الأثريَّة المكتشفة في بلاد الحضارات القديمة؛ تلك الَّتي لا يمكن دراستها أو ترجمتها وتأويلها بعيدًا عن فقه اللُّغة المقارن وإحياء علم الدَّلالة القديم بدراسات دلاليَّة حديثة أو معاصرة؛ ولهذا كلِّه اكتفينا بالتَّأكيد علىٰ وجود (الدَّالِّ والمدلول والمرجع) والاهتمام بها ودراسة معانيها منذ آلاف السِّنين بوصفها أركان علم الدَّلالة العامِّ بفرعيه: القديم والحديث؛ ولعلَّ هذه المنهجيَّة ستدفعنا إلىٰ سرد كثير من الأسماء والأحداث والمؤلَّفات والوقائع التَّاريخيَّة القديمة أو سرد بعضها علىٰ أقلِّ تقدير، ولا أجد في ذلك ضيرًا؛ لأنَّ طبيعة البحث في علم الدَّلالة عمومًا ولا سيَّما علم الدَّلالة القديم تقتضي سرد تلك الأسماء وعرض تلك الأحداث والمؤلَّفات، ناهيك عن تعاون العلوم الإنسانيَّة وتجاوبها في كثير من البحوث والدِّراسات.

تجاوز كثير من العلماء والمراكز البحثيَّة فكرة البحث في نشأة اللُّغة أو أصلها، وأخرجوها من دائرة اهتمامهم؛ لأنَّها قادت إلىٰ نوع من السَّفسطة حينًا، وتحوَّلت إلىٰ دعوات ونزعات عنصريَّة حينًا آخر، ولم تحقِّق الغاية

العلميَّة المنشودة منها في أغلب الأحيان. والحقُّ أنَّ هذا التَّجاوز -وإن كان لا يلبِّي الشَّغف العلميَّ- فإنَّه قد أفاد من ناحية تأجيل النِّقاش حول هذه المسألة الحسَّاسة ريثما تتوفَّر أدلَّة علميَّة رصينة، يمكن الاستئناس بها حول تلك النَّشأة بعيدًا عن السَّفسطة والعنصريَّة، ولكنَّ هذا التَّأجيل قد يكون سببًا من الأسباب الَّتي جعلت كثيرًا من الباحثين اللُّغويِّين يكرِّرون آراء سابقيهم في قضايا ومسائل ترتبط بنشأة اللُّغة من حيث الأصل؛ لكنَّها تحتمل النِّقاش وطرح الأفكار المتعدِّدة؛ كالبحث في أصل علم الدَّلالة ونشأته القديمة؛ لذلك ظلَّ التِّكرار سمةً غالبة على كثير من البحوث الدَّلاليَّة الحديثة والمعاصرة، وإن اختلف بعضها الأوَّل عن بعضها الآخر في بعض الجزئيَّات التَّطبيقيَّة أو في كثير منها من حيث اختيار النُّصوص المدروسة، أو اجتراح بعض التَّطبيقات النَّقديَّة حولها.

٢ مصطلح علم الدَّلالة بين فلسفة اللُّغة وفلسفة الكتابة

أكَّدت التِّقنيَّات الأثريَّة أنَّ اختراع الكتابة كان بين **٣٧٥٠-٣٠٠٠** قبل الميلاد، وعُثر في جنوب العراق أو بلاد سومر على أقدم الرُّقم الطِّينيَّة الَّتي تحمل علامات كتابيَّة؛ كتلك العلامات الَّتي «اُكتشفت في معبد أي أنَّا Eanna في الطَّبقة الرَّابعة من موقع الوركاء. لقد كانت تلك العلامات هي بداية الطَّريق نحو التَّدوين، الَّذي غدا يميِّز العصور [الجديدة من سابقاتها]. وقد مرَّت العلامات الكتابيَّة بمراحل ثلاث متداخلة، اكتمل في أثنائها نظام التَّدوين...في

حدود ٣٠٠٠ قبل الميلاد»[١]. ويسمِّي بعض الدَّارسين المرحلة التَّاريخيَّة بين ٣٧٥٠-٣١٠٠ قبل الميلاد عصرَ ما قبل الكتابة أو قُبيل اختراع الكتابة Protoliterate Period، وتشيع هذه التَّسمية في الدِّراسات العراقيَّة، ويقسم الباحثون تلك المرحلة التَّاريخيَّة إلىٰ قسمين؛ «أوَّلهما: بين ٣٧٥٠-٣٥٠٠ ق.م، وهي [المرحلة] المبكِّرة Early Protoliterate Period و[المرحلة] المتأخِّرة Late Protoliterate Period بين ٣٥٠٠-٣١٠٠، ثمَّ يلي ذلك؛ أي ابتداء من ٣١٠٠ ق.م تقريبًا، في جنوبيِّ العراق العصر المسمَّىٰ عصر الأسرات المبكِّر، وهو يقابل في مصر الوقت الَّذي [وُحِّدت] فيه البلاد كلُّها تحت حكم ملك واحد والنِّصف الأوَّل من الأسرة الأولىٰ. وليس معنىٰ ذلك أنَّ [حضارتي مصر والعراق بدأتا] فقط في الألف الرَّابع قبل الميلاد، فإنَّ الحضارة في [كلا] البلدين نشأت قبل ذلك بأكثر من ألف سنة»[٢].

ومن الرَّاجح جدًّا أن يكون نظام الكتابة قد بدأ نظامًا جزئيًّا، ولربَّما ارتبطت نشأته الأولىٰ بالعدِّ والإحصاء وتدوين المكاييل والمقادير والفواتير والحساب والمحاسبة؛ نظرًا لعدم قدرة المُحتسبين وعمَّال الخراج وجُباة الضَّرائب والمشرفين على الإحصاء علىٰ تذكُّر الأشياء أرقام الحسابات والإحصاءات الكثيرة كلِّها؛ لذلك استعانوا بإشارات ورموز تدلُّهم علىٰ تلك

---

[١] الجميليُّ، عامر عبد الله، **الكاتب في بلاد الرَّافدين القديمة**، منشورات اتِّحاد الكتَّاب العرب، ط١، دمشق ٢٠٠٥م، ص ١٧.

[٢] فخريُّ، أحمد، **دراسات في تاريخ الشَّرق القديم: (مصر والعراق-سوريا-اليمن-إيران-مختارات من الوثائق التَّاريخيَّة)**، مكتبة الأنجلو المصريَّة، ط٢، القاهرة ٢٠٠١م، ص ٢٦.

المقادير والأرقام، وتساعدهم علىٰ تذكُّرها؛ كأن يضع أحدهم حصاة جنبه، أو يرسم خطًّا علىٰ لوح طينيٍّ يحمله عن كلِّ مكيال يستلمه، أو كلِّ فرد أو رأس أو شيء يحصيه؛ وهكذا يمكننا تفسير نشأة الكتابة الأولىٰ وتطوِّرها بوصفها نظامًا جزئيًّا متمِّمًا لنظام التَّذكُّر؛ يُساعد الكُتَّاب والمدوِّنين والجُباة علىٰ حفظ المعلومات وتذكُّرها واسترجاعها، ولا يحلُّ كلِّيًّا مكان نظام التَّوثيق أو التَّذكُّر الحفظيِّ أو الرِّواية الشَّفويَّة، وإنَّما يكمِّله؛ ولهذا يصعب تأويل الكتابات علىٰ أقدم الألواح الطِّينيَّة أو الجزم بدلالتها القطعيَّة إلَّا من باب التَّخمين حينًا ومقارنة بعض النُّصوص والوثائق والسِّياقات المتعدِّدة ببعضها الآخر لتأويل وثيقة دلاليَّة ما؛ **كتأويل واحد من ألواح كوشيم السُّومريَّة** الَّذي يرجع إلىٰ ما بين **٣٤٠٠-٣٠٠٠** قبل الميلاد، والَّذي يؤكِّد أنَّ نظام الكتابة البدائيَّ كان نظامًا جزئيًّا، وكان اللَّوح أو الجداريَّة لا يحتوي علىٰ كثير من المعلومات؛ لأنَّ الحفظ والتَّذكُّر يكمِّلانه أو يكمِّلان دلالته.

ولمَّا احتاجت الممالك إلىٰ مزيد من التَّوثيق؛ ولأنَّ الحاجة أمُّ الاختراع، طوَّر الكُتَّاب نظام كتابتهم؛ حتَّىٰ استوعب نظامُ الكتابة المنطوقَ كلَّه؛ ومن هنا يمكننا أن نفسِّر بساطة الألواح والجداريَّات القديمة، وعدم احتواء كثير منها إلَّا علىٰ كمِّيَّات قليلة من المعلومات المكتوبة؛ كفواتير الاستلام والتَّسليم وصكوك البيع والشِّراء وإشعارات العمليَّات الحسابيَّة؛ ولذلك أيضًا حُفظ كثير من الأناشيد والأغاني والنُّصوص الفنِّيَّة الطَّويلة شفويًّا في بداية أمرها؛ ونُمِّقت بالجَرْس والإيقاع؛ ليسهُل حفظها مقارنة بصعوبة نقشها علىٰ الصُّخور قبل التَّفطُّن إلىٰ تدوينها علىٰ الرُّقم والألواح الطِّينيَّة، ولم

يُكتب كثير من تلك النُّصوص إلَّا بعد تطوير أنظمة الكتابة ووصولها إلىٰ نظام رمزيٍّ ذي كثافة دلاليَّة عالية واستقلال تامٍّ عن الحفظ والرِّواية الشَّفويَّة[1].

تؤكِّد التَّرجمات الحديثة لرُقُم الحضارات القديمة وألواحها الطِّينيَّة وجداريَّاتها أنَّ قدماء الكُتَّاب والمبدعين والشُّعراء والمترجمين **عرفوا أقسام العلامة اللِّسانيَّة وثالوث الدِّراسات السِّيميائيَّة المعاصرة وأركان علم الدَّلالة** الأساسيَّة: **الدَّالُّ والمدلول والمرجع**؛ وكيف لا يعرفُ مؤلِّف كتابٍ قديم مثل **كتاب كليلة ودِمنة**-علىٰ سبيل المثال-معاني العلامات اللِّسانيَّة ودوالَّ كتابه ومدلولاتها ومراجعها أو مرجعيَّاتها قبل أن ينسج بها كتابه الشَّهير؟ بل كيف لنا أن نصل إلىٰ تأويل المراسلات الدِّبلوماسيَّة في ذلك اللَّوح الطِّينيِّ، أو نعرف تفسير الابتهالات الدِّينيَّة في تلك الجداريَّة دون أن يتقاطع تأويلنا الحديث مع مقاصد مؤلِّفي تلك الألواح والنُّقوش والجداريَّات حين جعلوا رموزها أو علاماتها اللِّسانيَّة دوالَّ علىٰ مدلولات أرادوها؛ واستعانوا بمراجعها السِّياقيَّة والثَّقافيَّة لتوصيل ما أرادوا توصيله من دلالات؟

من المؤكَّد أنَّ تدوين تلك المؤلَّفات القديمة ما كان ليحدث قبل دراسة معانيها وتقليب وجوه دلالاتها لوضع العلامات اللِّسانيَّة المناسبة لنقل المعنىٰ وضبط الوعظ السِّياسيِّ وصياغة المراسلات الدِّبلوماسيَّة وتدوين قوانين الشَّريعة أو ترجمة النُّصوص الأجنبيَّة والاهتمام بروح المعنىٰ الأصليِّ

---

[1] يُنظر: **العاقل (تاريخ مختصر للنَّوع البشريِّ)**، ص ١٥١-١٥٥.

فيها، وإن كانت هذه الأنواع من دراسة المعاني وتقليب وجوه الكلام لا تعني معرفة القدماء بعلم الدَّلالة إن لم يستخدموا هذا المصطلح تحديدًا لتوصيف جهودهم الدَّلاليَّة فإنَّه من الحريِّ لهذا الحُكم أن ينسحب على الدِّراسات الدَّلاليَّة المعاصرة؛ ولو سحبنا حكمنا النَّقديَّ هذا على علم الدَّلالة الحديث فلن يزيد هذا العلم على الدِّراسات الدَّلاليَّة القديمة إلَّا بالجمع بين لفظتي (علم) و(دلالة) في تركيب إضافيٍّ واحد دون أيِّ إضافة حقَّة لأركان علم الدَّلالة القديم، وكذلك يبدو لنا أنَّ هذا التَّركيب الإضافيَّ الجديد، الَّذي يضبط هذا العلم بمصطلح: (علم الدَّلالة) المشهور في اللُّغة الإنكليزيَّة بمصطلح (سيمانتيك) (**Semantics**) مصطلح غير جديد في الدِّراسات الدَّلاليَّة الحديثة، وإنَّما أخذته الإنكليزيَّة عن الكلمة اليونانيَّة القديمة المؤنَّثة (Semantik) ومذكَّرها (Semantikos)، الَّذي «يعني: يدلُّ، ومصدره (Sema) أي: إشارة»[1]، وقد استخدم قدماء اليونانيِّين كلمة (Semion) للدَّلالة على علامات المرض، في حين توسُّع أفلاطون وأرسطو في دلالة هذه الكلمة، واستخدموها للدَّلالة على العلامة اللِّسانيَّة أو الإشارة اللُّغويَّة[2]؛ ومن هنا فقد استخدم علماء الحضارات القديمة في مؤلَّفاتهم الدَّلاليَّة مصطلحات علم الدَّلالة الحديث: الدَّالَّ والمدلول والدَّلال والعلامة والإشارة والرَّمز والأيقونة والسِّياق، ولا تتميَّز الدِّراسات الدَّلاليَّة الحديثة والمعاصرة من

---

[1] الدَّاية، فايز، **علم الدَّلالة العربيُّ (النَّظريَّة والتَّطبيق، دراسة تاريخيَّة، تأصيليَّة، نقديَّة)**، منشورات دار الفكر، ط٢، دمشق ١٩٩٦م، ص ٦.

[2] يُنظر: **فلسفة اللُّغة**، ص ١٤٣.

الدِّراسات الدَّلاليَّة القديمة إلَّا بوضعها لفظة (علم) قبل لفظة (الدَّلالة)، وجمعهما لغويًّا في تركيب أو مصطلح واحد من خلال جعْل العِلْم مضافًا والدَّلالة مضافًا إليه.

ما تزال أحدث نظريَّات علم الدَّلالة المعاصر تتراوح بين الدَّعوة إلىٰ التَّوسُّع في شرح أركان علم الدَّلالة القديم الثَّلاثة: (**الدَّالِّ والمدلول والمرجع**)، أو تبسيطها واختزالها إلىٰ **نموذج ثنائيٍّ للعلامة اللِّسانيَّة**؛ يقوم علىٰ **الدَّالِّ والمدلول كما فعل فرديناند دو سوسير (F.de Saussure) (١٨٥٧-١٩١٣.م)**؛ وذلك لأنَّ العلامات اللِّسانيَّة لَبِنات النُّصوص كلِّها، وتأويل النُّصوص يتوقَّف علىٰ تأويل العلامات اللِّسانيَّة في ضوء سياقاتها ومراجعها. في حين يكثر مَن درسوا العلامات اللِّسانيَّة وأُسس علم الدَّلالة ومبادئ السِّيمياء مِن منظور التَّقسيم الثُّلاثيِّ؛ ولعلَّ أفلاطون وأرسطو والقدِّيس أوغسطين وديكارت وأوجدن وريتشاردز مِن أشهر مَن استخدموا التَّقسيم الثُّلاثيَّ.

ومع ذلك لا نعدم من أراد توسيع هذا التَّقسيم الثُّلاثيِّ إلىٰ تقسيم رباعيٍّ أو خماسيٍّ أو سداسيٍّ كما فعل الفيسلوف الأميركيُّ **تشارل بيرس (Ch.S.Peirce) (١٨٣٩-١٩١٤.م)** حين طوَّر النَّموذج الثُّلاثيَّ الشَّهير، وأضاف لأركان العلامات اللِّسانيَّة وعلم الدَّلالة الثَّلاثة عنصرًا رابعًا؛ هو الإشارة ذاتها؛ حيث «تمتلك الإشارة بحدِّ ذاتها ثلاثة مراجع: أوَّلًا، إنَّها إشارة (بالنِّسبة) لأيِّ فكرة من الممكن أن تفسِّرها. وثانيًا، إنَّها إشارة لِموضوع ما يكون معادلًا لها ضمن هذه الفكرة. وثالثًا، إنَّها إشارة في هيئة ما أو صفة ما، تُكوِّنان صِلة الوصل بين الإشارة وموضوعها. [وقد أخذ **تشارل موريس**

(**Ch.W.Morris**) (**١٩٠٣-١٩٧٩**.م) تقسيم بيرس (**Ch.S.Peirce**) (**١٨٣٩-١٩١٤**.م) الموسَّع أو المُعدَّل عن التَّقسيمات الثُّلاثيَّة]، وأضاف إليه عنصرين اثنين هما المتكلِّم [...] والسِّياق؛ [حيث تتشكَّل الدَّلالة السِّيميائيَّة من] علاقة بين خمسة عناصر: (v, w, x, y, z) نجد داخل هذه العلاقة أنَّ (v) تولِّد في (w) الاستعداد لردَّة فعل بطريقة معيَّنة هي (x)، تجاه موضوع معيَّن هو (y) (وهو لا يكون حافزًا في هذه المرحلة)، وذلك في شروط معيَّنة هي (z). في الأمثلة على هذه الورقة، تمثِّل (v) الإشارات، وتمثِّل (w) المؤوِّلون، و(x) المؤوِّلات، و(y) الدَّلالات، و(z) السِّياقات الَّتي تعمل فيها الإشارات»[١].

*****

لعلَّ القول بحداثة علم الدَّلالة من أكثر الأخطاء المكرَّرة شيوعًا؛ حيث يرى كثير من الباحثين أنَّ علم الدَّلالة علم حديث نسبيًّا، ويربط معظمهم نشأة هذا العلم بشيوعه واشتهاره لدى الفرنسيِّين والإنكليز، ولا سيَّما بعد البحوث الدَّلاليَّة الَّتي قدَّمها العالم الفرنسيّ **ميشيل بريال** (**Michel Breal**) بين عامي (**١٨٨٣**.م-**١٨٩٧**.م)[٢]، ويرى بعضهم الآخر أنَّ مصطلح **علم الدَّلالة** لم يتبلور لدى الإنكليز إلَّا مع جهود اللُّغويِّ الإنكليزيِّ

[١] **فلسفة اللُّغة**، ص١٩٦-١٩٧.

[٢] يُنظر: فايز، **علم الدَّلالة العربيُّ**، ص ٦. ويُنظر: عمر، أحمد مختار، **علم الدَّلالة**، منشورات عالم الكتب، ط٧، القاهرة ٢٠٠٩م، ص٢٢.

(Read) ١٩٤٣.م[1]، مع أنَّ كلًّا من **تعريف علم الدَّلالة وأسسه وموضوعاته** من حيث اشتمالها على الرُّموز وآليَّات وضع الدَّوالِّ على المدلولات وقوانين الوضع ذاتها وفلسفة تأويل النُّصوص تُثبت وجوده منذ عصور تاريخيَّة سحيقة؛ ترتبط بكلمات الإنسان المنطوقة الأولى، تلك الَّتي ذهبت أدراج الرِّياح، مثلما ترتبط بنقوشه وجداريَّاته القديمة، الَّتي تجزم بأنَّه وضعها؛ ليقول شيئًا ما، «فمن المؤكَّد تقريبًا أنَّ فنَّاني **كهوف شوفيه ولازقوه وألتاميرا** أرادوا لرسوماتهم أن تبقى لأجيال »[2] قادمة، تحكي لهم قصص الأجداد، أو تروي لهم تطوُّر فنونهم، وتُخبِرُهم عن معارفهم العلميَّة وتجاربهم في الحياة، وتعريفات علم الدَّلالة تؤكِّد وجود هذا العلم منذ عصور سحيقة أيضًا؛ حيث يُعرَّف بأنَّه: «**دراسة المعنى**» **أو** «**العلم الَّذي يدرس المعنى**» **أو** «**ذلك الفرع الَّذي يدرس الشُّروط الواجب توافرها في الرَّمز حتَّى يكون قادرًا على حمل المعنى**»[3].

يمكننا أن نعتمد على تعريف علم الدَّلالة وأسسه وموضوعاته لنسأل عن الرَّبط بين الدَّوالِّ والمدلولات في أقدم العلامات اللِّسانيَّة العالميَّة (ملفوظة ومكتوبة) أكان ربطًا عفويًّا عشوائيًّا أم كان ربطًا مدروسًا مقصودًا؟ وإن كان واضعو العلامات اللِّسانيَّة الأولى أو رابطو دوالِّها بمدلولاتها قد قلَّدوا أصوات

---

[1] يُنظر: بالمر، فرانك، **مدخل إلى علم الدَّلالة**، ترجمة: خالد محمود جمعة، مكتبة دار العروبة للنَّشر والتّوزيع، ط١، الكويت **١٩٩٧**م، ص **٣١**.

[2] **العاقل (تاريخ مختصر للنَّوع البشريِّ)**، ص **١٢٥**.

[3] عمر، أحمد مختار، **علم الدَّلالة**، ص **١١**.

الطَّبيعة أو حاكوها في بداية أمرهم، فهل استمرَّ الأمر كذلك أو انتقل إلىٰ مرحلة الاصطلاح الاعتباطيِّ لربط الرُّموز وأصوات الدَّوالِّ بمعاني الأشياء خلال وضع العلامات اللِّسانيَّة والاصطلاح علىٰ معاني الرُّموز والأشياء؟ وإن كانت بعض الرُّموز والعلامات البشريَّة قد وُضِعت لأغراض تواصليَّة بسيطة جدًّا إلىٰ حدٍّ ينفي عنها صفة العلم فلا شكَّ أنَّ النُّصوص الفنِّيَّة العالميَّة القديمة تكشف عن وجود علم الدَّلالة الَّذي نظر في علامات تلك النُّصوص، ونظَّر لها أيضًا، ونَقَدَها بمعنىٰ النَّقد العلميِّ من خلال تهذيبها وتقليب وجوه معانيها؛ ليسهل تلقِّيها وتأويل دلالاتها ضمن سياقاتها الَّتي وردت فيها، ولا سيَّما أنَّ معظم العلوم-إن لم تكن كلُّها-تبدأ بسيطة، ثمَّ تتَّسع وتتشعَّب إلىٰ فروع متعدِّدة.

يؤمن النَّقد الدَّلاليُّ بأنَّه لا وجود لفنٍّ عشوائيٍّ **أوَّلًا**، ولا وجود للنَّصِّ دون وجود المتلقِّي **ثانيًا**، وأنَّ مُرسل النَّصِّ أو كاتبه هو ذاته متلقِّيه الأوَّل، وفيلسوفه الأدرىٰ بمعانيه، والحقُّ أنَّ مُبْدعي النُّصوص الأولىٰ لم يُنشدوها أو يكتبوها سُدًىٰ دون أهداف دلاليَّة واضحة لديهم، أو دون تصوُّر سابق عن المتلقِّي أو المتلقِّين، ولعلَّهم تخيَّلوا ردود أفعال المتلقِّين، أو تصوَّروها **ثالثًا**؛ ولهذا كلِّه يمكننا القول: إنَّ معظم ما وصلَنا من مدوَّنات ونقوش وجداريات قديمة نصوص دلاليَّة بامتياز، إن لم تكن كلَّها؛ ولهذا أيضًا لا يمكننا الحديث عن معاني النُّصوص القديمة: (ملفوظة ومكتوبة) دون الإقرار بوجود علم الدَّلالة الَّذي وُضِعت بِهَدْيِه أقدم الرُّموز والدَّوالُّ علىٰ المدلولات، وثُبِّتَت العلامات كتسميات للأشياء بجهود دلاليَّة تدخل في قلب علم الدَّلالة وفلسفة اللُّغة، أدَّاها علماء الدَّلالة الأوائل من (مبدعين ومُنشدين ورواة وكُتَّاب ونُقَّاد

وفلاسفة تأويل)، وإن كان إطلاق الدَّوالِّ الأولىٰ قد حاكىٰ أصوات الطَّبيعة أو كان علىٰ قدر من الاعتباطيَّة قبل اختراع الكتابة، فلا شكَّ أنَّ ما وصلنا من نصوص مكتوبة باللُّغات القديمة؛ كالأكديَّة والهيروغليفيَّة والسَّنسكريتيَّة والآراميَّة والعربيَّة لا يكشف عن وجود علم الدَّلالة فحسب، وإنَّما يؤكِّد ازدهاره بين طائفة المبدعين والنُّقَّاد والكتَّاب علىٰ أقلِّ تقدير، ولولا علم الدَّلالة القديم ما كشفت الجداريَّات والنُّصوص والرُّقم والألواح القديمة عن معان مهذَّبة، وفنون جميلة، وصلت إلىٰ حدِّ الازدهار، ويرجع بعض تلك النُّصوص إلىٰ ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد أو أكثر من ذلك، ويعود كثير منها إلىٰ ما قبل ميلاد السَّيِّد المسيح-عليه السَّلام-بمئات السِّنين أو بآلافها؛ كالألواح المسماريَّة والنُّصوص الهيروغليفيَّة وأناشيد الفيدا وملاحم هوميروس (Homer) (بين القرنين ٩-٨ قبل الميلاد تقريبًا) وتراجيديَّات سوفوكليس (Sophocles) (٤٩٦-٤٠٥ ق.م) وكتاب فيشنو شارما (بَيدَبا/ ديبيا) (Vishnu Sharma) (....-٣٠٠ ق.م) كليلة ودمنة بلغته السَّنسكريتيَّة وترجمته إلىٰ البهلويَّة الفارسيَّة والتَّرجمة السَّبعينيَّة للتَّوراة وكتابات أفلاطون وأرسطو في مجال النَّقد والتَّنظير وتأويل النُّصوص ودراسة دلالاتها ومعانيها.

في إطار مناقشة علم الدَّلالة القديم بين فلسفة اللُّغة وفلسفة الكتابة يمكننا الحديث عن مصادر قديمة متعدِّدة شكَّلت مادَّة علم الدَّلالة القديم؛ كالأدب الشَّفويِّ أو المرويَّات الشَّفويَّة من قصص وحكايات شعبيَّة وأشعار وقصائد وأغانٍ وأناشيد وملاحم وأساطير وأمثال شعبيَّة وأدعية وابتهالات دينيَّة قديمة ظلَّت تنتقل من جيل إلىٰ جيل حتَّىٰ أتت لحظة تدوينها مع الإشارة إلىٰ

تحوُّر تلك النُّصوص المستمرِّ عن النَّصِّ الأصليِّ وضياع بعضها؛ لعدم تقييدها بالكتابة لحظة إبداعها؛ فلم يحظ كثير من نصوص المرويَّات الشَّفويَّة بشرف الكتابة؛ نظرًا لقلَّة أدوات الكتابة القديمة أو عدم شيوعها وانتشارها في كلِّ زمان ومكان؛ كأدوات النَّقش أو النَّحت علىٰ الصُّخور أو ألواح الطِّين ومسامير الكتابة، ناهيك عن صعوبة نظام الكتابة القديم ذاته؛ لأنَّه-مثل أيِّ نظام تشفيريٍّ-احتاج في بداية نشأته إلىٰ عدد كبير من الرُّموز؛ لحفظ قليل من المعلومات أو البيانات، وراح يتطوَّر تدريجيًّا؛ ليتَّجه نحو التَّكثيف الدَّلاليِّ والتَّجريد المطلق، ومن الرَّاجح أنَّ كثيرًا من أوائل النُّصوص المكتوبة قديمًا لم تكن مستقلَّة تمامًا عن نصوص شفويَّة تشرحها، وتوضِّح معانيها، وحُفِظت تلك النُّصوص الشَّارحة في ذاكرة كاتب النَّصِّ، الَّذي استحضرها بالنُّطق عندما احتاج أن يشرح نصوصه المدوَّنة، أو يوضِّح معانيها، ويفسِّر دلالاتها وقت الجرد السَّنويِّ، أو عندما تدعو الحاجة إلىٰ الشَّرح أو التَّفسير؛ لكنَّ تلك النُّصوص الشَّارحة المحفوظة في ذواكر المدوِّنين فُقِدت بموت أصحابها، وبقيت النُّقوش المدوَّنة، التَّي تحتاج إلىٰ غير قليل من الجهد؛ لتأويلها أو فهم دلالتها، الَّتي أرادها كاتبها.

من هنا لا نستغرب أن تُحفظ وثائق المحاسبة وصكوك استلام بعض البضائع أو تسليمها مع أقدم نصوص المراسلات الملكيَّة والمعاهدات السِّياسيَّة والمعاجم اللُّغويَّة في مكتبات سومر وأكاد وبابل وآشور وماري وإيبلا وأوغاريت وطيبة وتلِّ العمارنة؛ ونعثر في تلك الوثائق علىٰ حديث عن كمِّيَّات من القمح أو الشَّعير أو الرُّزِّ أو غيرها من البضائع، ولا نعلم بعض

الأحيان من سلَّم تلك البضائع ومن استلمها، أو من باعها ومن اشتراها؛ وهذا يُرجِّح أنَّ رجال المحاسبة أو كَتَبَةَ الدَّواوين القديمة سجَّلوها، بعد جمْع الضَّرائب أو الأتاوات من الفلَّاحين أو مستأجري الأراضي بوصفها حِصصًا للملوك أو الآلهة؛ ولأنَّ أولئك الكُتَّاب لم يكن بوسعهم الاعتماد علىٰ ذاكراتهم لحفظ عمليَّات الاستلام والتَّسليم كلِّها؛ دفعتهم الحاجة إلىٰ توثيق بعض العمليَّات وتقييدها بالكتابة، ومن ثمَّ حفظِها بين وثائق الصَّادر أو وثائق الوارد، وقد تكون عمليَّات العدِّ والإحصاء والاستلام والتَّسليم قد أوحت بأقدم رموز الكتابة في العالم؛ كأن يضع الجابي خطًّا واحدًا علىٰ لوح الطِّين عند استلامه كيسًا من القمح، وخطَّين للكيسين، وعندما تبلغ خمسة أكياس؛ يرمز لها بدائرة بدلًا من أن يرمز لها بخمسة خطوط؛ نظرًا لضيق مساحة اللَّوح الطِّينيِّ وكثرة عمليَّات الاستلام والتَّسليم، وسنورد بعض الأمثلة أثناء الحديث عن مصادر علم الدَّلالة القديم المرويَّة شفويًّا والموثَّقة أو المقيَّدة كتابيًّا.

٣ مصادر علم الدَّلالة (المرويَّات واللُّقىٰ الأثريَّة)

ربَّما يصبح في المستقبل كثير من المرويَّات الشَّفويَّة مع اللُّقىٰ الأثريَّة ولوحات الكهوف القديمة ورسومها وجداريَّاتها من أهمِّ مصادر علم الدَّلالة القديم؛ لكنَّنا لا يمكننا أن نعتمد كثيرًا منها بين مصادر هذا العلم في وقتنا الرَّاهن؛ لأنَّنا لا نستطيع الجزم بكثير من دلالاتها أو بعضها علىٰ أقلِّ تقدير، وإن كانت بعض القراءات الدَّلاليَّة تلقىٰ قبولًا حسنًا لدىٰ كثير من الدَّارسين. وما دامت تلك المرويَّات واللُّقىٰ الأثريَّة ورسوم الجداريَّات ورموزها دوالَّ لا تجزم لنا بدلالاتها ومعانيها، الَّتي أرادها مبدعوها علىٰ النَّحو الَّذي جزم فيه

أوجدن وريتشاردز بستَّة عشر معنىٰ لكلمة دلالة[1] فإنَّنا سنشير إلىٰ بعض من تلك الوثائق الدَّلاليَّة مع أنَّنا سنستثنيها في الوقت الرَّاهن من اعتمادها مصادرَ موثوقة بين مصادر علم الدَّلالة القديم؛ لنعتمد النُّصوص الَّتي تدلُّ دلالة قاطعة علىٰ معانيها، وقد أثبتها كلٌّ من الكشوفات الأثريَّة وفقه اللُّغة المقارن والدِّراسات الدَّلاليَّة في أكثر من نصٍّ مدوَّنٍ أو موقع أثريٍّ قديم.

تنقسم المرويَّات والمدوَّنات الدَّلاليَّة القديمة الَّتي تُوْجِبُ الحصافة العلميَّة عدم اعتمادها بين مصادر علم الدَّلالة القديم في وقتنا الرَّاهن إلىٰ قسمين، وقد تظهر في المستقبل بعض الكشوفات الأثريَّة، أو تُنجَزُ بعض البحوث العلميَّة الرَّصينة في علم الدَّلالة وفقه اللُّغة المقارن؛ لتقودنا إلىٰ اعتماد تلك الوثائق والمدوَّنات الدَّلاليَّة بين مصادر علم الدَّلالة القديم، وقِسْمَا تلك المرويَّات والمدوَّنات القديمة هما: **أ-مرويَّات شفويَّة قديمة، ب-اللُّقىٰ الأثريَّة من نقوش ومدوَّنات ورسوم وجداريَّات ومنحوتات قديمة،** ويحتمل هذان القسمان غير المُعتمَدين بين مصادر علم الدَّلالة في وقتنا الرَّاهن كثيرًا من الدَّلالات والتَّأويلات؛ لذلك استبعدناهما، وما دمنا أمام المرويِّ والمدوَّن سنذكِّر بإيجاز ببعض الفروق الَّتي لا تخفىٰ علىٰ المتابع، والَّتي يختلف فيها النَّصّ الشَّفويُّ الملفوظ عن النَّصِّ المكتوب؛ فالنَّصُّ الشَّفويُّ لا يخلد عبر الزَّمن إلَّا إذا توفَّرت له سلسلة من الرُّواة يتناقلونه علىٰ الدَّوام، وما دام نصًّا غير مقيَّدٍ بالكتابة فإنَّه سيبقىٰ عرضة للتَّحويلات والتَّحويرات، ومن

---

[1] مدخل إلىٰ علم الدَّلالة، ص ٣٣.

الطَّبيعيِّ أن يضـيع جزء لا يُستهان به من الثَّقافة الشَّفهيَّة بمرور الزَّمن، أو يُحوَّر بالحذف والإضافة علىٰ أقلِّ تقدير؛ «نتيجة الإهمال والنِّسيان، فقد اعتُمِدَ في حفظه علىٰ الذَّاكرة الشَّعبيَّة الجمعيَّة فقط، وتناقلته الأجيال المتلاحقة شفهيًّا، ولم يجد له من يقوم بتدوينه، لكنَّ الكثير من الكنوز الأدبيَّة والمعرفيَّة للأدب الشَّفهيِّ قد حُفظت في ذاكرة الشُّعوب، ويُعدُّ هذا المحفوظ خُلاصة التُّراث الشَّعبيِّ لكلِّ حضارة»[1]؛ لذلك صار كلٌّ من الأغاني والأناشيد والأشعار والآداب والفنون والأساطير والنُّصوص الشَّفويَّة القديمة مُلْكًا جَمْعِيًّا أو تراثًا شعبيًّا مرويًّا من جيل قديم سابق إلىٰ جيل جديد لاحق به، وظلَّ مؤلِّفو تلك النُّصوص الشَّفويَّة مجهولين، واختلفت روايتها في بعض التَّفاصيل أو كثير منها من مكان إلىٰ آخر، ومن زمن إلىٰ زمن آخر أيضًا، واُشتهرت رواية الشِّعر العربيِّ الشَّفويَّة لأسباب متعدِّدة إلىٰ حدٍّ دفع كثيرًا من الباحثين إلىٰ القول: إنَّ العرب أمَّة شفويَّة، وبرغم تنوُّع مصادر الأدب العربيِّ القديم وتشابهها مع مصادر الأمم الأخرىٰ من حيث انقسامها إلىٰ مصادر شفويَّة ونقوش ومدوَّنات مكتوبة فقد كان لكثير من شعراء العرب رواة يحفظون أشعارهم، ويروونها ويُنْشِدونها بين النَّاس، في حين حافظت النُّصوص المكتوبة علىٰ خلودها وثباتها عبر الزَّمن، وإن تكفَّلت مدَّة التَّباعد الزَّمنيِّ الطَّويلة بين تأليف تلك النُّصوص وقراءتها من عصر إلىٰ آخر بكثير من

[1] ينُظر: الكاطع، سامر، **بلاغة الدُّعاء في الأدب الشَّعبيِّ الماردينيِّ**، مقال في كتاب: الأدب الشَّفهيِّ العربيّ في ماردين، تحرير: أحمد عبد الهادي أوغلو، دار كريتار، ط١، اسطنبول، ٢٠١٩.م، ص٢٢٣.

تحوُّلات معانيها وتطوُّراتها الدَّلاليَّة واختلاف نُطْقِها وتأويلها من جيل إلىٰ جيل ومن دارس إلىٰ آخر في بعض التَّفاصيل أو في كثير منها.

ولعلَّ ما حظي به القرآن الكريم في مرحلة تاريخيَّة متأخِّرة نسبيًّا مقارنة بغيره من النُّصوص المرويَّة القديمة السَّابقة له أو الحديثة اللَّاحقة به يشكِّل علامة فارقة بين النُّصوص المكتوبة والمرويَّة كلِّها؛ حيث حفظ الله- سبحانه وتعالىٰ-النَّصَّ المنطوق بجوار النَّصِّ المكتوب في صدور سلاسل متواترة من الحُفَّاظ وذاكرات الرُّواة الَّذين نقلوا القرآن الكريم جيلًا بعد جيل بتلاوة تحاكي تلاوة الرُّسول الكريم **محمَّد (٥٧١-٦٣٢.م)-صلَّىٰ الله عليه وسلَّم**-في النُّطق وأحكام التَّجويد، مصداقًا لقوله تعالىٰ في سورة القيامة: «فإذا قرأناه فاتَّبِعْ قُرآنَه»[1]؛ ومن هنا يمكن القول: إنَّ القرآن الكريم ما يزال أقدم نصٍّ منطوق ومكتوب معًا سجَّلته الذَّاكرة البشريَّة، وحفظته دون تحوير من مطلع القرن السَّابع الميلاديِّ حتَّىٰ وقتنا الرَّاهن في مطلع العقد الثَّالث من القرن الأوَّل من قرون الألفيَّة الميلاديَّة الثَّالثة.

أسوق من أمثلة مرويَّات علم الدَّلالة القديم مثالين من المرويَّات الشَّفويَّة؛ **الأوَّل**: عبارة مجازيَّة صارت من صميم علم الدَّلالة العربيِّ؛ حيث تروي الأخبار أنَّ رَجُلًا رفع صوته متألِّمًا بسبب قطْعِ رِجْله؛ فسمعه آخرون؛ فقالوا: (**رفع عقيرَته**)؛ أي رفع رِجْلَه المقطوعة، وفُهِمَ من العبارة وقتها: أنَّ الرَّجل رفع صوته بسبب عَقْرِ رِجلِه لاقتران حَدَثِ قطْعِ الرِّجْلِ بأنين الرَّجُلِ

[1] **سورة القيامة**، الآية: ١٨.

بسبب آلام العَقْرِ أو القطع، ثمَّ غاب الاقتران بين الحدَثين فيما بعد؛ فصارت جملة (**رفع عقيرته**) مقولة مجازيَّة تدلُّ علىٰ أيِّ رفْعٍ للصَّوت بسبب الآلام، وهكذا يحدث كثير من التَّحوُّلات الرَّمزيَّة والتَّطوُّرات الدَّلاليَّة في المرويَّات الشَّفويَّة، ومنها تتحوَّلُ الأمثال الشَّعبيَّة إلىٰ عبارات مجازيَّة بعد غياب قصصها الواقعيَّة أو أسبابها الحقيقيَّة عن الأجيال اللَّاحقة بجيل رواة القصَّة أو جيل الشُّهود علىٰ أحداثها؛ كقولهم في الأمثال الشَّعبيَّة: (**مُكْرهٌ أخاك لا بَطَل**) و(**إلِّي استحوا ماتوا**) و(**إلِّي بْيَعْرِف بْيَعْرِف، وإلّلي ما بْيَعْرف يقول: كفُّ عَدَس**)[1].

والمثال الثَّاني علىٰ مرويَّات علم الدَّلالة القديم الشَّفويَّة، يكشف عن التَّحوُّل الرَّمزيِّ والتَّطوُّرات الدَّلاليَّة في المرويَّات الشَّفويَّة لكنَّنا مع ذلك لا نستطيع اعتماده بين مصادر علم الدَّلالة القديم لعدم وجود أدلَّة قاطعة وتدوينات مكتوبة حول قصَّته الحقيقيَّة، ويرتبط هذا المثال بتحوُّلات معنىٰ كلمتي: (**النَّار والدُّخان**)؛ فمن المعلوم أنَّ حياة البشر راحت تتطوَّر من حياة الإنسان البدويِّ (الصَّائد الجامع) إلىٰ حياة الإنسان الحَضَريِّ أو (الفلَّاح أو

---

[1] يُلخِّص المثل الأوَّل؛ (**إللي استحوا ماتوا**) قصَّة حريق حدث في حمَّام، فهرب بعض النَّاس عراة إلىٰ خارج الحمَّام خوفًا من الحريق، في حين أحرقت النَّار مَن شعروا بالحياء، ولم يهربوا عُراة؛ فقالت النَّاس: (**إللي استحوا ماتوا**). ويلخِّص المثل الثَّاني: (**أللي بيعرف بيعرف وإللي ما بيعرف يقول: كفُّ عَدَس**) قصَّة عاشق غامر ليلًا في زيارة إلىٰ منزل حبيبته بالقرب من بيدر العَدَس؛ فأحسَّ أهلوها بدنوِّه؛ فسرق حَفْنَةً من العَدَس، وهرب، وعندما أمسك أهلوها به، واجتمع النَّاس علىٰ الضَّوضاء؛ قالوا لأهليها: أَمِنْ أجل (كَفٍّ/ حَفْنَة) عَدَس تُشعلون حربًا؛ فردَّ الأهلون قائلين: (**أللي بيعرف بيعرف، وأللي ما بيعرف يقول: كَفُّ عَدَس**)؛ وهكذا يختصر كثيرٌ من الأمثال قصصًا واقعيَّة، بعضها معروف، وبعضها تحوَّل معناه أو ضاعت قصَّته الحقيقيَّة.

المزارع) بعدما شكَّل تدجين القمح بداية حقبة تاريخيَّة جديدة، عُرِفت باسم الثَّورة الزِّراعيَّة، الَّتي انطلقت من جبل السُّرَّة (كوبكلي تبَّه) شرقيِّ مدينة أورفة التُّركيَّة بين (١٠٠٠٠-٩٥٠٠ قبل الميلاد)، واقتضىٰ ذلك أن يعيش الفلَّاحون في قرىٰ أو مدن أو ممالك صغيرة بجوار حقول القمح؛ ليحرثوا الأرض، ويحموا قمحهم من الأعداء والحيوانات، واقتضىٰ ذلك تحصين حقول القمح أو حمايتها أيضًا؛ ولمَّا كان تسوير المساحات الكبيرة صعبًا عَمَدَ البشر إلىٰ وضْعِ رجال الاتِّصالات أو النَّواطير فوق التِّلال الطَّبيعيَّة أو الصِّناعيَّة بجوار سهول القمح؛ ليقوموا بدورهم بإبلاغ الفلَّاحين في حقولهم أو بيوتهم عن أعداء قادمين نحو قراهم أو مدنهم أو ممالكهم أو حقولهم كلَّما استشعروا بخطر قادم؛ ولأنَّ الصَّوت البشريَّ لن يصل بسهولة من تلٍّ بعيد عن القرية أو المملكة إلىٰ الفلَّاحين المشغولين بأعمالهم، اتَّفق النَّاس علىٰ أن يكون إشعال النَّار أو رؤية دخانها تعبيرًا عن الخطر القادم، أو إنذارًا مبكِّرًا، أو تنبيهًا عن عدوٍّ أو إشهارًا وإعلانًا عن موضوع مهمٍّ علىٰ أقلِّ تقدير، وفي هذا السِّياق نستطيع أن نؤوِّل كلام فلَّاح في حقله، حين ينبِّه للفلَّاحين الآخرين قائلًا: انتبهوا لقد اقترب الأعداء، فقد رأيت دُخانًا في السَّماء؛ فيقول الآخرون: اتَّفقنا أن يُخبرنا رجال الاتِّصالات بإشعال النَّار لا بالدُّخان وحدَه؛ فيردُّ عليهم بجملةٍ يقول فيها: **(لا يوجد دُخان دون نار؛ ما في دخَّان بلا نار)**، ثمَّ تحوَّلت هذه الجملة فيما بعد إلىٰ مثل شعبيٍّ شهير، يطوي في ثناياه كثيرًا من المجاز والكنايات ومعاني القصص والأمثال الشَّعبيَّة والأخبار الشَّائعة (الشَّائعات) الَّتي تدلُّ في عمومها علىٰ الشُّيوع والانتشار والاشتهار، وتُقِرُّ أنَّ ظهور بعض العلامات-

كالدُّخان مثلًا-دليلٌ قاطع علىٰ دلالات مضمرة خفيَّة، والَّتي غابت عنَّا بسبب تحوُّلاتها الرَّمزيَّة أو تباعدنا في الزَّمان والمكان عن تلك العلامات أو قصصها وأمثالها.

أمَّا **المدوَّنات والنُّصوص الدَّلاليَّة القديمة** الَّتي لا نستطيع-في وقتنا الرَّاهن-عدَّها بين مصادر علم الدَّلالة القديم؛ فهي كثيرة، وسنكتفي بذكر بعض الأمثلة منها؛ كالتِّمثال العاجيِّ **للرَّجل الأسد أو اللَّبوة الأسد في كهف شنتال في ألمانيا**، والَّذي يرجع إلىٰ قبل **٣٢٠٠٠** سنة من وقتنا الرَّاهن؛ والَّذي يُعدُّ من أقدم نصوص النَّحت في العالم؛ حيث أراد صاحبه أن يجعله رمزًا عن شيء ما، ويعبِّر من خلاله عن دلالة أو مقولة أرادها، وكذلك نذكر **بصمة اليد البشريَّة** الَّتي دُمغت قبل **٣٠** ألف سنة علىٰ جدار **كهف تشوفيه بوند دي آرك في فرنسا**، ولعلَّ صاحبها أراد أن يقول: كنت هنا، ونذكرُ **رسم كهف لازكو** الَّذي يعود إلىٰ **١٥٠٠٠** سنة أو **٢٠٠٠٠** سنة من وقتنا الرَّاهن علىٰ أبعد تقدير، ومن الرَّاجح أنَّ مُبْدِعي تلك النُّصوص أرادوا أن يقولوا شيئًا أو أشياء عدَّة من خلال نصوصهم تلك؛ لكنَّنا لا نستطيع الجزم بدلالة تلك النُّصوص، وما زال تأويل معانيها يشبه التَّكهُّنات إلىٰ حدٍّ ما.

وتُعدُّ الرُّسوم والرُّموز المنقوشة علىٰ **أعمدة كوبكلي تبَّه شرق مدينة أورفة التُّركيَّة** قرائن دلاليَّة تعود إلىٰ **٩٥٠٠** سنة قبل الميلاد، وتكشف هذه القرائن عن نظامين: أوَّلٍ اجتماعيٍّ تعاونيٍّ متقدِّم، وثانٍ عقائديٍّ مرتبط بالأوَّل، مثلما تكشف **طبعات كهف الأيدي في الأرجنتين**، عن بُعدٍ عاطفيٍّ مثير،

وترجع تلك الطَّبعات إلىٰ **٩٠٠٠** سنة قبل وقتنا الرَّاهن[١]، ولعلَّ تلك النُّصوص الدَّلاليَّة القديمة مرويَّة ومكتوبة ما تزال محتاجة إلىٰ البحث والتَّمحيص والتَّدقيق قبل الجزم بدلالاتها؛ لاعتمادها بين أقدم النُّصوص الدَّلاليَّة ومصادر علم الدَّلالة القديم.

٤ علم الدَّلالة من اختراع الكتابة إلىٰ وثيقة وليام جونز (William Jones) (١٧٤٦-١٧٩٤م)

بعد ضعف الخلافة العثمانيَّة الملحوظ في أواخر القرن الثَّامن عشر تمددَّت الدُّول الأوروبيَّة-ولا سيَّما بريطانيا-في الهند والمشرق العربيِّ، وحصل علماء فقه اللُّغة المقارن الأوروبيُّون علىٰ أرشيف كبير من وثائق الحضارات القديمة في الهند والعراق وسوريا ومصر، وعكف كثير منهم علىٰ دراسة نقوش تلك الحضارات القديمة وجداريَّاتها ووثائقها المدوَّنة باللُّغات القديمة: (السَّنسكريتيَّة والبهلويَّة والسُّومريَّة والأكديَّة والهيروغليفيَّة والآراميَّة والعبريَّة والفينيقيَّة والسِّريانيَّة والعربيَّة واليونانيَّة وغيرها من اللُّغات الأخرىٰ)؛ ونظرًا لخبرة علماء فقه اللُّغة الأوروبيِّين بالقضايا الدِّينيَّة والسِّياسيَّة الحسَّاسة الَّتي قد تُسفر عنها دراسة ذلك الأرشيف العالميِّ الكبير من آثار حضارات الشَّرق القديم وترجمة نقوشه وجداريَّاته، عمد **وليام جونز** (**William Jones**) (١٧٤٦-١٧٩٤م) إلىٰ ضبط الإطار المرجعيِّ للنِّقاشات الفيلولوجيَّة ونتائجها المحتملة قبل صدورها بتوقيع وثيقة ولادة

---

[١] يُنظر: **العاقل (تاريخ مختصر للنَّوع البشريِّ)**، ص **١٢، ٣٤، ٣٦، ٧٥، ٧٦، ١١٤، ١١٥**.

فكرة الأصول واللُّغات الهندو-أوروبِّيَّة في الثَّاني من (شباط/ فبراير) عام ١٧٨٦.م، و«هكذا صار الباحثون بعد التَّحديث الطَّارئ علىٰ تاريخ اللُّغات والألسنة يحسبون أنفسهم قادرين علىٰ تكوين صورة دقيقة عن المجتمعات الماقبتاريخيَّة، حتَّىٰ أنَّ بعضهم جعل يتمنَّىٰ استعادة أقوال الأجداد الأوَّلين وأعمالهم عن طريق التَّحليل المقارن للجذور الهندو-أوروبِّيَّة، وباختصار، فإنَّ علم الإحاثة اللُّغويَّ (Paleontogie linguistique) هذا بات قمَّة أحلامهم»[1].

كشف توقيع وثيقة الأصول الهندو-أوروبيَّة عن خبرة الأوروبِّيِّين وباعهم الطَّوَيل في مجال النِّقاشات الفيلولوجيَّة ونتائجها الدَّلاليَّة الكبيرة، ولا سيَّما أنَّ معظم علماء فقه اللُّغة الأوروبِّيِّين-قدمائهم ومُحدَثيهم-كانوا من الفلاسفة واللَّاهوتيِّين من دارسي الكتاب المقدَّس بدءًا من **القدِّيس أوغسطين Saint Augustin** (٣٥٤-٤٣٠.م) ووصولًا إلىٰ **أرنيست رينان (Renan)** (١٨٢٣-١٨٩٢.م)، ومرورًا بكثير من الدَّارسين الَّذين جاؤوا بعد أوغسطين أو رينان، ولربَّما يكون **فرديناند دو سوسير (F. de Saussure)** (١٨٥٧-١٩١٣.م) أوَّل من أسَّس للاتِّجاه العلمانيِّ أو المتعلمن في فقه اللُّغة المقارن، ولا سيَّما أنَّ الغرب الأوروبِّيَّ قد مرَّ في نقاشات كثيرة قبل اعتماد بعض الأناجيل ونُسخ التَّوراة وترجماتها وتدوينها في نسخة الكتاب

[1] أولَنْدر، موريس، **لغات الفِرْدَوس، (آريُّون وساميُّون: ثنائيَّة العناية الإلهيَّة)**، ترجمة: جورج سليمان، مراجعة: سميرة ريشا، المنظَّمة العربيَّة للتَّرجمة، ط١، بيروت ٢٠٠٧م، ص٤٢-٤٣.

المقدَّس الأخيرة المعتمدة لدىٰ الكنيسة، وقد أدَّت بعض النِّقاشات والتَّرجمات إلىٰ حرق بعض النُّسخ أو إعدام أصحابها أو سجنهم قبل اعتماد النُّسخة الرَّاهنة، وجَمْعِ العهدين: العهد القديم أو التَّوراة والعهد الجديد أو الإنجيل في كتاب مقدَّس واحد.

*****

أَسَّست وثيقة وليام جونز حول الأصول الهندو-أوروبيَّة لمرحلة جديدة من الدِّراسات الفيلولوجيَّة في فقه اللُّغة المقارن، وقادت وثيقته تلك العالِمَين الألمانيَّين: **يوهان جوتفرد هِردر (١٧٤٤-١٨٠٣م) وأغسطس لودفيك فون شلوزر (١٧٣٥-١٨٠٩م)** إلىٰ إكمال ملامح تقسيم جونز بإطلاق مصطلح اللُّغات السَّاميَّة للدَّلالة علىٰ اللُّغات: السِّريانيَّة والبابليَّة والعبريَّة والعربيَّة، وقد عُرفت هذه اللُّغات سابقًا لدىٰ الغربيِّين باللُّغات الآراميَّة أو الشَّرقيَّة؛ «وإنَّما جرت تسميتها (ساميَّة) نسبة إلىٰ سام بن نوح؛ أخي يافث»[١]. وتقوم وثيقة جونز وتقسيماته مع تقسيمات **هِردر وشلوزر** علىٰ رؤية توراتيَّة حول أصول البشر، ويرىٰ **هِردر** أنَّ «فهم ماضي البشريَّة يغدو من هذا المنطلق فنَّ الكشف عن النِّظام الإلهيِّ الَّذي تحدَّثت عنه التَّوراة، ممَّا يقضي بتوثيق الصِّلة بين النَّصِّ الكتابيِّ والنَّصِّ التَّاريخيِّ توثيقًا يهيب بالمؤرِّخ التماس الدَّليل الحسِّيِّ علىٰ الحقيقة الكتابيَّة في واقع الحدث التَّاريخيِّ وإرساء المعرفة التَّاريخيَّة علىٰ قاعدة الحقيقة الكتابيَّة»[٢].

---

(١) **لغات الفِرْدَوس**، ص ٥١.

(٢) **لغات الفِرْدَوس**، ص ١١٢.

دغدغت **وثيقة جونز** وتقسيمات **هِردر وشلوزر** مشاعر القوميِّين والمتديِّنين اللَّاهوتيِّين والعلمانيِّين من علماء فقه اللُّغة المقارن في أوروبَّا، ووجدوا فيها ما يروي شغفهم في البحث عن أصولهم العرقيَّة القديمة أو نبيِّهم وكتابهم الآريَّيْن في موازاة أنبياء السَّاميِّين وكتبهم إن أمكن ذلك، ولا سيَّما أنَّ تنقيبات علماء الآثار الأوروبِّيِّين قد زوَّدت متاحف أوروبَّا وعلماء فقه اللُّغة المقارن بأرشيف كبير من وثائق الشَّرق القديم، عندما تمدَّد الأوروبِّيُّون في المشرق العربيِّ والهند خلال قرنين من ضعف الدَّولة العثمانيَّة؛ ولا سيَّما بين عامي **١٧٦٥-١٩١٥**.م؛ لذلك عكف فقهاء اللُّغة الأوروبِّيُّون علىٰ دراسة كلٍّ من **الأفسته؛ كتاب زرادشت المقدَّس، وشرحه في الزَّند أفسته، وأناشيد الفيدا السَّنسكريتيَّة المقدَّسة** لدىٰ الهنود الآريِّين حسب تقسيمات وليام جونز وفقه اللُّغة المقارن الجديد. وشرع علماء فقه اللُّغة الأوروبِّيُّون في فكِّ شيفرات لغة أناشيد الفيدا السَّنسكريتيَّة القديمة؛ لترجمتها **أوَّلا**، والبحث عن وشائج القرابة بين السَّنسكريتيَّة واليونانيَّة القديمة وسائر اللُّغات الأوروبِّيَّة الحديثة **ثانيًا**؛ دعمًا لتقسيمات **جونز وهِرْدَر وشلوزر**.

ازدهر فقه اللُّغة المقارن، ونشطت الدِّراسات الدَّلاليَّة بعد وثيقة وليام جونز تلك وما تفرَّع عنها من تقسيمات جديدة؛ ولذلك أرجع بعض الباحثين نشأة علم الدَّلالة إلىٰ هذا التَّاريخ الحديث أو بعده بقليل برغم تأخُّر هذا التَّاريخ كثيرًا عن ولادة علم الدَّلالة القديم وازدهاره أيضًا بإثبات من النُّقوش والوثائق القديمة الَّتي ازدهر علم الدَّلالة الحديث بسبب دراستها؛ فتأكَّدت بذلك عراقة علم الدَّلالة القديم وأصالته منذ آلاف السِّنين، وتكشَّف تشعُّبه في مجالات

متعدِّدة؛ فصارت كلُّ طائفة من رموزه ودوالِّه ومدلولاته علمًا مستقلًّا بذاته، وصارت فروع هذا العلم وطرائقه وأدواته ومصطلحاته المنهجيَّة المتعدِّدة خير مُعين علىٰ تأليف النُّصوص الإبداعيَّة وشرحها وتأويلها وتدوينها وكتابة النَّقد حولها وترجمتها إلىٰ لغات متعدِّدة، مع إدراك المبدعين من مؤلِّفين وشُرَّاح ونُقَّاد ومُترجمين ما يحتاجونه من مبادئ علم الدَّلالة الضَّروريَّة لهذا النَّوع من الكتابات الإبداعيَّة؛ كفهم معاني الرُّموز أو العلامات اللِّسانيَّة في معاجمها وسياقاتها اللُّغويَّة واختلاف التَّأويل من سياق إلىٰ آخر، وتميُّز الكتابة الإبداعيَّة من كتابة الشَّرح والتَّأويل والتَّفسير والنَّقد، ناهيك عن اختلاف لفظ الكلمة ومعناها من لغة إلىٰ أخرىٰ، واختلاف التَّرجمة الحرفيَّة عن ترجمة روح النَّصِّ من هذه اللُّغة إلىٰ تلك؛ ممَّا استدعىٰ تأليف المعاجم بلغات متعدِّدة للتَّرجمة ونقل المعاني منذ زمن بعيد؛ **كمعجم تلِّ العمارنة الأكديِّ-الهيروغليفيِّ**.

ولا شكَّ أنَّ الكاتب والمحاسب والقاضي والمبدع والنَّاقد والشَّارح والمؤوِّل كانوا من علماء الدَّلالة المختصِّين بفهم معاني رموزهم وتأويل كتاباتهم علىٰ أقلِّ تقدير، فكيف ينقش كاتب ما **شريعة حمورابي** علىٰ مسلَّة دون أن يفهم تأويلها واختلاف **دلالات** الكلمات من سياق إلىٰ آخر؟ أو كيف يؤلِّف فيلسوف كتابًا مهمًّا مثل كتاب (**كليلة ودِمنة**)، ويتصدَّىٰ لترجمته مبدع آخر دون معرفة المؤلِّف والمترجم بدلالات المفردات واختلاف معاني الكلمات من سياق إلىٰ آخر، وتحوُّلات الدَّلالة بين لغة الأصل ولغة التَّرجمة؟ فقد كُتب كتاب (**كليلة ودمنة**) بالسَّنسكريتيَّة أو الهنديَّة القديمة بعد وقت

قصير من وصول **الإسكندر الأكبر بن فيليب المقدونيِّ (٣٣٦-٣٢٣ قبل الميلاد)** إلىٰ الهند، وتُرجم منها إلىٰ البهلويَّة أو الفارسيَّة القديمة في **زمن كسرىٰ الأوَّل؛ أنوشروان بن قُباذ بن يزدجرد بن بهرام جور (٥٠١-٥٧٩.م)**، ثمَّ ترجمه **رَوْزَبَة بن داذويه المشهور باسم: (عبد الله بن المقفَّع) (٧٢٤-٧٥٩.م)** إلىٰ العربيَّة بعد دخوله الإسلام في أواخر عصر الدَّولة الأمويَّة وبداية الدَّولة العبَّاسيَّة.

لقد كشف تطوُّر فقه اللُّغة المقارن، الَّذي ترجم نصوص الحضارات القديمة إلىٰ لغاتنا المعاصرة عن ازدهار علم الدَّلالة القديم تأليفًا وتدوينًا وتأويلًا، وتأكَّد ازدهار بعض العلوم الدَّلاليَّة البحتة في الحضارات القديمة عند قدماء الهنود والعراقيِّين والسُّوريِّين والمصريِّين من شعوب العُبيديِّين والسُّومريِّين والأكديِّين والبابليِّين والآراميِّين والحثِّيِّين والفينيقيِّين والكنعانيِّين والأسر الفرعونيَّة المتلاحقة، وأثبتتْ التَّرجمات والمعاجم اللُّغويَّة والقرائن الدَّلاليَّة تطوُّر علوم الفلك والرِّياضيَّات حسابًا وهندسة منذ آلاف السِّنين، فقد عرف قدماء العراقيِّين أنظمة الحساب والتَّدوين العُشريَّة والسُّداسيَّة، وقد مَنَحَنا نظام السُّومريِّين السُّداسيِّ «إرثًا يتمثَّل في تقسيم اليوم إلىٰ أربع وعشرين ساعة، وتقسيم الدَّائرة إلىٰ **٣٦٠** درجة»[١]، ودمج السُّومريُّون بين النِّظامين: العُشْريِّ والسُّداسيِّ، وحفظوا قدرًا كبيرًا من المعارف الإنسانيَّة، وحفظت لنا زقُّورات العراق وأهرامات مصر وممالك سورية القديمة وتلالها

---

[١] يُنظر: **العاقل (تاريخ مختصر للنَّوع البشريّ)**، ص **١٥١**.

ومكتبات الهند وفارس واليونان نصوصًا من عصور زمنيَّة متعدِّدة، تحتوي علىٰ مواضيع متنوِّعة، تمتدُّ بين **٣٥٠٠** قبل الميلاد[1] والقرن السَّابع الميلاديِّ، الَّذي بُعث فيه النَّبيُّ محمَّد صلَّىٰ الله عليه وسلمَّ؛ ليحظىٰ القرآن الكريم-كما أسلفنا-بقراءات وتلاوات محفوظة بالصُّدور، ومنقولة بالتَّواتر إلينا، ومنطوقة بقراءة تحاكي تلاوة الرَّسول الكريم من حيث أحكام التَّجويد ومخارج الحروف؛ وبهذا تكون تلاوة النَّصِّ القرآنيِّ أقدم نصٍّ صوتيٍّ مسجَّل قبل اختراع آلات التَّسجيل بمئات السِّنين.

٥ أهمُّ مصادر علم الدَّلالة في حضارات الشَّرق القديم

سنتجاوز ما ترويه **أسطورة أوزيرليس** المصريَّة القديمة، الَّتي تشير إلىٰ علاقة مصر القديمة **بجُبيل (بيبلوس)** اللُّبنانيَّة؛ لنقف عند ما ترويه النُّقوش المصريَّة ونقوش جُبيل اللُّبنانيَّة في نصٍّ دلاليٍّ يقول: إنَّ «**الملك سنفرو (Sneferu)** (....-**٢٥٨٩** ق.م)، والد **خوفو** (Khufu) (**٢٥٨٩-٢٥٦٦** ق.م) باني الهرم الأكبر، ومؤسِّس **الأسرة الرَّابعة** قد أرسل أسطولًا من أربعين سفينة لإحضار أخشاب الأرز من لبنان»[2]، ويبدو أنَّ مشهد استقبال **الملك ساحورع** (Sahure) (**٢٤٨٧-٢٤٧٥** ق.م) في **جداريَّة الأسطول المصريِّ** العائد من فينيقيا يكمل نصَّ **الملك سنفرو**، أو يشرحه؛ حيث يشير ذلك المشهد إلىٰ علاقات جيِّدة بين فينيقيا ومصر الفرعونيَّة حوالي **٢٥٤٠** قبل

[1] يُنظر: **العاقل (تاريخ مختصر للنَّوع البشريّ)**، ص ٩٧، ١١٩.

[2] **دراسات في تاريخ الشَّرق القديم**، ص ٦٢.

الميلاد[1]، وقد تمكَّن فقه اللُّغة المقارن من ترجمة لوحة **القائد المصريِّ أوني**، وسرد أخبار معاركه في سورية حوالي **٢٤٠٠** قبل الميلاد[2]، وأثبت بذلك أنَّ علم الدَّلالة كان موجودًا ومزدهرًا في مجالات: إبداع النُّصوص وتدوينها وتوثيقها وأرشفتها، وأكَّد بشكل أو بآخر أنَّ المنتصرين يكتبون التَّاريخ، ويُبرزون ما أرادوا إبرازه من دلالات، ويغيِّبون ما أرادوا تغييبه أيضًا.

ذكرت وثائق **سرجون الأكديِّ (Sargon of Akkad) (٢٣٣٤-٢٨٤ ق.م) العراقيَّة (حوالي عام ٢٣٥٠ قبل الميلاد)** أنَّ الأمُوريِّين في سورية كانوا من البدو المتجوِّلين، الَّذين «لا يعرفون سكنىٰ البيوت، ولا يعرفون الزِّراعة، ولكنَّهم تعلَّموا ذلك فيما بعد»[3]. وأسهبت الوثائق المصريَّة في الحديث عن **(سنوهي)** الموظَّف المصريِّ الَّذي عاش في بلاط **أمنمحات الأوَّل** (Amenemhat) **(١٩٩١-١٩٦٢** ق.م) ووليِّ عهده **سنوسرت (Senusret) (١٩٧١-١٩١٩ ق.م) حوالي ١٩٦١ قبل الميلاد**، ثمَّ هرب إلىٰ رتنو العليا (لبنان) بعد وفاة **أمنمحات الأوَّل**، وتزوَّج هناك أميرة، وأنجبت منه مجموعة من الأولاد والبنات، وعاش هناك حتَّىٰ سنة **١٩٤٠ قبل الميلاد**، وحنَّ إلىٰ بلده، ورجع إلىٰ مصر؛ فاستقبله ملكها أو فرعونها **سنوسرت الأوَّل**، ووعده بموكب جنازة مهيب يوم وفاته، جريًا علىٰ عادة الفراعنة المصريِّين في

---

[1] دراسات في تاريخ الشَّرق القديم، ص ٦٢.

[2] يُنظر: دراسات في تاريخ الشَّرق القديم، ص ٦٣.

[3] دراسات في تاريخ الشَّرق القديم، ص ٦٦.

احترام كبار رجالات الدَّولة أو تقديسهم، ولم يكن وعدُ **سنوسرت** ذاك إلَّا اعترافًا بقيمة **سنوهي** وأهمِّيَّته[١].

كذلك تؤكِّد الوثائق السُّوريَّة في جبيل اللُّبنانيَّة (بيبلوس) وأوغاريت السُّوريَّة (رأس شمرا) عمق العلاقات المصريَّة السُّوريَّة، وتكشف رُقم مملكة ماري الَّتي تقترب من **٢٠٠٠٠** رقيم عن تطوُّر علم الدَّلالة وازدهاره، وتحتوي تلك الألواح علىٰ موضوعات دلاليَّة متعدِّدة، وتُثبت تبادل الهدايا بين الفراعنة والأمراء السُّوريِّين بين **١٨٥٠-١٧٩٢ قبل الميلاد**، مثلما تشير تلك الوثائق إلىٰ **ازدهار التّرجمة وأهمِّيَّتها** بوصفها جانبًا تطبيقيًّا مهمًّا من جوانب علم الدَّلالة ودليلًا واضحًا علىٰ ازدهاره؛ إذ كيف يترجم المترجمون نصوصهم دون علمهم بمعاني العلامات اللِّسانيَّة في لغة الأصل ولغة التَّرجمة، أو دون اطِّلاعهم علىٰ تأثير السِّياق في دلالة المفردات؟ فقد استفاد الفراعنة من التَّرجمة بوصفها جانبًا تطبيقيًّا من جوانب علم الدَّلالة **في ترجمة المراسلات الدِّبلوماسيَّة** بينهم وبين ملوك آشور وبابل وخيتا وميتاني والأمراء السُّوريِّين المقرَّبين منهم؛ لأنَّهم منحوهم حرِّيَّتهم اللُّغويَّة والدِّينيَّة، وكانوا يراسلون الأقوام والشُّعوب الأخرىٰ بلغاتهم، ولا سيَّما اللُّغة الأكديَّة، الَّتي كانت لغة عالميَّة منتشرة علىٰ نطاق واسع في تلك الأيَّام[٢]. وكثيرًا ما برزت أهمِّيَّة التَّرجمة بوصفها قضيَّة دلاليَّة رئيسة لدىٰ الملوك والأمراء في الحضارات والممالك القديمة، ولا سيَّما أثناء مراسلاتهم الدِّبلوماسيَّة، وعند توقيعهم المعاهدات

---

[١] يُنظر: **دراسات في تاريخ الشَّرق القديم**، ص ٧٠.

[٢] يُنظر: **دراسات في تاريخ الشَّرق القديم**، ص ٧٢.

المهمَّة؛ كمعاهدة الصَّداقة بين ملوك أوغاريت (رأس شمرا) وملوك الحيثيِّين[١].

أ شريعة حمورابي (Hammurabi) (١٧٩٢-١٧٥٠ قبل الميلاد)

اكتشفت البعثة الأثريَّة الفرنسيَّة برئاسة **دي مورجن J.de Morgan** في موسم التَّنقيب **١٩٠١-١٩٠٢**.م مسلَّة **حمورابي (١٧٩٢-١٧٥٠ قبل الميلاد)**، الَّتي دُوِّنت عليها شريعته، ودلَّت مسلَّة حمورابي الموجودة كاملة في متحف اللُّوفر مع كِسَرِها الموجودة في متحف بغداد علىٰ وجود نُسخ متعدِّدة منها؛ ممَّا يعني أنَّ قانون حمورابي كان منشورًا في ساحات المدن[٢]، وكانت النَّاس تعرف دلالات هذا القانون وعقوباته، وهذا لا يكشف عن وجود علم الدَّلالة القديم وحسب، وإنَّما يؤكِّد تطوُّره وازهاره أيضًا[٣]، فقد تولَّىٰ الكُتَّاب تدوين قوانين الشَّريعة علىٰ مسلَّات، ونشَرَها رجال الشَّرطة والقانون في ساحات المدن العامَّة؛ وفسَّروها لعامَّة النَّاس؛ ليفهموها ويلتزموا بها، مثلما حَفظت ألواح الطِّين الأكديَّة بالحرف المسماريِّ كثيرًا من القوانين والنُّصوص الفنِّيَّة والمعاهدات الدِّبلوماسيَّة والمراسلات الملكيَّة.

يبلغ طول مسلَّة حمورابي حوالي **٢,٢٥** مترًا، ويبلغ المعدَّل الوسطيُّ لقطرها حوالي **٦٠** سنتيمترًا، تضمُّ المسلَّة **٥١** عمودًا متجاورًا، تحتوي علىٰ

---

(١) يُنظر: **دراسات في تاريخ الشَّرق القديم**، ص ٧٦.

(٢) يُنظر: حنُّون، نائل، **شريعة حمورابي (ترجمة النَّصِّ المسماريِّ مع الشُّروحات اللُّغويَّة والتَّاريخيَّة)**، دار المجد للطِّباعة والنَّشر، ط١، دمشق **٢٠٠٥**.م، ج١، **١٥**.

(٣) يُنظر: **العاقل (تاريخ مختصر للنَّوع البشريِّ)**، ص ١٣٠.

٢٨٢ مادَّة قانونيَّة، وتبدأ معظم الموادِّ القانونيَّة بكلمة (Summa) الَّتي تعني الشَّرط في الأكديَّة، وتُرجمت إلىٰ أداة الشَّرط (إذا) في العربيَّة الفصحىٰ، وتبدأ الكتابة في كلِّ عمود بأسطُر من اليسار في الأعلىٰ نحو اليمين والأسفل، وقد خرَّب العيلاميُّون الأعمدة السَّبعة السُّفليَّة من نصِّ الشَّريعة، وتمكَّن الدَّارسون من ترجمة بعض الأعمدة التَّالفة بسبب وجود النُّسخ التَّعليميَّة علىٰ ألواح طينيَّة من شريعة حمورابي؛ وهذا يؤكِّد أنَّ شريعة حمورابي حظيت باهتمام كبير ودراسة دِلاليَّة متميِّزة، ويكشف عن أنَّ وجود القراءة والكتابة دليل علىٰ وجود علم الدَّلالة؛ ولأنَّ الكتابة نوع من التَّشفير والتَّرميز، والقراءة تأويل أو فكٌّ لهذا التَّشفير أو ذاك التَّأويل لا يمكن الحديث عن قراءة أو كتابة دون الحديث عن دوالِّ الكتابة ومدلولات القراءة ومرجعيَّات التَّأويل في المقروء والمكتوب، وما الكتابة إلَّا إعادة قراءة المكتوب، وما القراءة إلَّا إعادة كتابة الملفوظ أو ترديده؛ وذلك لأنَّ كلَّ كتابة قراءة ونوع من التَّأويل بالضَّرورة، وكلَّ قراءة كتابة ونوع من التَّأويل من ناحية أخرىٰ، وتدوين شريعة حمورابي وإعادة قراءتها يدخل في هذا المجال الدَّلاليِّ؛ وقد وصلتنا نسخٌ متعدِّدة من هذه الشَّريعة «من مواقع مختلفة في العراق ومن عصور مختلفة أيضًا. فبعضها يعود إلىٰ عهود خلفاء حمورابي في سلالة بابل الأولىٰ، وبعضها الآخر يعود إلىٰ ما بعد عهد حمورابي بمدَّة قد تصل إلىٰ ألف عام»[1].

---

[1] شريعة حمورابي، ج١، ١٨.

يبدأ نصُّ شريعة حمورابي بالقول: «إنَّ الآلهة أنو (Anu) وإنليل (Enlil) ومردوخ (Marduk): كبار الآلهة في مجمَّع آلهة بلاد ما بين النَّهرين عيَّنت حمورابي لنشر العدالة في الأرض، وإبطال الشَّرِّ والخبث، ومنع القويِّ من قمع الضَّعيف، ثمَّ يُدرِج حوالي **٣٠٠** حُكم، [أو **٢٨٢** مادَّة قانونيَّة] موضوعة بصيغة: إذا حدث كذا وكذا، فإنَّ حكمه كذا، فمثلًا: الأحكام **١٩٦** و**١٩٧** هي [كالآتي]: **١٩٦**-إذا أعمىٰ سيِّد عينَ سيِّد آخر، فيجب أن تعمىٰ عينه. **١٩٧**-وإذا كسر عظمَ سيِّد آخر، فيجب أن يكسر عظمه»[1]، وجاء في المادَّة السَّادسة من شريعة حمورابي: «إذا سرق سيِّد ثروة الإله والقصر، يُعدَم ذلك السَّيِّد»[2]. ويبدو أنَّ شريعة حمورابي القديمة لا تختلف كثيرًا عن وثيقة الاستقلال الأمريكيَّة الَّتي كُتبَت بعد **٣٥٠٠** سنة [من] كتابة شريعة حمورابي في زمن ازدهار علم الدَّلالة الحديث؛ حيث تقرُّ الوثيقتان-شريعة حمورابي ووثيقة الاستقلال الأمريكيِّ، الَّتي وُقِّعت في فلادلفيا **٤** تمُّوز **١٧٧٦**.م-بحقوق البشر في الحياة والحرِّيَّة والعدل والسَّعادة[3].

ب رسائل تلِّ العمارنة

حافظت الإمبراطوريَّة المصريَّة علىٰ مجدها الكبير في **عهد تحوتمس الثَّالث (١٤٩٠-١٤٣٦ قبل الميلاد) وابنه أمنحوتب الثَّاني (١٤٣٦-١٤١١**

---

[1] **العاقل (تاريخ مختصر للنَّوع البشريِّ)**، ص **١٣٢**.

[2] **شريعة حمورابي**، ج١، ١٨٧.

[3] يُنظر: **العاقل (تاريخ مختصر للنَّوع البشريِّ)**، ص **١٣٤**.

ق.م) وحفيده أو ابن ابنه تحوتمس الرَّابع (١٤١١-١٣٩٧ ق.م)[١]، وأعطىٰ أولئك الفراعنة الممالك السُّوريَّة والإمارات المؤيِّدة لهم حرِّيَّة دينيَّة، وأخرىٰ لغويَّة سَيْرًا علىٰ عادة أسلافهم الفراعنة السَّابقين، واستقدموا الطُّلَّاب السُّوريِّين لتعليمهم في مصر، ولعلَّ تعليم القراءة والكتابة وتنشئة المترجمين العارفين بمعاني الرُّموز اللُّغويَّة مُفردَةً أو مركَّبة في سياقات لغويَّة مع إعداد المعلِّمين المشرفين علىٰ تعليم نصوص تلك اللُّغات الجديدة وترجمتها وتفسيرها وتأويلها بالإضافة إلىٰ حرِّيَّة التَّعدُّد اللُّغويِّ في مصر القديمة والدُّول المتحالفة معها من أهمِّ ما يقع في مركز دائرة علم الدَّلالة القديم، ويكشف عن تطوُّره وازدهاره أيضًا.

وصل إلىٰ الحكم **أمنحوتب الثَّالث (١٣٩٧-١٣٦٠ ق.م)، وشاركه في حكمه أثناء حياته ابنه أمنحوتب الرَّابع (١٣٧٠-١٣٤٩ ق.م)**، ثمَّ حكم أمنحوتب الرَّابع بمفرده بعد وفاة أبيه، وانصرف إلىٰ البذخ والتَّرف بدلًا من الاهتمام بشؤون البلاد السِّياسيَّة والعلميَّة والعسكريَّة، ثمَّ قام **إخناتون** (Akhenaten) **(١٣٥٣-١٣٣٥** ق.م) بثورته الدِّينيَّة، ونقل أهمَّ الوثائق والمراسلات الدِّبلوماسيَّة الفرعونيَّة من إقليم طيبة إلىٰ تلِّ العمارنة (أخت-أتون)[٢]، وقد تضمَّنت تلك الألواح الطِّينيَّة المكتوبة بالأكديَّة **٣٣٧** رسالة

---

[١] يُنظر: فخريُّ، أحمد، **مصر الفرعونيَّة (موجز تاريخ مصر منذ أقدم العصور حتَّىٰ عام ٣٣٢ قبل الميلاد)**، منشورات مكتبة الأسرة والهيئة المصريَّة للكتاب، ط١، القاهرة ٢٠١٢م، ص ٢١٧-٢٢٩.

[٢] يُنظر: **مصر الفرعونيَّة**، ص ٢٤٨.

«لقيت ما هي جديرة به من اهتمام؛ لأنَّها من أهمِّ المصادر التَّاريخيَّة الَّتي توضِّح لنا ما كانت عليه [الحال] السِّياسيَّة في بلاد سورية (فلسطين وبابل وآشور وميتاني وخيتا) في أواخر أيَّام **أمنحوتب الثَّالث وطيلة أيَّام إخناتون**»[1].

انتهت ثورة إخناتون الدِّينيَّة، ورجع الفراعنة إلىٰ إقليم طيبة، وهُجر تلُّ العمارنة، وعُدَّ مكانًا نجسًا، وبقي فيه أرشيف دلاليٌّ مهمٌّ؛ يقترب من أربعمئة لوح طينيٍّ مكتوب بالأكديَّة المتأخِّرة؛ لغة العصر المهيمنة وقت تدوينها، وهذا دليل آخر علىٰ ازدهار علم الدَّلالة القديم. اُكتشفت تلك الألواح صدفة سنة **١٨٨٧**.م، وظنَّها النَّاس ألواحًا مزيَّفة، ولم تأخذ حقَّها من الاهتمام إلَّا مع قدوم عالم المصريَّات **فلندرز بتري** (Flinders Petrie) (**١٨٥٣-١٩٤٢**.م) سنة **١٨٩١**.م، ثمَّ تُرجم حوالي **٣٣٧** رسالة دبلوماسيَّة من تلك الألواح الأكديَّة إلىٰ لغاتنا الحيَّة أو المعاصرة. والحقُّ أنَّ كثيرًا من القائلين بحداثة علم الدَّلالة والمؤلِّفين في مجال علم الدَّلالة الحديث لم يعرفوا شيئًا عن رسائل تلِّ العمارنة أو شريعة حمورابي أو مكتبات ماري وإيبلا والعراق، الَّتي لم تكن مُكتشفة في ذلك الوقت؛ ولعلَّهم تسرَّعوا في إطلاق حكمهم، أو كرَّروا آراء من سبقهم، وقالوا بحداثة علم الدَّلالة مع أنَّهم لم يُعدَموا مؤلَّفات دلاليَّة أخرىٰ مكتوبة بلغات قديمة، ومترجمة إلىٰ لغات حديثة متعدِّدة؛ كألواح العهد القديم ونقوشه وترجمته السَّبعينيَّة، وكتاب كليلة ودمنة بنسخه: الهنديَّة والفارسيَّة والعربيَّة، وكتب مهمَّة أخرىٰ لدىٰ فلاسفة ولاهوتيِّين

[1] - **مصر الفرعونيَّة**، ص **٢٥٢**.

اشتغلوا بعلم الدَّلالة القديم، واهتمُّوا بدلالة الألفاظ والجمل أيَّما اهتمام في كتبهم المتعدِّدة؛ كالجمهوريَّة لأفلاطون، وفنِّ الشِّعر والخطابة لأرسطو، ومؤلَّفات القدِّيس أوغسطين وغيرها.

*****

توزَّعت ألواح تلِّ العمارنة بين متاحف: مصر وبرلين وفيينَّا وباريس وغيرها من المتاحف، ولعلَّ **معجم تلِّ العمارنة للتَّرجمة** من أهمِّ وثائق علم الدَّلالة القديم؛ فقد كُتبت فيه الكلمة الأكديَّة في عمود أوَّل، وكُتب نُطقُها الأكديُّ بالحروف المصريَّة في عمود ثانٍ، وكُتب معناها بالمصريَّة في عمود ثالث. وقسَّم علماء فقه اللُّغة المقارن رسائل تلِّ العمارنة أو وثائقها الدِّبلوماسيَّة المهمَّة إلىٰ **ثلاثة أقسام**: (رسائل دبلوماسيَّة ملكيَّة، ورسائل الأمراء المُوالين، ورسائل المُصاهرة)، وتحتوي تلك الألواح الطِّينيَّة علىٰ نصوص من أقدم المراسلات الإخوانيَّة (رسائل الصَّداقة والمصاهرة)، والمراسلات الرَّسميَّة (رسائل ملوك الدُّول المجاورة وأمراء الدُّول المتحالفة مع الفراعنة)، وتضمُّ تلك المراسلات مواضيع غاية في الأهمِّيَّة؛ كرسائل الشَّوق والرِّثاء والعتاب، ولعلَّ رسالة **دوشراتا الملك الميتانيِّ إلىٰ أمنحوتب الرَّابع** عند تولِّيه العرش بعد وفاة أبيه **أمنحوتب الثَّالث** من أقدم الرَّسائل العالميَّة الَّتي جمعت بين التَّعزية والتَّهنئة في وقت واحد؛ حيث جاء في تلك الرِّسالة: «حينما مات والدك بكيتُ يوم علمت بوفاته، وسقطتُ مريضًا، وأشرفت علىٰ الهلاك،

ولكن عندما علمتُ بأنَّ أكبر أنجال الملك أمنحوتب **والملكة تي** قد جلس علىٰ العرش قلت: الآن، لم يمت أمنحوتب»[1].

ج كتاب كليلة ودِمنة

تطلُّ علينا من خلال كتاب كليلة ودمنة ظِلال من الحكمة في تعاليم الزُّرداشتيَّة والهندوسيَّة في كلٍّ من **أفسته والزَّند أفسته وأناشيد الفيدا السَّنسكريتيَّة**؛ لأنَّ الفيلسوف الهنديَّ فيشنو شارما (بَيدَبا/ ديبيا) (Vishnu Sharma) (....-٣٠٠ ق.م) ؛ مؤلِّف كتاب كليلة ودمنة كان رأس طائفة الهنود البراهمة في أيَّام حروب الهند مع **الإسكندر الأكبر المشهور بالإسكندر بن فيليب المقدونيِّ أو ذي القرنين (٣٣٦-٣٢٣ قبل الميلاد)**. ولعلَّ معظم الباحثين في مجال علم الدَّلالة وفقه اللُّغة المقارن يعلمون أهمِّيَّة الزَّند أفسته (شرح أفسته كتاب زرادشت) وأناشيد الفيدا الهندوسيَّة ودورهما الكبير في إحياء علم الدَّلالة القديم وتوجيه الاهتمام نحو فقه اللُّغة المقارن وعلم الدَّلالة الحديث بعد وثيقة وليام جونز حول الأصول الهندو-أوروبِّيَّة، الَّتي أشرنا إليها من قبل.

وإن كان الحديث عن كتاب زرادشت وديانة الهنود القدماء من خلال أناشيد الفيدا ليس مدار بحثنا؛ فإنَّه من الطَّريف أن نجد ارتباطًا بين الهنود ومصادر علم الدَّلالة القديم في أكثر من موقع من خلال الحديث عن كتبهم الدِّينيَّة والفلسفيَّة أو الأدبيَّة الوعظيَّة؛ حيث يرتبط كتاب (**كليلة ودمنة**) بساسة

---

[1] **دراسات في تاريخ الشَّرق القديم**، ص ٨٢.

الهنود البراهمة وملوكهم وكتابيهم المذكورين آنفًا بشكل أو بآخر؛ فقد ألَّف الفيسلوف الهنديُّ فيشنو شارما (بَيدَبا/ ديبيا) (Vishnu Sharma) (....-**٣٠٠** ق.م) كتابه: (كليلة ودمنة) لِدَبْشَليم ملك الهند، بعدما استبدَّ برعيَّته، وكان ذلك بعد أن انتصر الإسكندر المقدونيُّ علىٰ فُوْر؛ ملك الهند قبل دَبْشَليم، وعيَّن الإسكندر المقدونيُّ مكان الملك الهنديِّ الخاسر ملكًا جديدًا أو واليًا آخر علىٰ الهند غير (فُوْر) المهزوم، وتابع الإسكندر غزواته، وبعد مدَّة خلع الهنود والي الإسكندر عليهم، وعيَّنوا دَبْشليم، الَّذي ظلمهم، واستبدَّ بهم في بداية حكمه؛ فما كان من فيشنو شارما (بَيدَبا/ ديبيا) (Vishnu Sharma) (....-**٣٠٠** ق.م) ؛ فيلسوف الهند ورأس طائفة البراهمة الهندوسيَّة إلَّا أن استشار تلاميذه، وألَّف كتاب (كليلة ودمنة) في الوعظ السِّياسيِّ علىٰ ألسنة الحيوانات؛ وردَّ من خلاله دَبْشليم إلىٰ جادَّة الحقِّ وطريق الصَّواب والعدل تجاه رعيَّته.

*****

وبعد ذلك بقرون عدَّة من الزَّمن، أرسل **كسرىٰ الأوَّل أنوشروان بن قباذ بن يزجرد بن بهرام جور (٥٠١-٥٧٩م)** إلىٰ الهند رسولَه بَرْزَوَيْه؛ رأس الأطبَّاء عنده؛ ليحصل علىٰ نسخة مترجمة من كتاب (كليلة ودمنة) مهما كلَّف ثمنها، ونجح بَرزويه بمهمَّته، ونقل نسخة باللُّغة البهلويَّة إلىٰ بلاد الفرس، ثمَّ ترجم رَوْزَبَة بن دَاذْوَيْه المشهور بعبد الله بن المقفَّع (**٧٢٤-٧٥٩م**) هذا

الكتاب من البهلويَّة أو الفارسيَّة القديمة إلى العربيَّة بعد اعتناقه الإسلام[1]، وقبل ٩٠٠ سنة تقريبًا من شهرة فرديناند دو سوسير بوصفه مؤسِّس اللِّسانيَّات والدَّلاليَّات والسِّيميائيَّات الحديثة بعد بحثيه الشَّهيرين حول نظام حروف العلَّة البدائيِّ في اللُّغة السَّنسكريتيَّة: (Mémoire sur le système primitif des voyelles dans les langues indo-européennes)[2]، وأطروحته في الدُّكتوراه (حول استخدام المضافات المطلقة في السَّنسكريتيَّة) (DE L'EMPLOI DU GÉNITIF ABSOLU EN SANSCRIT)[3] رحل أبو الرَّيحان البيرونيُّ (٩٧٣-١٠٤٨م) إلى الهند، وتعلَّم لغتها ولغات عدَّة غيرها، وأسَّس علم الهنديَّات أو علم الهند، الَّذي انطلقت منه علوم اللِّسانيَّات والدَّلاليَّات وفقه اللُّغة المقارن في أوروبَّا الحديثة، بعد زمن طويل من تأليف

---

[1] يُنظر: ديبيا، **كليلة ودِمنة**، ترجمة: روزبة بن داذويه المشهور بعبد الله بن المقفَّع، منشورات مكتبة زهران، ط١، القاهرة ٢٠٠٥، ص ١١-١٢-١٣-١٤-١٥ من باب مقدِّمة الكتاب، وقد كتبها: بهنود بن سحوان المعروف بعليِّ بن الشَّاه الفارسيِّ.

[2] يُنظر: DE SAUSSURE, FERDINAND, Mémoire sur le système DE SAUSSURE, Ferdinand, Mémoire sur le système primitif des voyelles dans les langues indo-européennes, Source gallica.bnf.fr, Bibliothèque nationale de France. LEIPSICK, 1879.

[3] يُنظر: DE SAUSSURE, Ferdinand, De l'emploi du génitif absolu en sanscrit, Thèse pour le Doctorat, présentée a la Faculté de Philosophie de l'Université de Leipzig, imprimerie Iules-Guillaume Fick, Genève, 1881.

البيرونيِّ كتابه المرموق: (**تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة**)، الَّذي لم يأخذ شهرته الأكاديميَّة حتَّىٰ كتابة هذه السُّطور في وقتنا الرَّاهن، وقد استهلَّ ابن النَّديم (أبو الفرج محمّد بن إسحق النّديم) (....-**٩٩٤**م) كتابه: (الفهرست) بمقالات من صلب علوم الدَّلالة وفقه اللُّغة المقارن، حين تحدَّث عن: (وصف القلم الحِميَرِيِّ) و(وصف لغات الأمم من العرب والعجم، ونعوت أقلامها، وأنواع خطوطها، وأشكال كتاباتها)، و(ابتداء النّحو، وأخبار النَّحويِّين البصريِّين، وفصحاء العرب، وأسماء كتبهم)، و(أخبار النَّحويِّين واللُّغويِّين من الكوفيِّين، وأسماء كتبهم)[١]، ولعلَّ جهود الأسباط مع (أليعازر كاهن القدس الأكبر من الأسباط) في زمن بطليموس الثَّاني فيلادلفوس (II.Patlemaios) (**٣٠٩-٢٤٧**ق.م) في ترجمة التَّوراة السَّبعينيَّة من اللُّغة الآراميَّة والخطِّ الآراميِّ المربَّع[٢] تشكل نقطة اتِّصال مهمَّة بين مع كلٍّ من عبد الله بن المقفَّع الدَّلاليَّة التَّطبيقيَّة في ترجمة كتاب (كليلة ودمنة) من البهلويَّة إلىٰ العربيَّة وابن النَّديم والبيرونيِّ تتجاوز في أهمِّيَّتها جهود بريال وسوسير، وتمثِّل امتدادًا طبيعيًّا لعلم الدَّلالة القديم، وتؤكِّد سنده المتَّصل، الَّذي بدأ منذ آلاف السِّنين في الوثائق والمدوَّنات المشرقيَّة القديمة في شبه الجزيرة العربيَّة ومصر واليمن وسوريا والعراق والهند.

---

[١] يُنظر: النَّديم، أبو الفرج محمَّد بن إسحق النَّديم، **الفهرست**، تحقيق: رضا تجدُّد، طبعة محقَّقة دون نشر وتاريخ، ج**١**، ص**٩-٢٣**، **٤٥-٨٣**.

[٢] يُنظر: دروزة، محمَّد عزّة، **تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم**، مطابع شركة الإعلانات الشَّرقيَّة، طبعة دون تاريخ، ج**٣**، ص**٤١٧-٤١٨**.

أشرتُ إلىٰ اكتشاف عشرات الآلاف من الألواح الطِّينيَّة والوثائق الدَّلاليَّة في تلال سورية ومصر والعراق وممالك آشور وبابل وماري وإيبلا ورأس شمرا، وقد ضمَّت تلك الألواح معاجم وترجمات ومراسلات مهمَّة جدًّا في ميدان علم الدَّلالة، ولا سيَّما في الجانب التَّطبيقيِّ منه؛ مثل تأليف معاجم التَّرجمة، وترجمة المراسلات الدِّبلوماسيَّة، غير أنَّ كتاب كليلة ودمنة ما زال يحظىٰ بأهمِّيَّة دلاليَّة متميِّزة بين الآلاف من مصادر علم الدَّلالة القديم ووثائقه؛ فقد أُلِّف هذا الكتاب في وقت قريب جدًّا من تأليف **أفلاطون (٤٢٧-٣٤٧ قبل الميلاد)** محاوراته وتدوينه كتابه (الجمهوريَّة) وتدوين أرسطو **(٣٨٤-٣٢٢ قبل الميلاد)** نقده الدَّلاليِّ حول فنون القول كلِّها في كتابيه: (الخطابة) و(فنِّ الشِّعر)، وما زال علم الدَّلالة الحديث يعتمد علىٰ كثير من آراء أفلاطون وأرسطو ولا سيَّما في تنظيرهما حول علم الدَّلالة، واعتنائهما بالدَّالِّ والمدلول والمرجع في جهودهما الدَّلاليَّة التَّطبيقيَّة.

كشف كتاب (كليلة ودِمنة) عن حِنكة دلاليَّة كبيرة، اعتمدها فيلسوف الهند فيشنو شارما (بَيدَبا/ ديبيا) (Vishnu Sharma) (....-٣٠٠ ق.م) في وعظه السِّياسيّ بأسلوب شيّق ورشيق علىٰ ألسنة الحيوانات، ناهيك عن أهمِّيَّة هذا الكتاب التَّاريخيَّة والدَّلاليَّة؛ حيث تأتي قيمته التَّاريخيَّة من عصره ذاته، ومن إشارة مقدِّمة الكتاب إلىٰ أنَّ ذا القرنين ما هو إلَّا لَقَبُ الإسكندر المقدونيِّ؛ وهذا يقودنا إلىٰ قصَّة ذي القرنين في القرآن الكريم أيضًا. في حين ترتبط القيمة الدَّلاليَّة الكبيرة لهذا الكتاب بقضايا التَّرجمة من لغة إلىٰ أخرىٰ من لغات العالم القديم المتعدِّدة؛ حيث تُعدُّ التَّرجمة من أهمِّ قضايا علم

الدَّلالة الحديث، فقد تُرجم هذا الكتاب من الهنديَّة القديمة إلىٰ البهلويَّة أو الفارسيَّة القديمة، ثمَّ تُرجم من البهلويَّة إلىٰ العربيَّة في أواخر العصر الأمويِّ وبدايات العصر العبَّاسيِّ.

د التَّرجمة السَّبعينيَّة للتَّوراة أو العهد القديم

دوَّن الأحبار اليهود كتاب (العهد القديم أو التَّوراة) في القرن السَّادس قبل الميلاد بين (**٥٨١-٥٣٩** قبل الميلاد) تحديدًا، وكتبوا أسفاره الأولىٰ باللُّغة الآراميَّة وبالخطِّ الآراميِّ المربَّع، «وقد استفادوا من العقائد والآداب السَّائدة في بلاد الرَّافدين، فأنشؤوا منها عقيدتهم في الخلق، كما انتحلوا نسبًا لإبراهيم الخليل-عليه السَّلام-بوصفه النَّبيَّ الأوَّل الَّذي طوَّر مفاهيم العقائد الرَّافديَّة القديمة، ونادىٰ بها، مؤمنًا بالرَّبِّ إيل؛ ربِّ السَّماوات والأرض، الَّذي كان معبودًا من جميع الأقوام القديمة»[١]. وقد أثبتت الاكتشافات الأثريَّة شبهًا شديدًا بين (الإينوما إيليش؛ أسطورة الخلق البابليَّة) وسِفر التَّكوين التَّوراتيِّ، مع تطوُّر في بعض المعتقدات من جانب، وانتقال من التَّدوين باللُّغة الأكديَّة والخطِّ المسماريِّ إلىٰ التَّدوين باللُّغة الآراميَّة والخطِّ الآراميِّ من جانب آخر[٢].

ثمَّ حظيت التَّرجمة السَّبعينيَّة للعهد القديم بمكانة كبيرة منذ ظهورها في القرن الثَّالث قبل الميلاد؛ ولم تزل تلك التَّرجمة تحتفظ بأهمِّيَّتها حتَّىٰ وقتنا

---

[١] بهنسيُّ، عفيف، **وثائق إيبلا**، منشورات وزارة الثَّقافة والإرشاد القوميِّ، ط١، دمشق، **١٩٨٤**م، ص١٠٠.

[٢] يُنظر: **وثائق إيبلا**، ص١٠١-١٠٢.

الرَّاهن؛ وذلك لأنَّها من أقدم التَّرجمات العالميَّة والوثائق الدَّلاليَّة الَّتي أُعتمدت في الدِّراسات اللَّاهوتيَّة والتَّاريخيَّة والسِّياسيَّة والأدبيَّة واللُّغويَّة المقارنة في العالم كلِّه. وإن كان نشاط الدِّراسات الدَّلاليَّة والبلاغيَّة العربيَّة يرجع في قسم كبير منه إلىٰ الاهتمام بالقرآن الكريم، فإنَّ التَّرجمة السَّبعينيَّة للعهد القديم تقع في مركز دائرة علم الدَّلالة القديم؛ نظرًا لأهمِّيَّتها من نواحٍ متعدِّدة؛ ولأنَّها تَرجمت نصوصًا دينيَّة ساميَّة من العبريَّة القديمة إلىٰ اللُّغة اليونانيَّة في زمن اقتربت فيه اللُّغة العبريَّة القديمة من الزَّوال أو الاندثار والنِّسيان، وقد سُمِّيت تلك التَّرجمة بالسَّبعينيَّة؛ لأنَّها أُنجزت في اثنين وسبعين يومًا من قبل اثنين وسبعين كاهنًا؛ جميعهم من الأسباط الاثني عشر، وقد شارك ستَّة مترجمين من نسل كلِّ سبط من الأسباط الاثني عشر، وكان أليعازر كاهن القدس الأكبر علىٰ رأس أولئك الأسباط الَّذين أنجزوا التَّرجمة السَّعبينيَّة.

تُشبه قصَّة إنجاز التَّرجمة السَّبعينيَّة قصَّة تأليف كتاب (كليلة ودمنة) وترجمته من الهنديَّة إلىٰ البهلويَّة إلىٰ حدٍّ ما، ويبدو أنَّ هذه التَّرجمة تتجاوز ترجمة كتاب (كليلة ودِمنة) في الأهمِّيَّة من نواحي الدِّراسات المقارنة في الدِّين واللَّاهوت والسِّياسة وفلسفة التَّاريخ وفقه اللُّغة؛ فقد رفع **ديمتريوس** أمين مكتبة الإسكندريَّة الشَّهيرة تقريره «إلىٰ سيِّده الإمبراطور **بطليموس فيلاديلفوس الثَّاني** [**٣٠٩-٢٤٧ ق.م**] مفاده أنَّه قد ضمَّ إلىٰ المكتبة تسعمئة وخمسةً وتسعين كتابًا، تمثِّل أعظم الكتب العالميَّة الَّتي تحتوي الآداب القوميَّة المتعدِّدة، إلَّا أنَّ أعظم خمسة كتب من كلِّ هذه المجموعة غير موجودة في مكتبته، وهي الكتب الخاصَّة بالقانون اليهوديِّ (ويعني بها أسفار موسىٰ

الخمسة أو التَّوراة)، وقد أضاف أمين المكتبة: إلَّا أنَّ هذه الكتب في حاجة إلىٰ ترجمتها إلىٰ اليونانيَّة أوَّلًا. واستجاب الإمبراطور علىٰ الفور لهذا الطَّلب، وأرسل مبعوثين-كان أريستياس من بينهم-إلىٰ إليعازر الكاهن الأكبر في القدس يطلب منه إرسال نسخ من هذه الكتب مع رجال أكفاء للقيام بالتَّرجمة؛ فأجابه أليعازر، وأرسل إليه اثنين وسبعين رجلًا؛ ستَّة من كلِّ سِبط من الأسباط الاثني عشر-وكان هو علىٰ رأسهم-مع نسخة من التَّوراة»[1].

أُستُقبِلَ الأسباط المترجمون استقبالًا رسميًّا، وجُعل لكلِّ واحد منهم كاتب يونانيٌّ حاذق، ونقلهم بطليموس إلىٰ جزيرة فرعون القريبة من الإسكندريَّة، ومنعهم من الاجتماع فيما بينهم؛ فأقام الأسباط المترجمون اثنين وسبعين يومًا، وأنجزوا ترجمتهم، الَّتي كتبها **ديمتريوس**، ووافق الأسباط عليها، وقُرئت علىٰ المجتمع اليهوديِّ، الَّذي اعتبرها ترجمة مقدَّسة، ثمَّ أُشتهرت فيما بعد باسم التَّرجمة السَّبعينيَّة. ويُقرُّ معظم الباحثين أنَّ التَّرجمة السَّبعينيَّة لم تكن من العبريَّة إلىٰ اللُّغة اليونانيَّة الأدبيَّة القديمة وإنَّما تُرجمت إلىٰ اليونانيَّة المشهورة باسم KOINE، وهي لغة منحدرة من لغات أثينا القديمة المسمَّاة أتيك Atic، وقد أثَّرت لغة الأتيك في كلٍّ من اللَّهجات الَّتي نشرها الإسكندر المقدونيُّ في المشرق ولغة الحديث اليوميِّ الكوين KOINE، الَّتي راحت تتقدَّم حتَّىٰ سادت في تلك الأيَّام؛ فصارت مع مرور الوقت لغة الآداب والأحاديث اليوميَّة معًا، واشتملت تلك اللُّغة علىٰ تلوينات

---

[1] ناظم، سلوىٰ، **التَّرجمة السَّبعينيَّة للعهد القديم بين الواقع والأسطورة**، طبعة بدون تاريخ مودعة بدار الكتب في القاهرة برقم **٨٥٩٨/ ٨٨**، ورقم الإيداع الدُّوليِّ **٤/ ٣٧/ ٢٣٨/ ٩٧٧**، ص ١٧.

وتأثيرات ساميَّة «ساعد عليها بلا شكٍّ الهدف الأساسيُّ الَّذي قامت من أجله التَّرجمة الَّتي لم تهدف إلىٰ نقل نصٍّ عبريٍّ إلىٰ لغة يونانيَّة أدبيَّة بقدر ما هدفت إلىٰ توصيل معاني النُّصوص الدِّينيَّة وتيسير العبادات وتقريب المعاني قدر الإمكان إلىٰ أذهان تلك المجموعة اليهوديَّة الَّتي نسيت لغتها العبريَّة الأصليَّة، وذلك باستخدام كلِّ الطُّرق الميسَّرة والمسموح بها في اللُّغتين المنقول منها وإليها»[1].

تضعنا التَّرجمة السَّبعينيَّة-برغم قِدمها وانتمائها إلىٰ إنجازات علم الدَّلالة القديم-أمام مسائل مهمَّة، تُعدُّ اليوم من أهمِّ القضايا الدَّلاليَّة المعاصرة، الَّتي يهتمُّ بها كلٌّ من فقه اللُّغة المقارن وعلم الدَّلالة الحديث؛ كترجمة روح النَّصِّ ومدىٰ كفاءة النَّصِّ المترجم الجديد وإخلاصه في نقل المعنىٰ الأصليِّ ومقدار تحوُّلات الدَّلالة مقارنة بما كانت عليه قبل التَّرجمة بالإضافة إلىٰ تأثير هذه اللُّغة أو تلك من اللُّغات القديمة أو الحديثة في اللُّغات المجاورة لها أو استفادتها منها من خلال اختلاط الشُّعوب أو تعايشها الثَّقافيِّ أو اللُّغويِّ أو تعارفها؛ وذلك لأنَّ هذا التَّعارف حتميَّة؛ قال عنها القرآن الكريم: «**يا أيُّها إنَّا خلقناكم من ذكر وأنثىٰ وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم إنَّ الله عليم خبير**»[2]ذلك من العوامل المتعدِّدة، ويكفي أن نشير إلىٰ تفاقم المزايدات علىٰ أمانة الأب **ريشار سيمون (Richard Simon)** **(١٦٣٨-١٧١٢م)** حين أعاد النَّظر في التَّرجمة السَّبعينيَّة؛ الَّتي لم يهدأ النِّقاش

---

[1] **التَّرجمة السَّبعينيَّة للعهد القديم بين الواقع والأسطورة**، ص ١٧.

[2] **سورة الحجرات**، الآية ١٣.

حولها والتَّراشق بأطراف التُّهم بين المتنازعين بسببها، فقد حدثت مشادَّات كلاميَّة لا تُحصىٰ بين اليهود والمسيحيِّين من جانب وبين الطَّوائف المسيحيَّة المختلفة فيما بينها من جانب آخر؛ «ما استدعىٰ عمليَّة تصحيح للتَّرجمات استغرقت قرونًا عدَّة، وأسفرت علىٰ إثر **انعقاد المجتمع التِّريدانتنيِّ عام ١٥٤٦**.م عن **إعلان (الفولغاتا) (La Vulgate)** وحدها ترجمةً قانونيَّة. ولمَّا [أُسِّست] **جمعيَّة (الأوراتوار)** بعد قرن ونيِّف بتشجيع من التَّيَّار المناهض للإصلاح، وكان يتعيَّن علىٰ أعضائها، بالتَّالي، تأييد هذا الاتِّجاه دون ما عداه، فقد أخفق الأب سيمون في الإقناع بقراءته التَّحديثيَّة، ولم يكد **بوسُّويه (Bossuet)** (١٦٢٧-١٧٠٤.م) يمسك بكتاب (التَّاريخ النَّقديِّ للعهد القديم)، ويستعرض فهرس فصوله حتَّىٰ اتَّخذ القرار يوم **خميس الأسرار في السَّابع من نيسان/ أبريل عام ١٦٧٨**.م بإرسال هذا الكتاب إلىٰ المحرقة. فأيُّ كلام جسور تُراه قرأه فيه حتَّىٰ اعتبره مجموعة زندقات ومعقلًا للفسق؟ لم يقرأ **بوسُّويه** في الواقع إلَّا ما كان سيمون قد استهلَّ به الفصل الخامس من بابه الأوَّل منوِّهًا (ببراهين علىٰ إضافات وتغييرات طارئة علىٰ النَّصِّ الكتابيِّ ولا سيَّما أسفار الشَّريعة الخمسة)، الَّتي يُستَبعَد أن يصحَّ في شخص موسىٰ-[عليه السّلام]-جميع ما نسبَتْه إليه من قول وفعل، (ذلك فضلًا عن أمثلة أخرىٰ كثيرة). وهكذا فما كاد هذا الكتاب يبصر النُّور حتَّىٰ [وُضِعت عليه اليد، وأُحرقت] نسخه بالكامل، قبل أن يُصار إلىٰ إبلاغ **الأب سيمون في الحادي**

والعشرين من شهر أيَّار/ مايو من العام نفسه قرارًا يَقضي بفصله نهائيًّا عن جمعيَّة (الأوراتوار)»[1].

ومها يكن من أمر التَّرجمة السَّبعينيَّة يؤكِّد حديثنا الموجز عنها أهمِّيَّة علم الدَّلالة القديم وما يتفرَّع عنه من قضايا دلاليَّة مهمَّة ترتبط بالتَّأويل والتَّرجمة وتحوُّلات المعنىٰ من سياق إلىٰ آخر، وقد سلَّطت هذه الإشارة الموجزة الضَّوء علىٰ أهمِّيَّة ترجمة النَّصِّ اللُّغويِّ من لغة إلىٰ أخرىٰ عمومًا، وبيَّنت أهمِّيَّة التَّرجمة السَّبيعنيَّة علىٰ وجه الخصوص، وتبقىٰ هذه الإضاءة علىٰ التَّرجمة السَّبعينيَّة إشارة موجزة، لا تغني عن العودة إليها والاطِّلاع علىٰ الدِّراسات الدَّلاليَّة المتعدِّدة حولها بوصفها عملًا دلاليًّا تطبيقيًّا يكشف عن ازدهار علم الدَّلالة القديم، ويدلُّ علىٰ تطبيقاته المتطوِّرة-حتَّىٰ وإن لم يُستخدم هذا المصطلح بحَرْفِيَّته-في مجال دراسة المعنىٰ وتأويل الدَّوالِّ والمدلولات في سياقاتها ونقل ذلك المعنىٰ المؤوَّل من لغة إلىٰ أخرىٰ في مرحلة تاريخيَّة قديمة تسبق بألفي سنة إحياء علم الدَّلالة الحديث وازدهاره بتأثير مباشر من ازدهار فقه اللُّغة المقارن ووثيقة وليام جونز حول الأصول واللُّغات الهندو-أوروبِّيَّة.

ج جَمْعُ القرآن بين التَّدوين ومنهج علم الدَّلالة الحديث

شكَّل تاريخ القرآن الكريم ودراساته المتعدِّدة مصدرًا مهمًّا من مصادر علوم البيان والبلاغة والأسلوب وفقه اللُّغة المقارن في مجال الدِّراسات

---

[1] لغات الفِرْدَوس، ص٧٣-٧٤.

العالميَّة كلِّها، ولا سيَّما العربيَّة منها، ولربَّما يصبح في المستقبل كلُّ خبر من أخبار جمع القرآن الكريم وتدوينه وتلاوته وإعرابه وتأويله علمًا قائمًا بذاته، علىٰ النَّحو الَّذي تتشعَّب فيه علوم القرآن، ويتَّسع مجالها يومًا بعد آخر، وسنورد في هذه الفقرة الأخيرة من هذا الفصل حديثًا عن جمْع القرآن الكريم وتدوينه؛ لنسلِّط الضَّوء علىٰ هذا الحدث المهمِّ وتأثيراته الكبيرة في ميادين علوم الدَّلالة كلِّها؛ قديمة وحديثة.

أشرتُ-في أكثر من موقع في هذا الفصل-إلىٰ أهمِّيَّة التَّرجمة ومركزيَّتها في علوم الدَّلالة؛ قديمة وحديثة، ولعلَّ مُلازَمة **زيد بن ثابت بن الضَّحَّاك الأنصاريَّ (٦١١-٦٦٥م)**-رضي الله عنه-رسولَ الله مع إجادته اللُّغتين: العبريَّة أو السِّريانيَّة مع اللُّغة العربيَّة تقع بين أهمَّ الأسباب الَّتي جعلته واحدًا من كتبة الوحي في عهد رسول الله صلَّىٰ عليه وسلَّم، وعضوًا من لجنة جمع القرآن الرُّباعيَّة في عهد **عثمان بن عفَّان (٥٧٦-٦٥٦م)** رضي الله عنه، فقد جاء في كتاب المصاحف للسُّجستانيِّ الحنبليِّ: «حدَّثنا عبد الله، وحدَّثنا عيسىٰ بن عثمان بن عيسىٰ، قال: حدَّثني عمِّي يحيىٰ بن عيسىٰ، عن الأعمش عن ثابت بن عبيد، عن زيد بن ثابت، قال: قال رسول الله صلَّىٰ الله عليه وسلَّم: (إنَّها تأتيني كتبٌ لا أحبُّ أن يقرأها كلُّ أحد، هل تستطيع أن تتعلَّم كتابَ العبرانيَّة؟ أو قال: السُّرْيانيَّة؟ فقلت: نعم، فتعلَّمتها في سبعة عشر يومًا)»[1].

---

[1] السِّجستانيُّ الحنبليُّ، أبو بكر عبد الله بن سليمان بن الأشعث المعروف بابن أبي داود، **كتاب المصاحف**، دراسة وتحقيق ونقد: الدُّكتور محبُّ الدِّين عبد السَّجَّان واعظ، دار البشائر الإسلاميَّة، ط٢، بيروت، ٢٠٠٢م، ج١، ص ١٤٣.

شارك زيد بن ثابت بن الضَّحَّاك الأنصاريُّ -رضي الله عنه- في جمع القرآن الكريم وتدوينه، وبعد اتِّساع رقعة الفتوحات الإسلاميَّة اختلف النَّاس حول تلاوة بعض ما وصلهم من القرآن الكريم عن طريق الصَّحابة أو الصُّحف، فخيفت الفتنة في عهد عثمان بن عفَّان رضي الله عنه؛ فأمر أن يُجمِع النَّاس علىٰ مصحف واحد؛ لئلَّا يختلفوا؛ فيتنازعوا في كتاب الله، ويتفرَّقوا، وقد روىٰ **الإمام البخاريُّ** (٨١٠-٨٧٠م) حديث **أنس بن مالك الخزرجيِّ الأنصاريِّ** (٦١٢-٧١١م) رضي الله عنه، أنَّه قال: إنَّ **حذيفة بن اليمان الغطفانيِّ القيسيِّ** (....-٦٥٦م) قدم علىٰ عثمان رضي الله عنهما، وكان يغازي أهل الشَّام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين! أدرِكْ هذه الأمَّة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنَّصارىٰ؛ فأرسل عثمان إلىٰ أمِّ المؤمنين **حفصة** (٦٠٥-٦٦١م) **بنت عمر بن الخطَّاب** (٥٨٨-٦٤٤م) رضي الله عنهما أن أرسلي إلينا بالصُّحف ننسخها في المصاحف، ثمَّ نردُّها إليك؛ فأرسلت بها حفصة إلىٰ عثمان بن عفَّان رضي الله عنه.

ولعلَّ تنبُّه حذيفة بن اليمان إلىٰ مخاطر الاختلاف في قراءة القرآن الكريم أو تأويله يكشف عن معرفته الكبيرة بتاريخ علوم الدَّلالة في العصور القديمة والوسطىٰ معًا، مثلما يبرهن علىٰ تنبُّه عثمان بن عفَّان -رضي الله عنه- إلىٰ أهمَّيَّة تعدُّد اللَّهجات بين قريش في مكَّة والأنصار في المدينة المنوّرة جعله يؤكّد علىٰ أهمِّيَّة وجود زيد بن ثابت الأنصاريِّ -رضي الله عنه- في لجنة جمع القرآن الكريم الرُّباعيَّة الَّتي تألَّفت من ثلاثة قُرَشيِّين؛ هم: **عبد**

الله بن الزُّبير بن العوَّام الأسديِّ القرشيِّ (٦٢٣-٦٩٢.م)، وسعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أميَّة بن عبد شمس القرشيِّ (....-٦٧٩.م)، وأبو محمَّد عبد الرَّحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشيِّ (....-**٧١٣**.م)، رضي الله عنهم، ورابع أنصاريٌّ مَدَنيٌّ، هو **زيد بن ثابت بن الضَّحَّاك الأنصاريُّ (٦١١-٦٦٥.م)** رضي الله عنه، وقد قال عثمان بن عفَّان-رضي الله عنه-لأعضاء اللَّجنة: «إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في عربيَّة من عربيَّة القرآن فاكتبوها بلسان قريش، فإنَّ القرآن أنزل بلسانهم»[١].

والحقُّ إنَّ جمْع القرآن الكريم في المصحف العثمانيِّ لم يحفظ الذَّكر الحكيم وحسب، وإنَّما حفظ اللُّغة العربيَّة أيضًا؛ حيث قال المولىٰ عزَّ وجلَّ: «**إنَّا نحن نزَّلنا الذِّكر وإنَّا له لحافظون**»[٢]، وقد ازدادت المادَّة اللُّغويَّة المحفوظة من أصول اللُّغة العربيَّة الفصحىٰ مع إعجام القرآن بالتَّنقيط علىٰ يدي **أبي الأسود الدُّؤليِّ (٦٠٥-٦٨٨.م)** والحركات علىٰ أيادي **أبي عديٍّ يحيىٰ بن يعمر العدوانيِّ البصريِّ** (....-**٧٠٨**.م) **ونصر بن عاصم اللَّيثيِّ** (....-**٧٠٨.م**)[٣]وجمْع الحديث النَّبويِّ الشَّريف وتدوينه في الكتب الصِّحاح السِّتَّة: صحيح البخاريِّ، وصحيح مسلم، وسنن أبي داود، وجامع التِّرمذيِّ، وسنن النَّسائيِّ، وسنن ابن ماجة، وهذه المادَّة اللُّغويَّة الوفيرة تقدِّم لنا خدمات

---

[١] **كتاب المصاحف**، ج١، ص٢٠٠.

[٢] **سورة الحجر**، الآية ٩.

[٣] يُنظر: الخطيب، عبد اللَّطيف محمَّد، **أصول الإملاء**، دار العروبة، ط٤، الكويت **٢٠١١**.م، ص١٤.

جليلة في فقه اللُّغة المقارن وعلوم الدَّلالة كلِّها، وتساعدنا علىٰ تتبِّع مسار التَّحوُّل الرَّمزيِّ والتَّطوُّر الدَّلاليِّ في اللُّغة العربيَّة من خلال مقارنة النُّصوص المدوَّنة في عصر الرَّسول-صلَّىٰ الله عليه وسلَّم-والخلفاء الرَّاشدين -رضي الله عنهم- بنصوص أخرىٰ دُوِّنت قبلها في عصور قديمة أو كُتبت بعدها في العصور اللَّاحقة بها؛ وبهذه المقارنة نتتبَّع كثيرًا من التَّطوُّرات الشَّكليَّة علىٰ مستوىٰ الخطِّ، وتحوُّلات الدَّلالة علىٰ مستوىٰ المعنىٰ أو المضمون[1]؛ ولهذا كلِّه ظلَّ القرآن الكريم وتدوينه يحظيان بعناية الدَّارسين عربًا ومستشرقين نظرًا لأهمِّيَّته البالغة علىٰ مستوىٰ التَّدوينات الَّتي رافقت ظهور الشَّرائع السَّماويَّة، أو تلتها.

لقد شكَّل نظم القرآن الكريم ظاهرة لغويَّة فريدة في علوم الدَّلالة وعلوم النَّصِّ والبلاغة والأسلوب والأجناس الأدبيَّة؛ فالقرآن الكريم ليس بالشِّعر الموزون المقفَّىٰ، ولا يشبهه، ولا بالنَّثر الفنِّيِّ، الَّذي يتميَّز منه؛ إنَّه وحيٌ منزلٌ من السَّماء، وصفه **ريجي بلاشير** (Regis Blachere) (**١٩٠٠-١٩٧٣**.م) بأنَّه الحدَث، وهو الظَّاهرة كما قال عنه مالك بن نبيٍّ (Malek Bennabi) (**١٩٠٥-١٩٧٣**.م)[2]. ولعلَّ رُقيَّ الظَّاهرة القرآنيَّة علىٰ مستوىٰ الشَّكل والمضمون يكشف لنا جانبًا مهمًّا من جوانب التَّعارض والاختلاف

[1] يُنظر: ولفنسون، إسرائيل، **تاريخ اللُّغات السَّاميَّة**، منشورات لجنة التَّأليف والتَّرجمة والنَّشر ومطبعة الاعتماد، ط١، القاهرة **١٩٢٩**.م، ص ٧-٨.

[2] يُنظر: ويس، أحمد محمَّد، **ثانيَّة الشِّعر والنَّثر في الفكر النَّقديِّ (بحث في المشاكلة والاختلاف)**، منشورات وزارة الثَّقافة، ط١، دمشق **٢٠٠٢**.م، ص **٢٤٧، ٢٤٨، ٣٢٩**.

في الرَّأي حول صعوبة وضع الحدود بين الأجناس الأدبيَّة، والمخاطر المحتملة أو المترتِّبة علىٰ هدم الحدود الفاصلة بين أجناس القول اللُّغويِّ (شعرًا ونثرًا).

يبدو لنا أنَّ علم الدَّلالة القديم اشتمل علىٰ مواضيع علم الدَّلالة الحديث ومجالاته كلِّها؛ بدءًا من النِّقاش حول أصل اللُّغة وطُرق وضع العلامات اللِّسانيَّة أو تسمية المدلولات برموز ودوالَّ مناسبة لها محاكاة لأصوات الطَّبيعة أو اعتباطًا محضًا، ومرورًا بتدوين الجداريَّات البسيطة الَّتي رغب أصحابها أن يقولوا شيئًا ما من خلال تدوينها، ثمَّ وصل النِّقاش إلىٰ الحديث عن اختراع الكتابة وتدوين أشهر الوثائق الدَّلاليَّة العالميَّة القديمة؛ كالشَّرائع والكتب الدِّينيَّة والقوانين والمعاهدات والاتِّفاقيَّات السِّياسيَّة والمراسلات الدِّبلوماسيَّة والإخوانيَّة وتأليف الكتب والمعاجم اللُّغويَّة الَّتي ساعدت علىٰ ترجمة أشهر الأعمال الفنِّيَّة والأدبيَّة والرَّسائل والمعاهدات الدِّبلوماسيَّة من لغة إلىٰ أخرىٰ، وكشفت هذه المؤشِّرات والوثائق الدَّلاليَّة المتعدِّدة عن ازدهار علم الدَّلالة القديم، الَّذي برهن بدوره علىٰ انتشار الحرِّيَّات الثَّقافيَّة والدِّينيَّة واللُّغويَّة بين حضارات العالم القديم، وصاغ أبناء تلك الحضارات القديمة أركان علم الدَّلالة القديم، وأسَّسوا منهجيَّته العلميَّة الصِّرفة بعيدًا عن العنصريَّة أو الأيديولوجيا المقيتة برغم تعدُّد ثقافاتهم، وتنوُّع لغاتهم وأعراقهم وأديانهم وعاداتهم وتقاليدهم وتراثهم.

٦ خاتمة الفصل ونتائجه

كشف البحث في علم الدَّلالة القديم عن تنوِّع مصادره وانقسامها إلىٰ مرويَّات شفويَّة ولُقىٰ أثريَّة ومدوَّنات كتابيَّة، وأثبتت مصادر علم الدَّلالة

القديم، الَّتي وقفنا عندها في هذا البحث عراقة علم الدَّلالة وأصالته وقِدَمه قِدَم الإنسان نفسه، ولا سيَّما لدىٰ شعوب العالم القديم من مؤسِّسي أشهر الحضارات العالميَّة القديمة في الهند وفارس والعراق وسوريا ومصر واليمن والجزيرة العربيَّة واليونان...، مثلما تأكَّدت عالميَّة هذا العلم وعلمانيَّته وإنسانيَّته أيضًا؛ لأنَّه علم نشأ لخدمة بني الإنسان كلِّهم، ولا سيَّما في مجال التَّواصل وفهم المعاني وتأويل الأحاديث وتدوين النُّصوص؛ بغضِّ النَّظر عن أعراق المؤوِّلين أو أجناس المدوِّنين ولغاتهم ودِياناتهم، وتبيَّن لنا أنَّ دراسات فقه اللُّغة المقارن في العصر الحديث بعد وثيقة **وليام جونز** حول الأصول الهندو-أوروبِّيَّة بعثت علم الدَّلالة القديم، أو أدَّت إلىٰ زيادة الاهتمام به وازدهار علم الدَّلالة الحديث؛ لكنَّها أسفرت عن نتائج عنصريَّة أحيانًا، ودفعت بعض الباحثين في أحيان أخرىٰ إلىٰ القول بحداثة نشأة علم الدَّلالة، وأخذ كثير من الدَّارسين المعاصرين يردِّدون تلك الأحكام المتعجِّلة في كثير من المؤلَّفات الدَّلاليَّة المعاصرة علىٰ أنها مسلَّمات لا تقبل النَّقد أو النِّقاش.

أثبت البحث التَّأصيليُّ في ميدان علم الدَّلالة القديم أنَّ هذا العلم يحتوي علىٰ قضايا علم الدَّلالة الحديث كلِّها؛ كمسألة الاصطلاح علىٰ العلامات اللِّسانيَّة أو وَضْعِ دوالِّها ومدلولاتها والاهتمام بمراجعها وسياقاتها، وبدا ذلك جليًّا من خلال ترجمة الكتب والنُّصوص والوثائق المهمَّة من لغة إلىٰ أخرىٰ، مثلما تبيَّنت عناية علم الدَّلالة القديم بثنائيَّة المنطوق والمكتوب وتفريقه بينهما، واهتمامه بدراسة العلاقة بين شكل العلامة اللِّسانيَّة ومضمونها، وظهر لنا أنَّ معظم ما استشهدنا به في دراساتنا الدَّلاليَّة القديمة يقع

في حيِّز المكتوب من النُّصوص؛ وذلك لأنَّ مجمل النُّصوص والأناشيد المنطوقة القديمة ذهبت، وذهب قائلوها ومنشدوها أدراج الرِّياح.

تفرَّد **القرآن الكريم من بين مصادر علم الدَّلالة القديم**، الَّذي تعهَّد الله-سبحانه وتعالىٰ-بعنايته وحفظه في الصُّدور؛ فوصلَنا منقولًا بالتِّلاوة المتواترة عن رسولنا الكريم محمَّد-صلَّىٰ الله عليه وسلَّم-من مطلع القرن السَّابع الميلاديِّ إلىٰ وقتنا الرَّاهن. وحظي بعض من نصوص الأدب الشَّفويِّ وأناشيد التُّراث والفولكلور الشَّعبيَّين بشيء من الحفظ والرِّواية الشَّفويَّة، ولم يُضِرْها جهلُنا بأسماء مؤلِّفيها الأصليِّين، ومع ذلك تناقلتها الأجيال شفويًّا جيلًا بعد جيل حتَّىٰ وصلتنا علىٰ بصورتها الحاليَّة في عصرنا الرَّاهن، ولربَّما ترجع تلك النُّصوص إلىٰ مئات السِّنين، إن لم نقل: إنَّها ترجع إلىٰ آلاف السِّنين.

وبرغم معرفتنا بما تتعرَّض له نصوص الأدب الشَّفويِّ من تحويرات مستمرَّة علىٰ الدَّوام يمكن أن تصير هذه النُّصوص الشَّفويَّة في المستقبل مصدرًا مهمًّا من مصادر علم الدَّلالة القديم، لا سيَّما بعد تطوُّر آلات التَّسجيل وتقنيَّات الدِّراسة في ميدان علم الدَّلالة الحديث، ولعلَّنا سمعنا من أجدادنا كثيرًا من نصوص تراثنا القديم، مثلما نعثر في الشَّبكة العنكبوتيَّة الإلكترونيَّة علىٰ نصوص هذه الأغنيات والأهازيج مسجَّلة بالصَّوت أو الصَّوت والصُّورة

بأداء كثير من المغنِّين أو المنشدين بوصفها تراثًا شعبيًّا مثل (الموليَّا والدَّلعونا وأهازيج النِّساء في الأعراس وغيرها...[1].

[1] يُنظر: ديُّوب، سمر، **النَّصّ العابر (دراسات في الأدب العربيِّ القديم)**، منشورات اتِّحاد الكتَّاب العرب، ط١، دمشق ٢٠١٤م، ص ١٦١-١٦٣.

	الفصل الثَّالث علم الدَّلالة الأنثروبولوجيُّ (دراسة حيويَّة في خلق الإنسان ونشأة اللُّغة بين البيولوجيا والميثولوجيا)	١٣٤-١٥٨
١	من الأنثروبولوجيا الدَّلاليَّة إلىٰ علم الدَّلالة الأنثروبولوجيِّ	١٣٥-١٥٨
٢	بداية الكون	١٣٨-١٣٨
٣	خلق الإنسان بين الجغرافية والتَّاريخ (نشأة اللُّغة بين البيولوجيا والميثولوجيا)	١٣٨-١٤٥
٤	وعلَّم آدم...تأويل أنثروبولوجيٌّ جديد	١٤٥-١٥٣
٥	التَّطوُّر الدَّلاليُّ والتَّحوُّل الرَّمزيُّ من منظور أنثروبولوجيٍّ	١٥٣-١٥٥
٦	علم الدَّلالة الأنثروبولوجيُّ	١٥٥-١٥٧
٧	خاتمة الفصل ونتائجه	١٥٧-١٥٨

١ من الأنثروبولوجيا الدَّلاليَّة إلىٰ علم الدَّلالة الأنثروبولوجيِّ

يشكِّل البحث عن المعنىٰ هدف علم الدَّلالة الأبرز، ويعتمد هذا العلم علىٰ ثلاثيَّة: (الدَّالِّ والمدلول والمرجع)، الَّتي تعدُّ أركانه الأساسيَّة الثَّلاثة في عمليَّة التَّأويل؛ غير أنَّ علم الدَّلالة الأنثروبولوجيَّ تجاوز هذه الأثافي الثَّلاث في كثير من دراساته؛ ليضبط تحوُّلات المعنىٰ نظرًا لاختلاف المرجع واتِّساع الهوَّة الثَّقافيَّة بين المرسل والمتلقِّي بالإضافة إلىٰ اختلاف ثقافات المؤوِّلِين وتعدُّد طرائقهم في التَّأويل والبحث عن طبقات المعنىٰ وانزياحاته؛ لذلك استعان علماء الدَّلالة بالسِّياق لضبط الهوَّة الثَّقافيَّة الَّتي تؤدِّي دورًا مهمًّا في اختلاف المعنىٰ بين المرسل وهذا المتلقِّي أو ذاك، ثمَّ تأكَّد لدىٰ الباحثين أنَّ علم الدَّلالة ليس علمًا حديثًا؛ لا في نشأته، ولا في أسسه وأركانه وطرائق تأويله، وإنَّما هو علم قديم، يؤكِّد وجوده كثير من النُّقوش والوثائق والرُّقم والألواح والتَّرجمات والمؤلَّفات الأثريَّة والمكتبات القديمة، الَّتي تبرهن علىٰ عناية الشُّعوب القديمة بالدَّوالِّ والمدلولات وطرائق تأويل المعاني وترجمتها وتدوينها في وثائقها القديمة؛ لكنَّ البحث عن الدَّلالة في مؤلَّفات الشُّعوب القديمة يقود إلىٰ تساؤلات أخرىٰ ترتبط بالتَّأصيل لوجود الإنسان علىٰ سطح الأرض ونشأة لغته وبلبلة الألسن ثم اختراع الكتابة والتَّدوين وأسباب تحوُّلات المعنىٰ بين الملفوظ والمكتوب؛ وهذا ما يسعىٰ البحث إلىٰ الوقوف عنده والإضاءة علىٰ جوانبه المهمَّة.

تُعنىٰ الأنثروبولوجيا Anthrobology -بوصفها علمًا للإنسان أو الإناسة- بدراسة أصول البشر ولغاتهم وفنونهم وآدابهم وعاداتهم وتقاليدهم وثقافاتهم[١]؛ فتتقاطع بذلك مع جملة من العلوم اللِّسانيَّة Linguistics والأثريَّة Archeology والحيويَّة Vitality وعلم المستحاثَّات Paleontology وعلم الوراثة Genetics وعلم اللُّغة وفقه اللُّغة المقارن، الَّتي شكَّلت روافد الأنثروبولوجيا الدَّلاليَّة Anthropological Semantics الأساسيَّة بوصفها علمًا حديثًا يجمع بين خصائص العلوم الأنثروبولوجيَّة واللِّسانيَّة والحيويَّة، الَّتي تحلِّل هياكل عظميَّة ترجع لشعوب قديمة، وتدرس مستحاثَّاتها وفنونها وآدابها وآثارها ولغاتها، وتعمل علىٰ تأويل نصوصها ومدوَّناتها، مثلما تطمح الأنثروبولوجيا الدَّلاليَّة إلىٰ الاستفادة من الثَّورة التِّقنيَّة الحديثها لعلَّها تساعدها في إعادة تشكيل أصوات البشر القدماء أو مقاربتها وتقليدها لمقارنتها بالأصوات اللُّغويَّة الشَّائعة في لغات الشُّعوب المعاصرة علىٰ أقلِّ تقدير.

تطمح الأنثروبولوجيا الدَّلاليَّة بالوصول إلىٰ قراءة نقوش البشر ونصوصهم القديمة قراءة صحيحة بالطَّريقة الَّتي قرأها مدوِّنوها الأوائل؛ لأنَّ هذه النُّقوش المدوَّنة ملاذ الأنثروبولوجيا الدَّلاليَّة الأخير؛ للوقوف علىٰ ثقافات المجتمعات القديمة في ظلِّ اندثار أصوات الشُّعوب القديمة وتلاشي محادثاتها في الهواء منذ عهود قديمة؛ فاختراع الكتابة لم يسجِّل الأصوات

---

[١] سميث، شارلوت سيمور، **موسوعة علم الإنسان المفاهيم والمصطلحات الأنثروبولوجيَّة**، منشورات المركز القوميِّ للتَّرجمة، ط١، القاهرة، **٢٠٠٩**م.

والألفاظ القديمة وطرائق نطقها، وإنَّما خلَّد أحداثًا محدَّدة بعينها، واختزنَ ثقافات الشُّعوب القديمة وطرائق تفكيرها في ثنايا تلك النُّصوص المدوَّنة، وبقي علينا أن نقرأ تلك النُّصوص قراءة صحيحة، ونؤوِّلها تأويلًا دقيقًا؛ ولهذا كلِّه توجد هوَّة بين المقروء والمكتوب تتَّسع باتِّساع اختلاف قراءات النَّصِّ القديم، وتَتَعَدَّدُ بِتَعَدُّدِ تأويلاتِه.

وبرغم ذلك كلِّه عدَّ العلماءُ اختراع الكتابة حدثًا ثوريًّا نقل المجتمعات البشريَّة من العصور الحجريَّة القديمة إلىٰ العصور الوسطىٰ والحديثة، ووفَّر أدلَّة حيويَّة فكريَّة تكشف عن أفكار الشُّعوب القديمة ومعتقداتها، ولم يعد باستطاعة نقاط العلَّام التَّاريخيَّة السَّابقة أن تضاهي اختراع الكتابة في أهمِّيَّته؛ ولا سيَّما أنَّ خلق الكون وبدايته وخلق الإنسان ونشأة اللُّغة الأولىٰ -بوصفها أحداثًا تاريخيَّة مهمَّة للغاية- ما تزال مدار جدالات كثيرة بين العلماء والباحثين؛ ليتفوَّق اختراع الكتابة في أهمِّيَّته علىٰ كلٍّ من اكتشاف النَّار والثَّورة الذِّهنيَّة النِّيوليثيَّة والثَّورة الزِّراعيَّة وتداعيات الأزمة المالتوسيَّة برغم تأثيرها الواضح في حياة البشر ولغاتهم وفنونهم وآدابهم وعاداتهم وتقاليدهم وظواهرهم الاجتماعيَّة كلِّها؛ لذا يُعدُّ لِزامًا علينا أن ننطلق من بداية الكون أو من بداية وجود الإنسان علىٰ سطح الأرض وتنقُّله بين الجغرافية والتَّاريخ علىٰ أقلِّ تقدير.

٢ بداية الكون

تحظىٰ نظريَّة الانفجار العظيم بأهمِّيَّة كبيرة في الدِّراسات الحيويَّة من حيث إشارتها إلىٰ خلق الكون أو بدايته؛ حيث تقول هذه النَّظريَّة: إنَّ مجرَّات الكون وأفلاكه وكواكبه وعناصره وسائر أجرامه كانت كتلة واحدة؛ ثمَّ تباعدت هذه الأجرام بفعل الانفجار العظيم، ولا تجد الدِّراسات الميثولوجيَّة ضيرًا في التَّعبير عن اعتقادها أنَّ أمر الخلق الرَّبَّانيَّ: (كن فيكون)، هو الَّذي أحدث هذا الانفجار العظيم؛ لتتباعد بعد ذلك المجرَّات، وتدور النُّجوم والأقمار والمجموعات الكوكبيَّة في أفلاك وأنظمة محدَّدة؛ حيث يشير القرآن الكريم إلىٰ السَّماوات والأرض بوصفهما كتلة واحدة أو جزءًا واحدًا من الكون قبل تباعد مجرَّاته وانفصال بعض نجومه ومجموعاته الكوكبيَّة عن بعضها الآخر بأمر الله سبحانه وتعالىٰ، فقد قال عزَّ وجلَّ: **(أولم ير الَّذين كفروا أنَّ السَّماوات والأرض كانتا رتقًا ففتقناهما وجعلنا من الماء كلَّ شيء حيٍّ أفلا يؤمنون)** [1].

٣ خَلْقُ الإنسان بين الجغرافية والتَّاريخ (نشأة اللُّغة بين البيولوجيا والميثولوجيا)

تشكِّل المجموعة الشَّمسيَّة الَّتي ينتمي إليها كوكب الأرض واحدة من أهمِّ المجموعات الكوكبيَّة في هذا الكون الشَّاسع؛ وذلك لأنَّ الإنسان الَّذي ندرس لغاته وفنون وآدابه وآثاره في الأنثروبولوجيا الدَّلاليَّة يعيش علىٰ

---

[1] سورة الأنبياء، الآية ٢٠.

سطح الأرض، وتشير الدِّراسات الجيولوجيَّة والجغرافيَّة والتَّاريخيَّة إلىٰ تحوُّلات كبيرة طرأت علىٰ شكل الأرض وأنظمتها البيئيَّة والحيويَّة والتَّاريخيَّة والجغرافيَّة والمناخيَّة عبر الزَّمن؛ فقد تغيَّرت توزُّعات المياه واليابسة علىٰ سطح المعمورة، مثلما تغيَّرت أشكال البحار والمضائق والقارَّات ودرجات الحرارة والبرودة وأشكال المناخ وأنواع الغطاء النَّباتيِّ والثَّروة الحيوانيَّة؛ ممَّا أثَّر في وجود الإنسان وغذائه وهجراته واستقراره في هذه الجغرافية أو تلك قبل أن يبدأ في صناعة الحضارة أو تدوين التَّاريخ، ولا نعدم أيضًا مَن يربط خصائص الشُّعوب الشَّكليَّة والوراثيَّة وقدراتها العقليَّة وطرائق تفكيرها بغذائها السَّائد وسياقها الزَّمكانيِّ، الَّذي تعيش فيه، والَّذي سيؤثِّر- نتيجة لذلك-في ذكاء الأجيال الجديدة وخصائصها الشَّكليَّة والفكريَّة ومناعتها ومعدَّلات أعمارها أيضًا[١].

ولعلَّه من المُسَلَّمات في البحوث الحضاريَّة أنَّه لا تاريخ دون الجغرافية، ولا أهمِّيَّة للجغرافية إن لم يتسوطنها الإنسان، ويصنع فيها تاريخًا مشرقًا، والحقُّ أنَّ الإنسان لا يستوطن في هذه البيئة الجغرافيَّة أو تلك ما لم تتوفَّر له فيها حاجاته الأساسيَّة كالأكل والشُّرب والأمن والسَّلام؛ كي يشعر بالتَّوازن والاستقرار النَّفسيِّ الضَّروريِّ للانتقال من مرحلة البحث عن الحاجات الضَّروريَّة للحياة إلىٰ مرحلة الإنتاج الحضاريِّ؛ لذلك كلِّه يحظىٰ السِّياق الزَّمكانيُّ بأهمِّيَّة كبيرة في البحوث الدَّلاليَّة والأنثروبولوجيَّة (الشَّفويَّة

---

[١] **يُنظر**: رانغهام، ريتشارد، **قدحة نار (دور الطَّهي في تطوُّر الإنسان)**، ترجمة: فلاح رحيم، منشورات هيئة أبو ظبي للثَّقافة والتُّراث (كلمة)، ط١، أبو ظبي ٢٠١٠م، ص ١٠ من مقدِّمة التَّرجمة العربيَّة.

والمكتوبة) لمعرفة مدىٰ تأثيرها في خصائص الإنسان الَّذي أنتج تلك النُّصوص والوقوف عند تحوُّلاتها الدَّلاليَّة بين سياق حضاريٍّ وآخر، وقد أشار علماء الوراثة واللُّغة إلىٰ تأثير البيئة في خصائص سكَّانها الشَّكليَّة والفكريَّة معًا، وأكَّدوا أنَّ المجتمعات الَّتي يقلُّ عدد أفرادها عن **١٥٠** فردًا لا تسطيع الصُّمود عبر الزَّمن من خلال تزاوج أفرادها وتشكيلهم مجتمعات أو بؤرًا جينيَّة خالية من الأمراض الوراثيَّة، الَّتي تهدِّد بانقراض النَّوع البشريِّ في هذا الحيِّز الزَّمكانيِّ أو ذاك، ولعلَّ هذه الفكرة ترتبط بمعنىٰ قوله سبحانه وتعالىٰ في سورة الحجرات: «**يا أيُّها النَّاس إنَّا خلقناكم من ذكر وأنثىٰ وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم إنَّ الله عليم حكيم**»[١].

تؤكِّد الدِّراسات الجيولوجيَّة أنَّ الأرض ومناخها تعرَّضا لتغيُّرات شكليَّة ومناخيَّة كثيرة؛ أثَّرت في وجود البشر وخصائصهم وانتشارهم وهجراتهم؛ فقد غطَّت المياه المتجمِّدة سطح الأرض عندما كانت درجات الحرارة منخفضة إلىٰ حدٍّ كبير في العصور الجليديَّة؛ ثمَّ راحت درجات الحرارة ترتفع شيئًا فشيئًا؛ حتَّىٰ ذاب الجليد، وظهرت أولىٰ الجزر القارِّيَّة علىٰ سطح المعمورة، وبدأت أشكال الحياة البشريَّة والحيوانيَّة والنَّباتيَّة علىٰ هذه الجزيرة أيضًا، ولا نستبعد أن يكون انحسار الماء عن الجزيرة العربيَّة وأثيوبيا وكينيا وتنزانيا[٢] قد حدث في زمنين قديمين متقاربين نظرًا لتشابههما في

---

[١] **سورة الحجرات**، الآية **١٣**.

[٢] يُنظر: حجاج، كلود، **إنسان الكلام (مساهمة لسانيَّة في العلوم الإنسانيَّة)**، ترجمة: رضوان ظاظا، مراجعة: مصباح الصَّمد، بسَّام بركة، المنظَّمة العربيَّة للتَّرجمة، ط١، بيروت **٢٠٠٣**.م، ص **٢٠**.

التَّصحُّر في وقتنا الرَّاهن؛ ومن الوارد جدًّا أنَّ ذوبان الجبال الجليديَّة في البحار والمحيطات المجاورة لتلك الجزر القديمة قد تسبَّب في طوفان نوح الَّذي تتحدَّث عنه الكتب السَّماويَّة والأساطير المتعدِّدة في الميثولوجيا القديمة.

يشير القرآن الكريم إلىٰ نبيِّ الله آدم-عليه السَّلام-بوصفه أبًا للبشر والأنبياء، ويعطينا قانون الجمع علىٰ التَّواريخ[1] عمرًا تقريبيًّا لوجود البشر علىٰ سطح المعمورة بالاستناد إلىٰ النُّصوص الدِّينيَّة الواردة في كتب الرِّسالات السَّماويَّة الثَّلاث وبعض من الأساطير والوثائق والمدوَّنات القديمة؛ حيث يتراوح عمر الإنسان علىٰ سطح الأرض-بحسب نظريَّة الجمع علىٰ التَّواريخ وأشهر الآراء الدِّينيَّة شيوعًا-بين **١٠** آلاف و**١٥** ألف سنة تقريبًا، غير أنَّ علم الأناسة يؤكِّد علىٰ وجود أنواع بشريَّة أخرىٰ أقدم من ذلك بكثير؛ كإنسان النِّياندرتال، الَّذي انقرض قبل **٣٠** ألف سنة تقريبًا، ويعتقد علماء الأنثروبولوجيا بوجود هوَّة سحيقة بين ظهور الجنس البشريِّ علىٰ سطح الأرض من جانب والتَّأريخ لهذا الظُّهور من جانب آخر؛ «وبالتَّالي فأيُّ محاولة لتأريخ لحظة ظهور الإنسان علىٰ الأرض بدقَّة هي محاولة لا تقوم إلَّا علىٰ الفرضيَّات، وبالمقابل، تقدِّم أحدث الدِّراسات الأنثروبولوجيَّة حججًا تدعم

---

[1] تقوم نظريَّة الجمع علىٰ التَّواريخ بجمع أعمار الأنبياء والملوك والمشاهير الواردة أسماؤهم في الكتب المقدَّسة والأساطير والوثائق والمدوَّنات القديمة؛ لترتِّب تلك الأعمار وتجمعها وتضعها في سياقها التَّاريخيِّ، وتنبني منها تصوُّرًا حول بداية وجود الإنسان علىٰ الأرض، وتتنبَّه إلىٰ وضع هوامش زمنيَّة قد تزود أو تنقص قليلًا؛ بمعنىٰ أنَّ نظريَّة الجمع علىٰ التَّواريخ تعطينا تصوُّرًا جيِّدًا عن التَّاريخ، لكنَّه يحتمل الزِّيادة أو النُّقصان قليلًا.

السِّيناريو ما قبل التَّاريخيِّ، الَّذي يمكن تحديد مراحله وإن بصورة تقريبيَّة. فمنذ أربعة إلىٰ خمسة ملايين سنة بدأ من يمثِّلون الجنس البشريَّ (Homo) بالتَّميُّز عن إنسان أفريقيا الجنوبيَّة القديم (Australopithecus) الَّذي لم ينقرض مع ذلك، وبقي يعيش زمنًا طويلًا إلىٰ جانب المتحدِّرين منه. ثمَّ ظهر جنس الإنسان الماهر (homo habilis) عبر مجموعة من المراحل تمتدُّ إلىٰ بضعة ملايين من السِّنين. ويمكن تحديد فترة ظهوره قبل حوالي ٢٢٠٠٠٠٠ سنة؛ أي بين العصر البليو-بلستوسينيِّ (وهذا العصر نفسه يقع بين العصر الثَّالث والعصر الرَّابع من تاريخ الأرض) والعصر البلستوسينيِّ الحديث. ولقد انطلقتْ، منذ جنس الإنسان الماهر، حركة توسُّع بطيئة وذات اتِّجاه واحد كانت بمثابة مغامرة مذهلة يُعتبر الإنسان الحديث اليوم محصِّلتها، بانتظار نتائج أخرىٰ سنأتي بعد ملايين عدَّة من السِّنين القادمة قد يحلو للخيال تصوُّرها بينما يعجز العلم عن التَّكهُّن بها»[١].

يبدو أنَّ خيرات الأرض وجنائنها من نخيل وأعناب كانت وفيرة بعد ذوبان الجليد وانحساره عن أفريقيا والجزيرة العربيَّة إلىٰ حدٍّ يذكِّرنا بوصف الجنائن القديمة في مدوَّنات الحضارات القديمة في (دلمون/ البحرين) و(بابل/ العراق) أو جنَّة الفردوس في القرآن الكريم، ويمكن التَّوفيق بين النَّظريَّة الدِّينيَّة (الميثولوجيَّة/ الأسطوريَّة) الَّتي تؤكِّد علىٰ خلق البشر من الطِّين أو الصَّلصال أو الحمأ المسنون من ناحية أولىٰ والنَّظريَّات الحيويَّة أو

---

[١] إنسان الكلام، ص ١٩.

التَّطوُّريَّة الَّتي تربط بين نشأة الإنسان في مراحل تاريخيَّة قديمة جدًّا من عمر الأرض، ولن نبعد عن المنطق-من ناحية ثانية-لو ذهبنا نوفِّق بين النَّظريَّة الدِّينيَّة الَّتي تفسِّر خروج آدم وحوَّاء-عليهما السَّلام-من الجنَّة، وتعلِّل تيه البشر وهجراتهم في الأرض بقلَّة خيراتها وصراعهم علىٰ مواردها الطَّبيعيَّة بعد الهبوط من الجنَّة أو الرَّحيل عن نعيمها والنَّظريَّة اللِّيبراليَّة المتحرِّرة الَّتي تقدِّم تأريخًا موجزًا لحياة البشر علىٰ هدي من النَّظريَّات الاقتصاديَّة، الَّتي ترىٰ أنَّ أعداد المجموعات البشريَّة كانت قليلة في الجُزُر الَّتي ظهر فيها بنو الإنسان أو استوطنوها، ثمَّ راح البشر يتكاثرون في هذه الجُزُر؛ ممَّا جعل العَرْضَ من خيراتها دون مستوىٰ الطَّلب من حاجات سكَّانها من البشر الصَّائدين الجامعين؛ فراحت تلك المجموعات تنقسم؛ حيث يستقرُّ قسم في مكانه، ويهاجر قسم آخر إلىٰ مكان أبعد، حتَّىٰ استوطن البشر أرجاء المعمورة كلَّها، فلم تعد بذلك الهجرة حلًّا مثاليًّا؛ ولذلك راحت الجماعات البشريَّة تتصارع علىٰ موارد العيش حينًا، وتلجأ إلىٰ اختراع أدوات الصَّيد حينًا آخر، ولا سيَّما تلك الأدوات الَّتي ساعدت البشر علىٰ اصطياد الطُّيور والحيوانات من ناحية؛ لكنَّها أدَّت إلىٰ انقراض بعض الأنواع، وزادت الجوع والطَّلب علىٰ مصادر الرِّزق في ظلِّ انخفاض العرض من ناحية أخرىٰ.

ظلَّت تَبِعات الحروب تؤثِّر سلبًا في استقرار المجموعات المتحاربة، حتَّىٰ اهتدىٰ بنو البشر إلىٰ ثورتهم الزِّراعيَّة الَّتي دجَّنوا فيها القمح، وتحوَّلوا بعدها من حياة الجمع والصَّيد إلىٰ حياة الزِّراعة والفلاحة والممالك والدُّول، الَّتي أنتجت معظم الحضارات الإنسانيَّة القديمة، أو أسهمت في إنتاجها،

وقادت إلىٰ اختراع الكتابة بعد الثَّورة الزِّراعيَّة، الَّتي سبقها كلٌّ من اكتشاف النَّار والثَّورة الذِّهنيَّة أو النِّيوليثيَّة، الَّتي يربطها العلماء بتطوُّرات ملحوظة طرأت علىٰ جمجمة إنسان الكلام العاقل، ولا سيَّما من ناحية النُّموِّ الواضح في منطقة بروكا الصَّدغيَّة Bruca المسؤولة عن تعلِّم اللُّغة، ويفسِّرون تلك التَّطوُّرات بطفرة جينيَّة حينًا، وبأسباب مجهولة حينًا آخر، ولعلَّنا نجد في العودة إلىٰ قوله تعالىٰ: «**يا أيُّها النّاس إنَّا خلقناكم من ذكر وأنثىٰ وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم إنَّ الله عليم حكيم**»[1] ما يفسِّر أسباب تلك التَّطوُّرات الجينيَّة أو الطَّفرات الوراثيَّة بالتَّزاوج بين أقوام من أصول مختلفة أو جزر بشريَّة متباعدة؛ لينفتح الأفق علىٰ تأويل مفهوم التَّعارف من خلال ارتباطه الكبير بكلٍّ من نظريَّة المعرفة وظهور مَلَكَة اللُّغة وتطوُّرها لدىٰ أجيال البشر الجديدة.

تميل العلوم الحيويَّة والنَّظريَّة التَّطوُّريَّة إلىٰ التَّفسير الجينيِّ أو الطَّفرة الوراثيَّة لتعليل ظهور منطقة بروكا وتفسير نموِّ الصَّدغين لدىٰ الأجيال البشريَّة الجديدة بعد تعارف الشُّعوب وتزاوج القبائل نتيجة الهجرات المستمرَّة؛ وفي هَذْيٍ من تلك التَّفسيرات الحيويَّة نستطيع أن نفهم ظهور الأجيال البشريَّة الجديدة، الَّتي تمتلك الاستعدادين: الفطريِّ والحيويِّ لتعلُّم اللُّغة، الَّتي ستسطيع الأجيال البشريَّة الجديدة من خلالها القيام بعمليَّات ذهنيَّة وتواصليَّة معقَّدة، لم تكن أنواع الإنسان الأخرىٰ -كالنِّياندرتال مثلًا- قادرة علىٰ القيام

[1] **سورة الحجرات**، الآية **١٣**.

بمثلها؛ ممَّا مكَّنها من التَّفوُّق عليها، والشُّروع بالسَّيطرة علىٰ المجال الحيويِّ الَّذي راح يشغله إنسان الكلام بعدما «أخذت التَّمتمات الأولىٰ، المشفَّرة إلىٰ حدٍّ ما، بالتَّطوُّر والتَّحسُّن أكثر فأكثر وبالتَّشكُّل في وحداتٍ منتظمة. وتوسَّعت قائمتها باطِّراد مع اغتناء قدرة التَّرميز بتلك الملكة الخاصَّة المتعلِّقة بتحويل الفكر إلىٰ علامات منتظمة [يُعبَّر عنها] عنها بتركيبات صوتيَّة. إلَّا أنَّ مثل هذا التَّطوُّر يفترض هو ذاته انقضاء زمن طويل، فهو لم يبلغ مستوىٰ الألسنة البشريَّة، بالمعنىٰ المعاصر للكلمة، إلَّا بعد الهجرات الكبرىٰ. وبذلك تكون تلك الصَّيرورة قد جرت، علىٰ أغلب الظَّنِّ، في عدد كبير من الأماكن المختلفة. لقد تنوَّعت الظَّواهر الصَّوتيَّة الَّتي نتجت عنها مع تنوِّع المحيط البيئيِّ والطَّبيعة وأصواتها والنَّباتات والحيوانات، كما تنوَّعت أولىٰ بوادر التَّنظيم الاجتماعيِّ في كلِّ وحدة معيشيَّة حيَّة (مجموعة من الكائنات المرتبطة ببعضها البعض)، وبالتَّالي تنوَّعت اللُّغات الأولىٰ نفسها. فالعلاقة وثيقة، منذ البداية، بين هذه اللُّغات وتلك التَّنظيمات الاجتماعيَّة»[1].

٤ وعلَّم آدمَ....تأويل أنثروبولوجيٌّ جديد

يبدو أنَّ مفهوم **(التَّعارف)** في قوله تعالىٰ: «**يا أيُّها النّاس إنَّا خلقناكم من ذكر وأنثىٰ وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم إنَّ الله عليم حكيم**»[2]يرتبط بدلالات كلٍّ من: **(علَّم والتَّعليم والتَّعلُّم ونظريَّة**

---

[1] **إنسان الكلام**، ص **٢٥**.

[2] **سورة الحجرات**، الآية **١٣**.

المعرفة كلِّها)، ولا ينفصل عنها في قوله تعالىٰ: «**وعلَّم آدم الأسماء كلَّها ثمَّ عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين**» [(١)]؛ فقد ربط المفسِّرون بين **(علَّم)** في هذه الآية الكريمة ودلالات الوحي وإلهام اللُّغة وتلقينها؛ غير أنَّ البحث العلميَّ يعطينا مشروعيَّة تقليب الآراء والمعاني علىٰ وجوهها المتعدِّدة؛ لإظهار ما قد يخفىٰ من احتمالات دلاليَّة أخرىٰ؛ فقد كان عمر بن الخطَّاب (٥٨٤-٦٤٤م)-رضي الله عنه-يخطب مرَّة؛ فخفي عليه معنىٰ (الأبِّ) في قوله تعالىٰ: (وفاكهةً وأبًّا) [(٢)]؛ "فسأل عنها، كما استفسر ابن عبَّاس (٦١٩-٦٨٧م)-رضي الله عنه-عن معنىٰ (فاطر) في قوله تعالىٰ: «**الحمد لله فاطر السَّموات والأرض جاعل الملائكة رسلًا أولي أجنحة مثنىٰ وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إنَّ الله علىٰ كلِّ شيء قدير**» [(٣)]؛ ممَّا يفتح المجال لمقارنة بعض التَّأويلات ببعضها الآخر، ولا سيَّما أنَّ بعضًا من الآيات القرآنيَّة فُسِّرت بأكثر من تأويل أو معنىٰ، ولعلَّ هذه التَّأويلات المتعدِّدة من أشهر أسباب التَّضادِّ شيوعًا وأكثرها انتشارًا في لغتنا العربيَّة؛ وممَّا يُفسَّر من القرآن الكريم تفسيرين متضادَّين قول الله عزَّ وجلَّ: «**وأصبح فؤاد أمِّ موسىٰ فارغًا إن كادت لَتُبدي به لولا أن ربطنا علىٰ قلبها لتكون من المؤمنين**» [(٤)]؛ حيث يرىٰ

---

(١) **سورة البقرة**، الآية ٢١.

(٢) **سورة عبس**، الآية ٣١.

(٣) **سورة فاطر**، الآية ١، ويُنظر: يعقوب، إميل، **المعاجم اللُّغويَّة العربيَّة بداءتها وتطوُّرها**، دار العلم للملايين، ط١، بيروت، ١٩٨١م، ص ٢٥.

(٤) **سورة القصص**، الآية ١٠.

المفسِّرون أنَّ (**الفراغ، فارغًا**) في الآية الكريمة يشير إلىٰ أنَّ فؤاد أمِّ موسىٰ أصبح «فارغًا من كلِّ همٍّ إلَّا من الاهتمام بموسىٰ والإشفاق عليه وإن كادت لتبدي باسمه، فتقول: هو ابني. وقال بعض أهل اللُّغة: معنىٰ الآية وأصبح فؤاد أمِّ موسىٰ فارغًا من الحزن لعلمها بأنَّ موسىٰ لم يقتل، إذ كان الله عزَّ وجل قد أوحىٰ إليها أنَّه سيردُّه عليها ويجعله من المرسلين إن كادت لتبدي به، أي بذهاب الحزن»[1].

يرتبط النُّطق بجملة من العمليَّات الإدراكيَّة الأخرىٰ؛ كالقدرة علىٰ الفهم والتَّذكُّر والحفظ والتِّكرار والتَّقليد، ويُعدُّ تكلُّم الطِّفل في مراحل عمريَّة مبكِّرة مؤشِّرًا مهمًّا من مؤشِّرات الذِّكاء بأنواعه المتعدِّدة، ولا سيَّما الذَّكاء اللُّغويُّ، وفقًا لنظريَّة الذَّكاءات المتعدِّدة، وفي كثير من الأحيان يرتبط فقدان النُّطق لدىٰ إنسان ما نتيجة لمرض أو حدث عارض بخلل في العمليَّات الإدراكيَّة الأخرىٰ؛ كالانتباه والتَّذكُّر وغيرهما؛ نظرًا لتداخل تلك العمليَّات أو تعالقها، وهذا يدفعنا نحو إعادة التّأمّل الدَّلاليّ في قوله تعالىٰ: «**وعلَّم آدم الأسماء كلَّها ثمَّ عرضهم علىٰ الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين**»[2]؛ حيث يبدو التَّعليم في هذه الآية الكريمة محتاجًا قبل كلِّ شيء لملكاته ولوازمه؛ وهذا يعني أنَّ الله –سبحانه وتعالىٰ– منح آدم –عليه السَّلام– شيفرة Code المحاكاة، أو وهبه مَلَكة الكلام، أو ميَّزه من أنواع البشر

[1] السَّامرَّائيُّ، إبراهيم، **التَّطوُّر اللُّغويُّ التَّاريخيُّ**، دار الأندلس، ط٢، بيروت، ١٩٨١م، ص١٠٦.

[2] **سورة البقرة**، الآية ٢١.

الآخرين باتِّساع منطقة التَّذكُّر والتَّعلُّم والتَّكلُّم ونشاطها في دماغه، ولعلَّ هذا لا يتعارض مع النَّظريَّة البيولوجيَّة التَّطوُّريَّة، الَّتي تُرجِع هذه العلميَّات الذِّهنيَّة الإدراكيَّة إلىٰ منطقة بروكا، الَّتي نشأت بفعل التَّطوُّر أو الطَّفرة الوراثيَّة وفقًا لتفسيرهم، ونتجت عن التَّزاوج بين شعوب وقبائل من مناطق جغرافيَّة متباعدة بعد تواصلهم نتيجة الهجرات الكبرىٰ وفقًا لتأويلنا التَّوفيقيِّ بين النَّظريَّات البيولوجيَّة التَّطوُّريَّة والنَّظريَّات الدِّينيَّة (الميثولوجيَّة والأسطوريَّة) الَّتي ترىٰ أنَّ تعليم الله-عزَّ وجلَّ-آدمَ الأسماءَ تعليمًا إلهاميًّا توقيفيًّا؛ ولعلَّ تعطُّل منطقة بروكا أو تعرُّضها لأيِّ خلل يؤثِّر في حفظ الشِّيفرات اللُّغويَّة أو تذكُّرها أو نطقها، ولعلَّ الخلل النُّطقيَّ أو اللُّغويَّ النَّاتج عن خلل في منطقة بروكا دليل آخر علىٰ أنَّ لفظة (**علَّم**) في الآية الكريمة جاءت بمعنىٰ: (خلقِ كلِّ ما يحتاجه إنسان الكلام وزرعه في عقله وتنشيطه في ذاكرته وتفعيله فيها)، وقد ذهب الدُّكتور عبد الصَّبور شاهين إلىٰ ما يشبه هذا التَّأويل حين راح يفسِّر قوله تعالىٰ: «**الرَّحمن، علَّم القرآن، خلق الإنسان، علَّمه البيان**»[1]؛ حيث رأىٰ أنَّ المراد الأصليَّ من تعليم الله-سبحانه وتعالىٰ-الإنسانَ البيان بعد خلقه «هو أنَّه علَّمه اللُّغة الَّتي يُبين بها عمَّا في نفسه، بما يشمل المستويات الرَّفيعة في البيان، من حيث كونه ظاهرة إنسانيَّة راقية يتميَّز بها عن سائر الكائنا»[2]، وطبيعيٌّ أن يحتاج اكتساب المعرفة عمومًا، وتعليم اللُّغة علىٰ وجه التَّحديد، إلىٰ ملكات ولوازم قبل الشُّروع باكتساب اللُّغة أو تعليمها المعرفة وتعلُّمها.

---

[1] **سورة الرَّحمن**، الآيات ١-٤.

[2] شاهين، عبد الصَّبور، في **علم اللُّغة العامُّ**، منشورات جامعة حلب، ط١، حلب **١٩٨١**.م، ص **٢٧**.

وما التَّلعثم أو انعقاد اللِّسان[1] في بعض الحالات من الخوف إلَّا شلل أو جمود أو توقُّفٌ مفاجئ لنشاط منطقة بروكا وغياب فاعليَّة شيفرات الكلام في الدِّماغ، فقد حاول بعض الأطبَّاء «الرَّبط بين عمليَّة النُّطق وعمليَّة الفهم بملاحظة بعض الأمراض أو الإصابات الَّتي تعتري المخَّ الإنسانيَّ. وتمَّت لهم علىٰ إثر الحروب حالات خاصَّة من المصابين في أجزاء المخِّ ونواحيه. من هؤلاء المصابين من فقد القدرة علىٰ النُّطق، وبقيت له القدرة علىٰ الفهم، ومنهم من فقد كلَّ ما حفظه من ألفاظ لغته طول حياته من قبل، ومنهم من يتلعثم في نطقه، أو يفأفئ، أو يتأتئ في كلامه، ومنهم من يفهم الألفاظ ولكنَّه لا يرتِّبها التَّرتيب المألوف حين يتكلَّم. إلىٰ غير ذلك من حالات كثيرة حاولوا عن طريقها أن يبيِّنوا لنا اختصاص كلِّ منطقة من مناطق المخِّ الإنسانيِّ بعمليَّة معيَّنة من عمليَّات الفهم والإفهام. ولكنَّهم مع هذا أو رغم ما بذلوه في هذا من تجارب ومشاهدات لم يصلوا إلىٰ رأي قاطع في بحث الصِّلة بين الألفاظ ومدلولاتها، أو ما تثيره في الأذهان من عمليَّات نسمِّيها الفهم مرَّة، والتَّفكير مرَّة أخرىٰ»[2].

ويبقىٰ إدراك مَن يعاني من أيِّ خلل في منطقة بروكا قاصرًا من حيث القدرة علىٰ تعلُّم شفيرات الكلام أو تقليدها وتذكُّرها ونطقها والتَّميُّز في مهارات الفصاحة والطَّلاقة اللُّغويَّة، ويمكننا أن نستشهد بخَرَس الأصمِّ الَّذي

---

[1] يُنظر: كشَّاش، محمَّد، **علل اللِّسان وأمراض اللُّغة وانعكاساتها الاجتماعيَّة**، دار العلم للملايين، ط١، دمشق، بدون تاريخ، ص٢٨-٤٢.

[2] أنيس، إبراهيم، **دلالة الألفاظ**، مكتبة الأنجلوالمصريَّة، ط٣، القاهرة ١٩٧٢.م، ص ٥٩.

حُرِم ملكة السَّمع، الَّتي تغذِّي بدورها منطقة بروكا، وتُزوِّدها بشيفرات لسانيَّة؛ لتحتفظ بها، وتقلِّدها، وتحاكيها، وتستدعيها أثناء النُّطق؛ ولذلك عُدَّ السَّمع أبا الملكات الحسِّيَّة، ومن المعروف أنَّ المحاكاة لا تنجم إلَّا بعد السَّماع؛ لذلك يظلُّ «إدراك الأصمِّ مولدًا أدنىٰ كثيرًا من إدراك السَّامع، فإدراكه للأمور إدراك ناقص، ومع هذا لا يتمُّ له هذا الإدراك النَّاقص إلَّا عن طريق رموز أخرىٰ تحلُّ محلَّ الرُّموز الصَّوتيَّة كالإشارة ونحوها»[1].

تتطلَّب دلالات **(العلم والتَّعليم والتَّعلُّم والمعرفة والتَّعارف)** في الآيات السَّابقة وجود مستلزماتها وأدواتها؛ كالسَّمع واللِّسان ومنطقة بروكا في دماغ إنسان الكلام؛ ليمكَّن من خلالها من سماع الأصوات والشِّيفرات اللُّغويَّة الَّتي تتركَّب منها الأحاديث؛ لتخزينها ومحاكاتها وتقليدها ونطقها والقياس عليها واستدعائها والطَّلاقة في أدائها خلال الأحاديث التَّواصليَّة؛ بطريقة تشبه تعلُّم بعض الطُّيور الطَّيران من آبائها، وعجز فئات أخرىٰ من الطُّيور عن تعلُّم الطَّيران برغم امتلاكها شكلًا يشبه أشكال الطُّيور وريشًا وأجنحة مثل ريشها وأجنحتها؛ نظرًا لوجود ملكة الطَّيران والاستعداد البيولوجيِّ لدىٰ طيور الفئة الأولىٰ، ونقصه لدىٰ طيور الفئة الثَّانية، ولعلَّنا بهذا التَّسويغ نفهم كيف ألهم الله إنسان الكلام مبدأ المحاكاة اللُّغويِّ، أو كيف علَّمنا إيَّاه، أو منح أبانا آدم-عليه السَّلام-لوازمه واستعداداته في أجسادنا وشيفراتنا الوراثيَّة، فتعلَّمنا لغتنا الأمَّ عن طريق آبائنا، ثمَّ أصبحنا ثرثارين،

---

[1] دلالة الألفاظ، ص ٧٣.

وصار بعضنا شعراء أو روائيِّين أو أدباء مبدعين، يبتدعون الكلام الجديد أو ينظمونه أكثر ممَّا يستهلكون كلام الآباء القدماء؛ ليصدق عليهم قول القائل: (لا تعطني سمكة ولكن علِّمني كيف أصيد).

يدخل الاستعداد الفطريُّ للمحاكاة ضمن مستلزمات التَّعليم والتَّعلُّم والتَّعارف الَّتي ذكرتها الآيات القرآنيَّة؛ إذ تعدُّ القدرة علىٰ التَّقليد والمحاكاة والقياس من أساسيَّات التَّعليم والتَّعلُّم والتَّعارف واكتساب أنواع المعرفة المتعدِّدة، ولا سيَّما ميدان التَّواصل اللُّغويِّ، الَّذي يحظىٰ فيه تقليد الأصوات وقراءة الشِّيفرات اللُّغويَّة قراءة سليمة بأهمِّيَّة بالغة في اكتساب اللُّغة في المرحلة الأولىٰ من مراحل وجود الطِّفل أو منذ تشكُّل مجموعات إنسان الكلام الأولىٰ والانطلاق نحو انقسامها إلىٰ مجموعات متعدِّدة؛ استقرَّ بعضها في مكان ما، وهاجر بعضها الآخر إلىٰ أمكنة أخرىٰ؛ تحقيقًا لغاية التَّعارف الَّتي خلق الله البشر، وجعلهم شعوبًا وقبائل من أجلها، وهكذا يبدو الحديث عن الهجرات التَّاريخيَّة الكبرىٰ بوصفها نوعًا من الحتميَّة الأنثروبولوجيَّة الَّتي أنتجت اللُّغة بعد انتشار تلك الشُّعوب والقبائل في مناطق متعدِّدة من الأرض وتعارفِ بعضها الأوَّل علىٰ بعضها الآخر بعد تلاقيها وتزاوجها في دروب هجراتها المختلفة بعد زمن طويل من الهجرات والحروب والاختراعات، الَّتي تضمَّنت قيام أفراد من تلك الجماعات بمحاكاة أصوات الطَّبيعة، واستيراد أصوات الشُّعوب الأخرىٰ ومفرداتها أو تقليدها أو القياس علىٰ منطقها اللُّغويِّ أيضًا، ثمَّ أنتجت كلُّ مجموعة من الأجيال الجديدة بعد تزاوج القبائل المتعدِّدة وتعارفها فلسفتَها اللُّغويَّة الخاصَّة بها، الَّتي تفسِّر أسباب إطلاق هذه المجموعة

رموزها اللُّغويَّة ودوالِّها الصَّوتيَّة الخاصَّة بها علىٰ مدلولات تسمِّيها الجماعات اللُّغويَّة الأخرىٰ بأسماء متعدِّدة، قد تتشابه معها حينًا، وتختلف عنها أحيانًا أخرىٰ. ولعلَّنا نجد في ألفاظ محاكاة أصوات الطَّبيعة في كثير من اللُّغات ما يؤيِّد هذا المذهب اللُّغويَّ، ناهيك عن اشتراك كثير من اللُّغات القديمة والحديثة ببعض من الضَّمائر وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة وأسماء الجسد البشريِّ ممَّا يعرف بقلب اللُّغة[1] الَّذي يحافظ علىٰ نسبة عالية من الثَّبات، ويصمد أمام أشكال التَّطوُّر الدَّلاليِّ والتَّحوُّل الرَّمزيِّ المتعدِّدة، ولا سيَّما في اللُّغات الَّتي يضعها العلماء في أرومة واحدة مثلما نجده من تقاطعات بين العربيَّة والعبريَّة أو غيرهما من لغات الأرومة الشَّرقيَّة أو شجرة اللُّغات السَّاميَّة[2].

ويتَّضح ممَّا قدَّمناه أنَّ هذا التَّأويل يوفِّق بين نظريَّتي: التَّطوُّر البيولوجيِّ والطَّفرة الوراثيَّة وقول النَّظريَّات الميثولوجيَّة بتوقيفيَّة اللُّغة؛ فقد يكون التَّزاوج بين بشر من طين متعدِّد أو بيئات مختلفة بعد التقاء أفرادها بسبب الهجرات المتكرِّرة من أوجَهِ التَّفسيرات العلميَّة، الَّتي لا تتعارض مع نظريَّة اكتساب اللُّغة في الدِّين الإسلاميِّ أو الميثولوجيا العبريَّة أيضًا؛ فقد «زعم العبرانيُّون أنَّ اللُّغة العبرانيَّة هي اللُّغة الأولىٰ، وأنَّ الله علَّم آدم -[عليه السَّلام]- هذه اللُّغة الشَّريفة، وهم يبنون دعواهم هذه علىٰ ما جاء في الإصحاح الثَّاني من سفر التَّكوين: وجبل الرَّبُّ الإله من الأرض كلَّ حيوانات البرِّيَّة، وكلَّ طيور السَّماء، فأحضرها إلىٰ آدم ليرىٰ ماذا يدعوها، وكلُّ ما دعا به آدم ذات نفس حيَّة

---

[1] يُنظر: **الأصوات والإشارات**، ص ١٠٧.

[2] يُنظر: **دلالة الألفاظ**، ٩٧.

فهو اسمها؛ فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السَّماء وجميع حيوانات البرِّيَّة»[1].

٥ التَّطوُّر الدَّلاليُّ والتَّحوُّل الرَّمزيُّ من منظور أنثروبولوجيٍّ

تختفي العلاقات الذَّاتيَّة أو الطَّبيعيَّة المباشرة بين كثير من الألفاظ ودلالاتها مع مرور الزَّمن؛ بسبب تكاثر الأجيال وتعدُّد المواقف اللُّغويَّة وتداول الألفاظ وتطوُّراتها الدَّلاليَّة من سياق إلىٰ آخر وتحوُّلاتها الرَّمزيَّة وفق معدَّل تطوُّريٍّ معياريٍّ ثابت، لا يشذُّ عنه إلَّا ألفاظ (قلب اللُّغة)، فقد وجد أ.كندراتوف أنَّ قلب اللُّغة هي مجموعة من حوالي **٥٠٠** مفردة ترتبط بحياة الإنسان ارتباطًا وثيقًا؛ ممَّا يمنحها معدَّلات ثبات عالية أمام التَّحوُّل الرَّمزيِّ والتّطوُّر الدَّلاليِّ؛ وقد يتجاوز هذا الثَّبات حدود الألفاظ والعلامات اللِّسانيَّة في لغة واحدة إلىٰ تشابه العلامات اللِّسانيَّة في لغتين لدىٰ قبائل متجاورة أو لغتين ترجعان إلىٰ أرومة لغويَّة واحدة؛ حيث تُعدُّ أعضاء الجسم البشريِّ «من أسبق الألفاظ إلىٰ سمع الطِّفل ولسانه، فهو يعرف كلَّ أو جلَّ أجزاء جسمه في سنِّ الثَّانية؛ كالعين والأنف والأذن والإصبع والظِّفر والرِّجل واليد والبطن والرَّأس والشَّعر؛ وهي لذلك تعدُّ من أقدم الألفاظ في اللُّغات البشريَّة. ويكفي أن نقارن ألفاظ لغات عدَّة من فصيلة واحدة؛ ليتَّضح لنا أنَّها تشترك في مثل هذه الألفاظ؛ لأنَّها استمدَّت من الأمِّ الأصليَّة لهذه اللُّغات، فانحدرت إليها جميعًا علىٰ صورة واحدة ودلالة متَّحدة. فنحن نقارن العربيَّة بالعبريَّة، ونستعرض منهما تلك

---

[1] **التَّطوُّر اللُّغويُّ التَّاريخيُّ**، ص **١٣-١٤**.

الألفاظ الَّتي تدلُّ علىٰ أجزاء الجسم، ونراها في اللُّغتين متَّحدة الصُّورة والدَّلالة»[1].

لكنَّ أعضاء الجسم تشهد تطوُّرًا دلاليًّا من نوع آخر، يكشف عن الخصائص الأنثروبولوجيَّة في مفردات قلب اللُّغة، فقد استعيرت تلك الألفاظ للتَّعبير عن أسماء بعض الجمادات والآلات والكنايات المجازيَّة، فشهدت تحوُّلًا رمزيًّا، حين راحت «تنتقل دلالات هذه الألفاظ القديمة إلىٰ الجماد فنتصوَّر للكرسيِّ رجلًا ويدًا، ونقول مثلًا: أسنان المشط والمنشار[2]، يد السِّكِّين، عين الإبرة، أذن الإبريق، فم النَّهر، عنق الزُّجاجة، لسان الجزمة... ونحو ذلك من مجازات واضحة العلاقة سهلة التَّفسير يتقبَّلها الطِّفل الصَّغير دون غرابة أو دهشة؛ لأنَّ الاستعمال الجديد يشترك في المظهر الخارجيِّ مع القديم. ويساعد علىٰ تقبُّل الطِّفل لهذا النَّوع من المجاز أنَّه يعيش زمنًا غير قصير في عالم الخرافات والخيال، ويشخِّص الأشياء؛ فيجعل منها مخلوقات حيَّة أو شبه حيَّة»[3].

وتقع تحوُّلات التَّسمية في أعضاء الجسم الإنسانيِّ عند إبراهيم أنيس ضمن المجازات العامَّة، الَّتي توضِّح الحديث وتبرزه؛ لكنَّها تفقد تأثيرها الخياليَّ مع مرور الزَّمن، وتتحوَّل إلىٰ مفردات حقيقيَّة، «ويعدُّ هذا الانتقال في

---

[1] **دلالة الألفاظ**، ص ٩٦-٩٧.

[2] يُنظر: جيرو، بيير، **علم الدَّلالة**، ترجمة: منذر عيَّاشيّ، ص١٠١-١٠٢، دار طلاس، دمشق، ط١، ١٩٩٢م، ص ١٠١-١٠٢.

[3] **دلالة الألفاظ**، ص ٩٧.

الدَّلالة من المجازات العامَّة، الَّتي تنشأ بين أفراد البيئة اللُّغويَّة، رغبة في توضيح الحديث وإبراز صوره. ولا تتطلَّب تلك المجازات من جمهور النَّاس مهارة خاصَّة، أو حذقًا خارقًا للعادة للاهتداء إليها، فليست كتلك المجازات الَّتي يبتكرها الشُّعراء والكتَّاب، ويجهدون قرائحهم في الغوص عنها؛ ولذلك تعدُّ تلك المجازات من أقدم أنواع المجاز، فلم تعد تثير في الأذهان غرابة أو طرافة، وأصبحت بعد شيوعها من الحقيقة. وكما يستعير النَّاس أجزاء الجسم ويخلعونها علىٰ الأشياء، قد يستعيرون أيضًا أجزاء الحيوان، ويلصقونها للجماد فيقولون مثلًا: جناح الطَّائرة، ذيل الفستان، جذور الأسنان»[١].

٦ علم الدَّلالة الأنثروبولوجيُّ

تتقاطع الأنثروبولوجيا الدَّلاليَّة مع علم الدَّلالة العامِّ في جوانب عدَّة، ولا سيَّما حين تدرس اللُّغة البشريَّة، وتهتمُّ بثلاثيَّة الدَّلالة أو مثلَّث المعنىٰ: (الدَّالِّ والمدلول والمرجع)، الَّذي يعتني به علم الدَّلالة العامُّ؛ وكذلك تستفيد الأنثروبولوجيا الدَّلاليَّة من معطيات علوم متعدِّدة؛ كعلم الأحياء وعلم الوراثة وعلم الأناسة وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا اللُّغويَّة، الَّتي تمتدُّ جذورها إلىٰ هذه العلوم المتعدِّدة؛ لذلك تتَّسم عمليَّة التَّأويل في علم الدَّلالة الأنثروبولوجيِّ بالدِّقَّة؛ نظرًا لكثرة القيود والسِّياقات الَّتي تضبط عمليَّة التَّأويل؛ من أجل الوصول إلىٰ مقاربة دلاليَّة عميقة؛ حيث يميِّز علم الدَّلالة الأنثروبولوجيُّ-بوصفه فرعًا من فروع علم الدَّلالة العامِّ-النَّصِّ المكتوب من النَّصِّ الشَّفويِّ،

---

[١] دلالة الألفاظ، ص ٩٧-٩٨.

ويركِّز علىٰ الخصائص الفكريَّة والدِّينيَّة والحيويَّة للشُّعوب الَّتي ترسل تلك النُّصوص، وتتلقَّاها بوصف تلك الخصائص سياقات مهمَّة ومؤثِّرة في التَّلقِّي والفهم وتأويل التَّطوُّرات الدَّلاليَّة والتَّحوُّلات الرَّمزيَّة؛ فقد تحوَّل كثير من ألفاظ الشِّعر الجاهليِّ نحو مقاصد رمزيَّة بعد انتشار العقيدة الإسلاميَّة في الجزيرة العربيَّة علىٰ سبيل المثال، مثلما يهتمُّ علم الدَّلالة الأنثروبولوجيُّ بالخصائص العصبيَّة والشَّكليَّة لدىٰ منتج النَّصِّ ومستقبله أيضًا؛ فما أنتجته شعوب النَّياندرتال[١] يختلف عمَّا أنتجه كلٌّ من إنسان الصَّيد والجمع وإنسان الثَّورة الذِّهنيَّة النِّيوليثيَّة[٢] وإنسان الثَّورة الزِّراعيَّة وإنسان الثَّورة الصِّناعيَّة وإنسان الثَّورة الرَّقميَّة وسُكَّان القارَّات البعيدة وبَشَر الجُزُر النَّائية عن العالم أو المعزولة عنه[٣]؛ وما ذلك إلَّا لاختلاف دلالة اللَّفظة الواحدة باختلاف خصائص منتِجيها؛ ناهيك عن اختلاف سياقات الإرسال، وتعدُّد مقاصده من موقف إلىٰ آخر، وبرغم المؤثِّرات السِّياقيَّة والثَّقافيَّة، الَّتي يهتمُّ بها علم الدَّلالة الأنثروبولوجيُّ، تبقىٰ ثلاثيَّة: (الدَّالُّ والمدلول والمرجع) نقطة انطلاقه الأساسيَّة في التَّأويل؛ غير أنَّه يولي علاقتها فيما بينها من جهة، وعلاقتها بثلاثيَّة: (المرسل والرِّسالة والمتلقِّي)، ووظائف اللُّغة وسياقتها أهمِّيَّة كبيرة في

---

(١) يُنظر: هاولز. وليام، **ما وراء التَّاريخ**، ترجمة وتقديم: أحمد أبو زيد، محمَّد الجوهريّ، المركز القوميُّ للتَّرجمة، ط١، القاهرة ٢٠١١م، ص ١٠٠.

(٢) يُنظر: **العاقل (تاريخ مختصر للنَّوع البشريِّ)**، ص ١٢، ٣٤، ٣٦، ٧٥، ٧٦، ١١٤، ١١٥.

(٣) يُنظَر: هوبه، هانز هيرمان، **تأريخ قصير للبشر (الصُّعود والانحطاط، إعادة تشكيل ليبرتاريَّة)**، ترجمة: حيدر عبد الواحد راشد، سطور للنَّشر والتَّوزيع، ط١، بغداد ٢٠١٧م، ص ٣٠-٣١.

التَّأويل الدَّلاليِّ من جهة ثانية، ناهيك عن اهتمامه بكلٍّ من السِّياق الثَّقافيِّ العامِّ وخصائص المجموعة البشريَّة ومعتقداتها.

وإن كان **علم الدَّلالة العامُّ** يعني «**دراسة المعنىٰ**» **أو** «**العلم الَّذي يدرس المعنىٰ**» **أو** «**ذلك الفرع الَّذي يدرس الشُّروط الواجب توافرها في الرَّمز حتَّىٰ يكون قادرًا علىٰ حمل المعنىٰ**» [١] فإنَّه بإمكاننا أن نعرِّف **علم الدَّلالة الأنثروبولوجيَّ بأنَّه: علم دراسة المعنىٰ بالاستناد إلىٰ فهم العلاقة النَّاظمة بين ثلاثيَّة الدَّلالة: الدَّوالِّ والمدلولات والمراجع من جهة أولىٰ، وخصائص مرسلي تلك الثُّلاثيَّة ومستقبليها ومدىٰ ارتباطها بوظائف اللُّغة عندهم، ومدىٰ تأثُّرها بالسِّياقات المحيطة بها.**

٧ خاتمة الفصل ونتائجه

يتميَّز كلٌّ من الأنثروبولوجيا الدَّلاليَّة وعلم الدَّلالة الأنثروبولوجيُّ من علم الدَّلالة العامِّ بتركيزهما علىٰ الإنسان؛ صانع النَّصِّ اللُّغويِّ ومؤوِّل دلالاته؛ لذلك ركَّز هذان العلمان علىٰ الإضاءة علىٰ تاريخ الإنسان وبداية وجوده ونشأة لغته والكشف عن تعالقاتها مع نظريَّات أخرىٰ (حيويَّة وميثولوجيَّة) تبحث في نشأة الكون وأصل الإنسان وأنواعه ونشأة لغته واختراع الكتابة مع أحداث ثوريَّة مهمَّة غيَّرت مفاهيم الإنسان وأنماط حياته؛ وقد قادت حلقات البحث المترابطة في علم الدَّلالة الأنثروبولوجيِّ ليس إلىٰ البحث في أصل الإنسان ونشأته ولغته وحسب، وإنَّما توصَّلت إلىٰ أنَّ البحث في نشأة الكون وبداية

---

[١] **علم الدَّلالة**، ص ١١.

الحياة علىٰ سطح الأرض قد يعطي معلومات مهمَّة عن لغات أقوام سالفين وأنظمتهم التَّواصليَّة والدَّلاليَّة أيضًا؛ ولهذا كلِّه عدَّ علم الدَّلالة الأنثروبولوجيُّ أنَّ أيَّ إضاءة علىٰ خصائص الإنسان بوصفه منتج النَّصِّ ومرسله سيفيد حكمًا في تأويله ومعرفة تحوُّلاته الدَّلاليَّة والرَّمزيَّة عبر العصور؛ وتوصَّل هذا العلم إلىٰ ضرورة فهم الدَّلالة من رصد العلاقة بين ثلاث شبكات يجمعها سياق كبير؛ تضمُّ ثلاثيَّة الدَّلالة: (الدَّالَّ والمدلول والمرجع)، وثلاثيَّة التَّواصل اللِّسانيِّ: (المرسل والرِّسالة والمتلقِّي)، ووظائف اللُّغة في هذا النِّظام الاجتماعيِّ أو ذاك.

١٥٩

	الفصل الرَّابع علم الدَّلالة النَّصِّيُّ تأويل النُّصوص بين الفيلولوجيا والأيديولوجيا	١٦٠-١٨١
١	مقدِّمة تاريخيَّة موجزة	١٦١-١٦٦
٢	من أين نبدأ؟	١٦٦-١٦٧
٣	مفاتيح علم الدَّلالة النَّصِّيِّ ومصطلحاته	١٦٧-١٦٨
أ	علم الدَّلالة	١٦٨-١٦٨
ب	الدَّالُّ	١٦٨-١٦٨
ج	المدلول	١٦٩-١٦٩
د	السِّياق والمرجع	١٦٩-١٦٩
هـ	النَّصُّ وعلم الدَّلالة النَّصِّيُّ	١٧٠-١٧٢
٤	التَّأويل بين الأيديولوجيا والفيلولوجيا ومُقارِباتها	١٧٢-١٧٦
٥	أثر الأيديولوجيا ومزالق التَّأويل الفيلولوجيُّ	١٧٦-١٨٠
أ	أثرها في المرسِل	١٧٧-١٧٨
ب	أثرها في الرِّسالة	١٧٨-١٧٨
ج	أثرها في المُستقبِل أو المؤوِّل	١٧٨-١٨٠
٦	خاتمة الفصل ونتائجه	١٨٠-١٨١

١ مقدِّمة تاريخيَّة موجزة

شهد علم الدَّلالة تطوُّرًا كبيرًا بعد وثيقة عالم اللِّسانيَّات البريطانيِّ وليام جونز (**William Jones**) (١٧٤٦-١٧٩٤م) الَّتي نشرها في الثَّاني من شباط ١٧٨٦م حول الأصول المشتركة لدى الشُّعوب واللُّغات الهندو-أوروبِّيَّة، ولا تخفى على الباحث المدقِّق أهداف تلك الوثيقة الأيديولوجيَّة برغم لَبوسها التَّاريخيِّ التَّنظيميِّ وقِناعها الفيلولوجيِّ التَّأطيريِّ أيضًا، فقد عكست تلك الوثيقة رغبة بريطانيا بتخفيف حدَّة المقاومة الهنديَّة ضدَّ الوجود البريطانيِّ في الهند أوَّلًا، وكرَّست الرُّؤية التَّوراتيَّة في تقسيم الشُّعوب إلى ساميَّة وحاميَّة و(آريَّة-يافثيَّة) نسبة إلى أبناء نوح-عليه السَّلام-ثانيًا، وأسهمت في إرواء شَغَف الأوروبِّيِّين (الآريِّين) الباحثين عن لغة أو ديانة قديمة وعريقة ينتسبون إليها في موازاة عراقة الشُّعوب والدِّيانات السَّاميَّة المشرقيَّة، الَّتي افتخرت على الدّوام بنبوَّة رُسلِها وكتبهم السَّماويَّة ثالثًا، ولعلَّ هذه الوثيقة أجَّجت النِّزاع الخفيَّ بين التَّأويل الأيدولوجيِّ والتَّأويل الفيلولوجيِّ، وأظهرته إلى العلن، لكنَّها-وبرغم هذا كلِّه-أدَّت إلى زيادة الاهتمام بعلم الدَّلالة، وأسهمت بتفرُّعه إلى علوم دلاليَّة متعدِّدة في أواخر القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين[١].

---

[١] يُنظر: **لغات الفردوس**، ص١٠.

يزدهر بعض العلوم الإنسانيَّة في عصور زمنيَّة محدَّدة، وقد تأفل نجوم علوم إنسانيَّة غيرها في أزمنة أخرىٰ، ويرتبط ازدهار بعض العلوم أو جمود بعضها الآخر بسياقات تاريخيَّة محدَّدة؛ تتراجع فيها حاجة البشر إلىٰ علم ما، وتشتدُّ حاجتهم إلىٰ علم غيره؛ فيبنون علىٰ أصول العلم المزدهر، ويقسِّمون فروعه وأبوابه ومباحثه إلىٰ فروع جزئيَّة تجعل العلم أكثر شموليَّة وإقناعًا ودقَّة، وحين تعجز بعض العلوم عن مواكبة عجلة التَّاريخ المتسارعة؛ تفقد أهمِّيَّتها، أو تندثر نهائيًّا. ولعلَّ علم الدَّلالة واحد من أبرز العلوم الإنسانيَّة الَّتي لم تحتفظ بأهمِّيَّتها الكبرىٰ منذ نشأتها الأولىٰ وحسب، بل سُرعان ما اتَّسعت أبواب هذا العلم، وتعدَّدت فروعه ومستوياته وأهدافه؛ لأنَّ بحث الإنسان عن المعنىٰ ظلَّ هدف علم الدَّلالة الأبرز؛ الَّذي لا يقود البحوث اللُّغويَّة الأخرىٰ وحسب، وإنَّما يوجِّه دفَّة الفكر الإنسانيَّ، أو يؤثِّر فيها لدىٰ معظم الشُّعوب علىٰ نطاق واسع أيضًا؛ فقد شُغف أعلام الفكر الإنسانيِّ وما زالوا مشغوفين حتَّىٰ وقتنا الرَّاهن بالبحث عن المعنىٰ؛ معنىٰ الوجود الإنسانيِّ ومنجزات الإنسان الحضاريَّة؛ فاستطلعوا مرويَّات البشر الشَّفويَّة، وبحثوا في معاني نقوشهم وأدواتهم وآثارهم الَّتي خلَّفوها وراءهم في هذا المجال الحيويِّ من مجالات كوكبنا أو هذا السِّياق التَّاريخيِّ أو ذاك.

يشكِّل علم الدَّلالة عمود نظريَّة التَّواصل وركنها الأبرز؛ والحقُّ أنَّه يصعب علينا الحديث عن أيِّ حضارة إنسانيَّة دونما حديث مفصَّل عن نظامها التَّواصليِّ وتأويل علامات ذلك النِّظام وتفسير دلالاتها علىٰ ضوء من خصائص مُنتجيها الفكريَّة وسماتهم الثَّقافيَّة أيضًا؛ ولهذا كلِّه يبدو علم الدَّلالة علمًا

عالميًّا قديمًا قِدم اللُّغة ذاتها إن لم يكن قديمًا قِدم الإنسان نفسه؛ لأنَّ الإنسان هو صانع المعنىٰ الأوَّل ومرسلُه ومستقبلُه ومؤوِّله معًا[١]، وحين نتحدَّث عن الإنسان في هذا المقام نعني به نموذجًا عن مجموعة من الشُّعوب الَّتي تعارف بعضها الأوَّل إلىٰ بعضها الآخر، وتعايش أبناؤها، وأنتجوا في مجالهم الحيويِّ نصوصًا حضاريَّة مدوَّنة أو مرويَّة، مصداقًا لقوله تعالىٰ: «**يا أيُّها النّاس إنَّا خلقناكم من ذكرٍ وأُنثىٰ وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم إنَّ الله عليم خبير**»[٢]؛ حيث نحتاج إلىٰ تأويل تلك النُّصوص الَّتي أنتجتها الشُّعوب والقبائل المتعارفة في سياقها التَّاريخيِّ علىٰ هدىٰ من حصافة علميَّة تقودنا، وحِسٍّ إنسانيٍّ عالٍ يُحَصِّنُنا من الانزلاق في متاهات التَّأويلات العنصريَّة أو الأيدويولوجيَّة، الَّتي تسعىٰ-في كثير من الأحيان-إلىٰ تجيير منجزات حضاريَّة لهذه الأمَّة أو تلك دون سواهما، أو تهدف إلىٰ توظيف النُّصوص من أجل إثبات أحقِّيَّة تاريخيَّة مزيَّفة؛ مع أنَّ الإبداع والمنجز الثَّقافيَّ القديم يكشف عن شراكة حضاريَّة، ويؤكِّد أنَّ معظم شعوب الحضارات المزدهرة الَّتي خدمت البشريَّة في عصور قديمة كانت خليطًا من مجموعات بشريَّة متعارفة متعايشة برغم تنوُّعها الدِّينيِّ والعرقيِّ والقوميِّ؛ ولهذا نستغرب أن يُطلق أستاذنا الدُّكتور أحمد مختار عمر حُكمًا قطعيًّا عامًّا في مقدِّمة كتابه:

---

[١] يُنظر: الرَّشيد. مهنَّا بلال، **علم الدَّلالة القديم؛ (مفهومه، نشأته، مصادره، مجالاته وتطبيقاته)**، بحث منشور في كتاب جماعيٍّ بعنوان: **مراجعات في علوم اللُّغة والأدب التُّراثيَّة والوافدة**، دار سونجاغ، ط١، أنقرة ٢٠٢٠.م، ص١٥٠.

[٢] **سورة الحجرات**، الآية ١٣.

(البحث اللُّغويُّ عند الهنود وأثره علىٰ اللُّغويِّين العرب)؛ حيث قال: «كان الهنود أسبق من العرب-ولا شكَّ-في مجال الدِّراسات اللُّغويَّة، بل ربَّما كانوا أسبق من اليونانيِّين كذلك في هذا المجال»[1]، **مع أنَّ كلمة (العرب) وعبارة (الأرض العربيَّة) تحتاجان إلىٰ ضبط وتحديد كبيرين قبل إطلاق مثل هذا الحكم، ولا سيَّما أنَّ الأراضي العربيَّة في مصر واليمن وشبه الجزيرة العربيَّة وبلاد الشَّام والعراق قد قدَّمت للحضارة الإنسانيَّة آلاف النُّقوش والألواح اللُّغويَّة والمنجزات الدَّلاليَّة القديمة، والَّتي تسبق كتاب زاردشت: (أفسته وشرحه الزَّند أفسته) وأناشيد الهند الفيديَّة ومدوَّنات اليونان القديمة بمئات السِّنين أو آلاف السِّنين علىٰ وجه الدِّقَّة والتَّحديد.**

لقد أستند أستاذنا أحمد مختار عمر في حكمه القطعيِّ السَّابق إلىٰ آراء لغويَّة لا تخلو من نزوع أيديولوجيٍّ واضح، أو لا تستند إلىٰ حصافة علميَّة علىٰ أقلِّ تقدير، يتوق كثير من أصحابها -مثل: **كارل ويلهالم فريديريك شليغل (Karl Wilhelm Friedrich Schlegel) (١٧٧٢-١٨٢٩م) وليام وايت وايتني (William Dwight Whitney) (١٨٢٧-١٨٩٤م) وباندارکر (R. G. Bhandarker) (١٨٣٧-١٩٢٥م) وسايس (Archibald Sayce) (١٨٤٥-١٩٣٣م)**-إلىٰ ربط اللُّغات والحضارة الغربيَّة عمومًا بأصول مشرقيَّة قديمة، ولعلَّ وثيقة **وليام جونز (William Jones) (١٧٤٦-١٧٩٤م)** عن الأصول الهندو-أوروبِّيَّة المشتركة كانت من

---

[1] عمر. أحمد مختار، **البحث اللُّغويُّ عند الهنود وأثره علىٰ اللُّغويِّين العرب**، دار الثَّقافة، ط١، بيروت ١٩٧٢م، ص٣.

أوائل التَّقسيمات الَّتي حاولت أن تُجيِّر علم الفيلولوجيا لأهداف أيديولوجيَّة واضحة، برغم أنَّ الفيلولوجيا من أكثر العلوم الإنسانيَّة حصافة ودقَّة وموضوعيَّة، وإن كان اكتشاف «السَّنسكريتيَّة قد خلق عصرًا جديدًا في علم اللُّغة-بحسب آراء وايتني-ووضع حدًّا لكلِّ تلاعب بالألفاظ وخلق علم اللُّغة»[1] بحسب آراء سايس، فإنَّ الحصافة العلميَّة كانت تقضتي مقارنة اللُّغة السَّنسكريتيَّة-قبل هذا النُّزوع الأيديولوجيِّ وإطلاق مجموعة من الأحكام العامَّة من قبل علماء كبار-بلغات آلاف النُّصوص المشرقيَّة الأقدم منها، في كلٍّ من مصر واليمن والعراق وسوريا وشبه الجزيرة العربيَّة؛ تلك الَّتي دُوِّنت بخطوط ولغات متعدِّدة؛ كالأكديَّة المدوَّنة بالخطِّ المسماريِّ، وأبجديَّة أوغاريت في رأس شمرا، والنُّقوش المسنديَّة والآرميَّة والنَّبطيَّة وغيرها، وإن كان اكتشاف السَّنسكريتيَّة ثورة لغويَّة، فإنَّ مقارنة النُّصوص الأكديَّة باللُّغات العالميَّة الأخرىٰ قديمة وحديثة أبو الثَّورات اللُّغويَّة كلِّها وأمُّها أيضًا، فما الَّذي يجعل من اكتشاف السَّنسكريتيَّة-في حدِّ ذاته ثورة لغويَّة؟ ويدفعنا إلىٰ إهمال آلاف النُّقوش المشرقيَّة الأخرىٰ أو تجاهلها غير النُّزوع الأيديولوجيِّ؟ ناهيك عن جهود مشرقيَّة سبقت الغربيِّين إلىٰ علم الهنديَّات والنَّقل منها وإليها؛ قام بها: عبد الله بن المقفَّع وابن النَّديم والبيرونيُّ، ولعلَّ تساؤلاتنا السَّابقة من أهمِّ الأسباب الَّتي دفعت إلىٰ إنتاج هذا الفصل من فصول هذا الكتاب، والدَّعوة-مع السَّعي الدَّؤوب-إلىٰ الإلمام بجوانب علم الدَّلالة النَّصِّيِّ، الَّذي يستعرض

---

[1] البحث اللُّغويُّ عند الهنود وأثره علىٰ اللُّغويِّين العرب، ص ١٩.

منجزات الشُّعوب الدَّلاليَّة كلِّها دونما إجحاف أو تهويل، ويؤسِّس لأدوات منهجيَّة رصينة في علم الدَّلالة، تحمي المؤوِّل من الانزلاق-عن قصد أو دون قصد-وراء مزالق بحثيَّة حينًا، وتقوده خلف مزالق أيديولوجيَّة في معظم الأحيان؛ لذلك سيكون سؤالنا الآتي:

٢ من أين نبدأ؟

قبل تأسيس علم الدَّلالة النَّصِّيِّ الشَّامل تدعو الحصافة الفيلولوجيَّة إلىٰ استعراض المنجزات الدَّلاليَّة لدىٰ الشُّعوب والحضارات القديمة كلِّها، وهذا الاستعراض سيقود إلىٰ وضع المرويَّات والمدوَّنات الدَّلاليَّة القديمة في سياقاتها الثّقافيَّة والحضاريَّة أوَّلًا، من أجل الوصول إلىٰ قراءتها الفيلولوجيَّة الدَّقيقة ثانيًا، ثمَّ تأويلها بعد الاطِّلاع علىٰ ثقافة عصرها وخصائص لغتها ومعرفة أساليبها ومقارنتها بما سبقها وتبعها من نصوص ومدوَّنات قريبة منها أو مجاورة لها[١].

بناء علم الدَّلالة النَّصِّيِّ مهمَّة علميَّة تحتاج إلىٰ غير قليل من تضافر الجهود في المؤتمرات والمراكز البحثيَّة؛ ومن هنا تأتي أهمِّيَّة هذا البحث لأنَّه خطوة أولىٰ في طريق علميٍّ طويل؛ ولأنَّ الرَّصانة العلميَّة تستوجب علىٰ البحوث العلميَّة أن تسير علىٰ هدًىٰ من منهج علميٍّ مناسب، فإنَّ المنهج الفيلولوجيَّ المقارن، أو منهج فقه اللُّغة المقارن أفضل منهج علميٍّ يعتمد عليه هذا النَّوع من البحوث الدَّلاليَّة، ولا سيَّما إن كان الهدف منها بناء علم دلالة

---

(١) يُنظر: برجستراسر، **أصول نقد النُّصوص ونشر الكتب (محاضرات المستشرق الألمانيِّ برجستراسر)**، إعداد وتقديم: محمَّد حمديِّ البكريِّ، دار المرِّيخ، ط١، الرِّياض ١٩٨٢م، ص ٥٠.

نصِّيٍّ شامل، يساعد في تأويل النُّصوص المتعدِّدة، بلغاتها المتنوِّعة؛ قديمة وحديثة، ويسعىٰ إلىٰ فهمها الدَّقيق برغم اختلاف أغراضها وكثرة أشكالها وأجناسها بالاستناد إلىٰ أُسس منهجيَّة رصينة، تطَّلع علىٰ تاريخ البحث الدَّلاليِّ العالميِّ قبل أن تشرع في قراءة النَّصِّ المؤوَّل، وتُتقن لغته، وتعرف أساليبها، وتفهم خصائصها ودلالات أدوات الرَّبط فيها من خلال رؤية شموليَّة كبرىٰ؛ لا تغفل أبدًا عن الخصائص الثَّقافيَّة لدىٰ الحضارة الَّتي أنتجت ذلك النَّصِّ؛ ولهذا لا يمكن تأويل العلامات ومعرفة دلالاتها دون النَّظر إليها في سياقها اللُّغويِّ ووضع النَّصِّ في سياقاته التَّاريخيَّة والسِّياسيَّة والثَّقافيَّة الكبرىٰ الَّتي ظهر فيها؛ وإن كان هذا العمل الدَّلاليُّ يقوم في مرحلة من مراحلة علىٰ البحث عن دلالة العلامة المفردة قبل النَّظر إلىٰ تأثير كلٍّ من السِّياقات الأخرىٰ والتَّفاعلات السِّيميائيَّة والدَّلاليَّة في المجموع الدَّلاليِّ؛ فإنَّه يوجب علينا أن نُلمَّ بمجموعة رئيسة من مفاتيح علم الدَّلالة النَّصِّيِّ وأدواته المنهجيَّة أيضًا.

٣ مفاتيح علم الدَّلالة النَّصِّيُّ ومصطلحاته

برغم إشارة كثير من الباحثين إلىٰ حداثة علم الدَّلالة فإنَّنا نعود لنؤكِّد علىٰ قِدمه وارتباطه الوثيق بالتَّواصل الشَّفويِّ وتأويل دوالِّه ومدلولاته أوَّلًا، ثمَّ تكرَّست أهمِّيَّة علم الدَّلالة مع اختراع الكتابة وتدوينها وتأويل نصوصها المكتوبة بين **٣٧٥٠-٣٢٠٠** قبل الميلاد[١]؛ ولعلَّ علم الدَّلالة الحديث والنَّظريَّات الدَّلاليَّة المعاصرة لا تضيف إلَّا لمسات تجديديَّة طفيفة-توسُّعًا أو

---

[١] يُنظر: **دراسات في تاريخ الشَّرق القديم**، ص ٢٦.

اختزالًا-إلىٰ ثلاثيَّة: (الدَّالِّ والمدلول والمرجع) الرَّئيسة في علم الدَّلالة القديم؛ فما معنىٰ علم الدَّلالة؟ وما الدَّالُّ والمدلول والسِّياق والمرجع والنَّصُّ وعلم الدَّلالة النَّصِّيُّ؟

أ علم الدَّلالة

عرَّفنا علم الدَّلالة مرَّات متعدِّدة في سياق هذا الكتاب، ونذكِّر بتعريفه مجدَّدًا ضمن حديثنا عن علم الدَّلالة النَّصِّيِّ بعيدًا عن التَّوسُّع أو الإسهاب والاستطراد؛ وهذا ما يدفعنا إلىٰ تكثيف اللُّغة والتَّركيز علىٰ المفاهيم الأساسيَّة؛ ولذلك أيضًا سنقتصر علىٰ تقديم تعريفات موجزة وميسَّرة؛ ولعلَّ هذا البحث يكون نقطة انطلاق لبحوث ومؤتمرات وندوات علميَّة مستقبليَّة أيضًا؛ ولهذا كلِّه يمكن تعريف **علم الدَّلالة بأنَّه**: **علم البحث عن المعنىٰ من خلال أدوات علميَّة وطرائق منهجيَّة محدَّدة.**

ب الدَّالُّ

الدَّالُّ: هو **العلامة الَّتي نبحث عن دلالتها أو معناها**، وقد تكون هذه العلامة رمزًا تصويريًّا أو حرفًا لغويًّا أو صوتًا مفردًا أو مركَّبًا أو شكلًا هندسيًّا أو شيفرة أو أيقونة أو راية أو بناء أو لونًا أو نارًا أو دُخانًا أو ضوءًا أو حركةً أو أيَّ شيء آخر يُمكن أن يحمل معنىٰ ما بالاستناد إلىٰ مرجع ثقافيٍّ أو سياق لغويٍّ أو تاريخيٍّ محدَّد.

ج المدلول

المدلول: هو **المعنىٰ الَّذي يحمله الدَّالُّ**، ويمكن الحديث عن معنىٰ مركزيٍّ اصطلاحيٍّ يشير إليه أيُّ دالٍّ، ومعانٍ وأطياف دلاليَّة أخرىٰ من الممكن أن يشير إليها، أو يحتوي عليها، أو يكتسبها في سياقات معيَّنة؛ حيث تتحدَّد تلك المعاني من خلال التَّفاعل الدَّلاليِّ أو السِّيميائيِّ (الأسلوبيِّ-الدَّلاليِّ) بين الدَّوالِّ في سياقاتها: اللُّغويَّة والثَّقافيَّة والتَّاريخيَّة، وبتأثير كبير من ثقافة المؤوِّل وتفاعلها مع النَّصِّ المؤوَّل أيضًا.

د السِّياق والمرجع

السِّياق والمرجع: مفهومان شائكان وشائقان، متقاربان حينًا، ومتباعدان حينًا آخر، وحولهما دراسات كثيرة؛ تُجمع في مُعظمها علىٰ تعدُّد أنواع السِّياقات والمراجع أو المرجعيَّات الَّتي تؤدِّي دورها الأبرز في تحديد المجموع الدَّلاليِّ لأيِّ نصٍّ كان من خلال السِّياق أو المرجعيَّة الَّتي يُقرأ النَّصُّ من خلالها، أو يُؤوَّل علىٰ هدىٰ من ضوئها، وتُقارِب مفهوم السِّياق، ويقارنه بمفاهيم أخرىٰ؛ كمعنىٰ العلامة في مقامها أو سياقها أو نَسَقِها؛ مع الإشارة إلىٰ أنَّ السِّياق اللُّغويَّ من أضيق أنواع السِّياقات، الَّتي تحدِّد المعنىٰ، وتتأثَّر بطبيعة اللُّغة وأساليبها اللُّغويَّة والنَّحويَّة والبلاغيَّة وأدوات الرَّبط فيها وبِنىٰ الألفاظ الصَّرفيَّة وخصائصها الصَّوتيَّة، وهناك سياقات أوسع؛ كسياق المقام أو جوِّ النَّصِّ العامِّ أو بيئته الَّتي أنتجته ومرجعيَّاتها الفكريَّة والفلسفيَّة والثَّقافيَّة العامَّة في مفهومها الواسع.

هـ النَّصُّ وعلم الدَّلالة النَّصِّيُّ

وقفنا علىٰ تعريف علم الدَّلالة بمفهومه العامِّ، لكنَّنا -قبل الوصول إلىٰ تعريف علم الدَّلالة النَّصِّيِّ- نحتاج إلىٰ التَّعريج علىٰ مصطلح النَّصِّ بإيجاز سريع لدىٰ العرب والغربيِّين؛ حيث تشير مادَّة: (ن، ص، ص) اللُّغويَّة في المعاجم العربيَّة إلىٰ معاني الرَّفع والإشهار والإعلان؛ ونذكر من هذه المعاني: منصَّة العروس المرتفعة الَّتي ترنو إليها العيون لبروزها وارتفاعها واشتهارها[١]، ولعلَّ هذا ما قصدته الخنساء حين أشارت إلىٰ علوِّ شأن أخيها صخر ورفعة قدره واشتهاره بين النَّاس، حين قالت:

وإنَّ صخرًا لتأتمُّ الهداة به كأنَّه علم في رأسه نارُ

ولعلَّنا نستطيع التَّوفيق بين دلالة مادَّة: (ن، ص، ص) اللُّغويَّة في المعاجم العربيَّة، ودلالة مصطلح النَّصِّ Texet لدىٰ الغربيِّين في إشارتها إلىٰ معاني النَّسج أو النَّسيج؛ أو بناء النَّصِّ من خلال الرَّبط بين الألفاظ أو نسجها وتركيبها من خلال سياقات متفاعلة دلاليًّا لإيصال معنىً محدَّد؛ فقد يكون النَّصُّ قصيرًا جدًّا؛ كأن يقتصر علىٰ صوت واحد، أو حرف من حروف المعاني؛ مثل حرف: (لا)، أو كلمة: (نعم) في اللُّغة العربيَّة؛ ويرتبط تأويل النَّصِّ في هذه الحال بتفاعل شيفرة Code هذا النَّصِّ القصيرة مع ثقافة المؤوِّل والسِّياق الَّذي وقع فيه الفعل التَّواصليُّ والمرجعيَّة الدَّلاليَّة العرفيَّة أو الاصطلاحيَّة المتَّفق عليها في مثل هذا المقام أو النِّظام التَّواصليِّ، وقد يتَّسع النَّصُّ ليغدو

---

[١] يُنظر: الفيروزاباديِّ، **القاموس المحيط**، مادَّة (ن، ص، ص)، مكتبة الرِّسالة، ط٤، بيروت ٢٠١٥م، ص ٦٣٢.

كلمة أو عبارة أو جملة أو فقرة، وقد يطول إلىٰ فقرات متعدِّدة، ولربَّما يمتدُّ في صفحات متعدِّدة، وقد يصير كتابًا كاملًا أو رسالة أو أنشودة أو ملحمة أو جنسًا أدبيًّا آخر، وقد يكون النَّصُّ لوحة فنِّيَّة أو ساحة معركة أو حقل ألغام أو أرضيَّة ملعب؛ يؤوِّله المختصُّون بالاستناد إلىٰ دوالِّ النَّصِّ ومدلولاتها وخبرات المؤوِّلين وتفاعل تلك الدَّوالِّ والمدلولات في سياقاتها أو مقاماتها؛ ولعلَّ تعدُّد الشُّروط التَّأويليَّة تفرض علىٰ المؤوِّل امتلاك ثقافة تأويليَّة عالية، وإلمامًا بشروط الأعمال الفنِّيَّة وقوانين النُّصوص والأجناس الأدبيَّة والنَّماذج البدئيَّة منها.

ونقصد هنا **بالنَّماذج البدئيَّة**: مجموعة من أقدم النُّصوص والأعمال الفنِّيَّة المشتهرة في أبوابها؛ كأساطير الخلق والطُّوفان وملاحم: جلجامش والإلياذة والأوديسة وتراجيديَّات سوفوكليس ومعلَّقات الشِّعر العربيّ القديم قبل الإسلام ومجموعة أخرىٰ من أشهر الأعمال العالميَّة الخالدة(١)؛ وعليه يمكن تعريف علم الدَّلالة النَّصِّيِّ بقولنا الآتي: **علم الدَّلالة النَّصِّيِّ: هو علم البحث عن دلالات النُّصوص من خلال تقليب وجوه معانيها بعد الإلمام بلغتها الأصليَّة وأساليبها الكتابيَّة والإلقائيَّة ومعرفة أدوات الرَّبط والمعاني فيها، ومقارنة النَّصِّ المدروس بمجموعة من النُّصوص الَّتي سبقته وعاصرته وتبعته، والاسترشاد بهدي من نصوص النَّماذج البدئيَّة الرَّئيسة الَّتي تُساعد**

(١) يُنظر: فراي، نورثروب، **تشريح النَّقد**، ترجمة وتقديم: **محيي الدِّين صبحيٍّ**، منشورات وزارة الثَّقافة، ط١، دمشق ٢٠٠٥م، ص ١٣٩.

علىٰ تفسير النَّصِّ في ضوء سياقه الثَّقافيِّ، ويكشف هذا التَّعريف أنَّ المؤوِّل يزداد عمله دقَّة وموضوعيَّة كلَّما ازداد إلمامه بنصوص سبقت النَّصِّ المؤوَّل أو عاصرته أو لحقت به، أو جاءت بعد بزمن طويل، ناهيك عن فائدة الإلمام بالنَّماذج البدئيَّة؛ لأنَّ النَّموذج البدئيَّ لا يُتَّخذ مقياسًا للنُّصوص الأدبيَّة الأخرىٰ وحسب، وإنَّما يُعدُّ-في غالب الأحيان-نموذجًا شامخًا عن جنس أدبيٍّ كامل.

٤ التَّأويل بين الأيديولوجيا والفيلولوجيا ومُقارِباتها

يصارع النُّزوع الأيديولوجيُّ الفيلولوجيا Phiology علىٰ التَّأثير في المتلقِّين، ويُنازع رغبتها العلميَّة الحصيفة في البحث عن طبقات المعنىٰ وتقليب وجوه الدَّلالة، وقد يكون الصِّراع بين الفيلولوجيا Philology والأيديولوجيا Ideology جليًّا واضحًا لدىٰ المؤوِّل، وقد يكون صراعًا خفيًّا يحتاج إلىٰ حصافة علميَّة كبرىٰ لدىٰ الباحث الدَّلاليِّ لمعرفة ظلال الألفاظ وما تخفيه السِّياقات وما يستتر وراء الصُّور الأنيقة من أفكار سياسيَّة أو أيديولوجيا مبطَّنة، ولا سيَّما إن كان كاتب النَّصِّ أديبًا مبدعًا؛ لديه قدرة كبيرة في ميادين: الخطابة والبلاغة والإعلام؛ تمكِّنه من التَّأثير في المتلقِّين أو التَّلاعب في عقولهم؛ ولذلك انتقد كارل بورديو أثر وسائل الإعلام ودورها في تحوير المعنىٰ أو تنميطه أو أدلجته، «وشنَّ نقدًا حادًّا علىٰ فساد وسائل الإعلام الفرنسيَّة وتبعيَّة المثقَّفين الفرنسيِّين-كلاب الحراسة الجُدد-لوسائل الإعلام من صحافة وإذاعات [ولا سيَّما] الدَّور الخطير الَّذي يلعبه [التِّلفاز] في تكريس

الأوضاع والمصالح السَّائدة وفي التَّفريغ السِّياسيِّ والتَّلاعب بعقول المستهلكين»[(١)].

وتُعرَّف **الأيديولوجيا** Ideology بأنَّها علم النَّظريَّات الأوَّليَّة أو الأفكار السَّابقة حول شيء ما أو فنُّ التَّنميط؛ الَّذي يؤثِّر في نظرة صاحبه إلىٰ مواضيع الكون المتعدِّدة وتفسيرها وتقديم خِطابه تجاهها في ضوء تلك النَّظريَّة التَّنميطيَّة الشُّموليَّة؛ أمَّا **الفيلولوجيا** Philology [فهي/ هو] مصطلح غربيٌّ ينحدر من أصل لاتينيٍّ مؤلَّف من كلمتين؛ هما: Philos بمعنىٰ الصَّديق أو المُحبِّ، والثَّاني Logos بمعنىٰ الخطبة أو الكلام؛ وهكذا يتحدَّد معنىٰ الفيلولوجيا بحبِّ اللُّغة والخطابة أو صداقتهما من خلال نقد نصوصها وتحقيقها ونشرها والبحث في معانيها وتقليب وجوه بلاغتها من أجل الوصول إلىٰ دلالتها الدَّقيقة أو الاقتراب من مقاصد مُرسليها إلىٰ أكبر حدٍّ ممكن، مع السَّعي إلىٰ معرفة دوافع مؤلِّفي تلك النُّصوص وأسباب تدوينها، والنَّظر في قدرة المرسل علىٰ توظيف مهاراته التَّداوليَّة في حِجاج المتلقِّي أو إقناعه أو التَّأثير فيه[(٢)]؛ وهكذا يبدو جليًّا أنَّ المقاصد الأيديولوجيَّة تُنازع الحصافة الفيلولوجيَّة علىٰ كلٍّ من مستوىٰ: المُرسل والرِّسالة والمتلقِّي، ويظهر لنا أنَّ

---

(١) بورديو، كارل، **التِّلفزيون وآليَّات التَّلاعب بالعقول**، ترجمة وتقديم: درويش الحلوجيِّ، منشورات دار كنعان للدِّراسات والنَّشر والخدمة الإعلاميَّة، ط١، دمشق **٢٠٠٤**.م، ص **٩** من مقدِّمة المترجم.

(٢) يُنظر: الجرَّاح، عامر، **التَّفكير البيانيُّ عند العرب (قراءة تداوليَّة)**، دار سنابل، ط١، إسطنبول **٢٠١٩**.م، ص **١٢**.

مصطلح الفيلولوجيا أو علم الفيلولوجيا الغربيَّ يختلف عن كلٍّ من: علم اللُّغة العربيِّ وفقه اللُّغة العربيِّ وعلم تحقيق النُّصوص ونقدها ونشرها وعلوم المصطلح أو الاصطلاح والمنهجيَّة أيضًا، ولعلَّ أفضل ترجمة لهذا العلم أو المصطلح الغربيِّ هي: فقه اللُّغة المقارن؛ لأنَّ فقه اللُّغة المقارن يمتدُّ في علوم متعدِّدة من جانب؛ ولأنَّ السِّياقات التَّاريخيَّة الَّتي ظهرت فيها تلك العلوم العربيَّة سياقات مختلفة عن السِّياق التَّاريخيِّ الَّذي ظهر فيه علم الفيلولوجيا الغربيُّ من جانب آخر، ناهيك عن اختلاف السِّياقات التَّاريخيَّة الَّتي ازدهرت فيها تلك العلوم العربيَّة عن السِّياق التَّاريخيِّ الَّذي ازدهر فيها علم الفيلولوجيا الغربيُّ أيضًا.

يكشف التَّنازع بين الفيلولوجيا والأيديولوجيا أنَّ تأليف النُّصوص وتأويلها يخضعان في كثير من الأحيان إلىٰ آراء سياسيَّة أو أفكار أيديولوجيَّة تسبق بناء النَّصِّ أو فهمه، وتسيء إلىٰ تأويله، في حين تقتضي المنهجيَّة الفيلولوجيَّة نزعة علميَّة تهدف إلىٰ قراءة النَّصِّ بتجرُّد مطلق؛ (أيِّ نصٍّ كان، قديم أو حديث، سياسيٍّ أو دينيٍّ أو أدبيٍّ...)، وهذا ما يوجب علىٰ المؤوِّل أن يُلمَّ بمعارف كثيرة، ويُمسك بأدوات منهجيَّة متعدِّدة، يحاول علم الدَّلالة النَّصِّيُّ أن يقدِّمها له؛ كمصطلحات: علم الدَّلالة، وعلم الدَّلالة النَّصِّيِّ، والدَّالِّ، والمدلول، والسِّياق، والمرجع، الَّتي شرحناها، وبعض المصطلحات الأخرىٰ، الَّتي ننتظر–مع المجتهدين في هذا المجال–إكمالها في بحوث أخرىٰ؛ كالأسلوب وأدوات الرَّبط والحِجاج والإقناع والتَّأثير والمعنىٰ الكلِّيِّ والمعنىٰ الجزئيِّ والتَّفاعل الدَّلاليِّ والتَّفاعل السِّيميائيِّ، ولعلَّ هذه الأدوات المنهجيَّة

من أكثر ما يساعد المؤوِّل في رحلة البحث عن معنىٰ النَّصِّ والوصول إلىٰ تأويله؛ ولذلك دفعت صعوبة الإمساك بهذه الأدوات المنهجيَّة نفرًا كبيرًا من الباحثين العرب إلىٰ تطبيق الأدوات والمناهج النَّقديَّة الوافدة إلينا من ثقافات أخرىٰ علىٰ النُّصوص العربيَّة برغم مخاطر تطبيق تلك المناهج والأدوات الَّتي لا تنسجم مع خصوصيَّة النَّصِّ العربيِّ قديمًا وحديثًا.

* * * * *

حاولت مناهج النَّقد الغربيَّة الحديثة أن تُجدِّدَ نفسها، وتنحو منحًىٰ علميًّا في تأويل النُّصوص بعيدًا عن التَّسييس والأدلجة؛ فوُلدت اللِّسانيَّات الغربيَّة الحديثة من رَحِم الدِّراسات الفيلولوجيَّة، ولكي لا تقع في الجمود حاولت تلك اللِّسانيَّات تطوير نفسها علىٰ الدَّوام؛ لكنَّ دراساتها الجديدة المتطوِّرة سُرعان ما وقعت في شَرك التِّكرار أو النَّظرة الجزئيَّة، ولا يخفي علىٰ المتتبِّع اعتماد كثير من المناهج النَّقديَّة الحديثة؛ كالأسلوبيَّة والبنيويَّة اعتمادًا واسعًا علىٰ اللِّسانيَّات مع بعض اللَّمسات التَّجديديَّة الخجولة الَّتي أوقعتها في حيِّز التِّكرار حينًا وحيِّز النَّظرة الجزئيَّة حينًا آخر؛ فحين أعلنت الدِّراسات البنيويَّة موت المؤلِّف؛ لتعتمد علىٰ تأويل بنية النَّصِّ ذاته في تحديد مقاصده من خلال مجموعة من الثُّنائيَّات الضِّدِّيَّة كرَّست النُّزوع الأيديولوجيَّ لدىٰ المؤوِّل بشكل أو بآخر، وازداد الأمر سوءًا حين استوردت التَّيَّارات العربيَّة النَّقديَّة المعاصرة بعضًا من مناهج أوروبَّا النَّقديَّة الحديثة، وراحت تطبِّقها علىٰ نصوص أدبنا العربيِّ قديمةً وحديثةً دون إعطاء السِّياق الثَّقافيِّ وخصوصيَّة النَّصِّ العربيِّ حقَّه أثناء التَّأويل.

إذا كان استيراد المناهج النَّقديَّة الجاهزة وتطبيقها علىٰ نصوص أدبنا العربيِّ لا يخلو من أخطاء منهجيَّة ومزالق بحثيَّة كثيرة، فإنَّ التَّأسيس لعلوم ومناهج نقديَّة أصيلة مهمَّة تحتاج إلىٰ جهد وعناء كبيرين؛ يمتدَّان في أوقات زمنيَّة طويلة، ويُستكملان في بحوث ومؤتمرات علميَّة متعدِّدة؛ لكنَّ هذا التَّأسيس-وبرغم صعوبته-يظلُّ أكثر نفعًا وفائدة من استيراد العلوم والمناهج النَّقديَّة الجاهزة وتطبيقها علىٰ نصوص أدبنا العربيِّ؛ فقد أسفر هذا الاستيراد عن تشتُّت ملحوظ في مصطلحات نقدنا العربيِّ الحديث، وبرزت اختلافات كبيرة في نتائج الدِّراسات التَّأويليَّة علىٰ مقاصد كثير من نصوص أدبنا العربيِّ الخالدة؛ لذلك كان طرحنا سؤالنا في مستهلِّ هذا الفصل، وقلنا: من أين نبدأ؟ ولهذا أو لشبهه أكَّد علماء الدَّلالة علىٰ أهمِّيَّة العودة إلىٰ الفيلولوجيا، وبيَّنوا أنَّ هذه العودة خطوة ضروريَّة لتطوير علم الدَّلالة وبلورة علم الدَّلالة النَّصِّيِّ وضبط أدواته المنهجيَّة لتوظيفها في تأويل النُّصوص في ظلِّ تجاذب معانيها بين الفيلولوجيا والأيديولوجيا، والحقُّ أنَّ علم الدَّلالة النَّصِّيَّ ينزع لأن يكون علمًا شموليًّا يُطبَّق علىٰ النُّصوص الفنِّيَّة المتعدِّدة؛ قديمة وحديثة، ولا سيَّما أنَّه يستفيد من الفيلولوجيا واللِّسانيَّات النَّصِّيَّة في تأويل النُّصوص العربيَّة قديمة وحديثة؛ ولذلك لا بدَّ من استكمال هذا البحث والبناء عليه في بحوث ومؤتمرات علميَّة آتية.

٥ أثر الأيديولوجيا ومزالق التَّأويل الفيلولوجيِّ

يقترب التَّأويل الفيلولوجيُّ من مقاصد المرسل كلَّما ازداد اطِّلاع المؤوِّل أو الباحث الدَّلاليِّ علىٰ ثقافة المرسل وسياق النَّصِّ التَّاريخيِّ، وألمَّ

بلغة النَّصِّ الأصليَّة وأساليبها اللُّغويَّة وحِجاجها البلاغيِّ، وانضبط بحصافة تلك القواعد المنهجيَّة؛ ولهذا قد تدفع لفظة في نصٍّ ما المؤوِّلَ إلىٰ قراءات متعدِّدة في مادَّة اللَّفظة المعجميَّة والمدوَّنات الَّتي تحتوي علىٰ نقاش حول تلك اللَّفظة ومقارباتها، وقد يدفع تكرار بعض الألفاظ مؤوِّلًا ما إلىٰ العزوف عن تأويل النَّصِّ نظرًا لعدم قدرته علىٰ الإحاطة بما كُتب حول تلك اللَّفظة؛ ومن هنا يتَّضح لنا أيضًا أنَّ مزالق التَّأويل الفيلولوجيِّ ترتبط بهمَّة المؤوِّل واطِّلاعه وثقافته وموضوعيَّته ونزاهته ومعرفته بلغات النُّصوص وبلاغتها وأساليب كُتَّابها وقدرة المؤوِّل أو الباحث الدَّلاليِّ علىٰ فهم الدَّوافع الأيديولوجيَّة الكامنة وراء تدوين هذا النَّصِّ أو إلقاء ذاك ومدىٰ تأثير تلك الأيديولوجيا في كلٍّ من: المرسل والرِّسالة والمتلقِّي.

١ أثرها في المرسل

تؤثِّر الأيديولوجيا في نظرة المرسل الكلِّيَّة إلىٰ موضوعات العالم وعلومه وفنونه كلِّها، وغالبًا ما يرىٰ تلك الموضوعات بمنظار أيديولوجيَّته الَّتي يتبنَّاها أو يؤمن بها؛ ولهذا يُجمع دارسو النُّصوص الفنِّيَّة ومؤوِّلوها علىٰ تأثير الأيدولوجيا السَّلبيِّ في الفنِّ عمومًا؛ مع أنَّها هذه الأيديولوجيا قد يكون لها تأثير إيجابيٌّ في كلٍّ من المرسل والرِّسالة بعض الأحيان؛ حيث تدفع المرسل إلىٰ الاهتمام بأكثر الأساليب الحجاجيَّة إقناعًا، والبحث عن أقوىٰ الصُّور البلاغيَّة لإظهار أفكاره السِّياسيَّة بالأساليب البهيَّة والحُلل التَّصويريَّة القشيبة في مجال الشِّعر والخطابة أو تلحين القول، ولعلَّنا نستذكر في هذا المقام حديث الرَّسول الكريم محمَّد-صلَّىٰ الله عليه وسلَّم-حيث قال: «إنَّكم

تختصمون إليَّ، ولعلَّ بعضكم ألحن بحجَّته من بعض، فمن قضيتُ له بحقِّ أخيه شيئًا، فإنَّما أقطع له قطعة من النَّار فلا يأخذها»[1].

٢ أثرها في الرِّسالة

أمَّا تأثير الأيديولوجيا في الرِّسالة فيتراوح بين بُعدين: بعد إيجابيٍّ حينًا وبعد سلبيٍّ حينًا آخر؛ وإن كان البعد الإيجابيُّ يتجلَّىٰ في تهيئة السِّياقين: الثَّقافيِّ والتَّاريخيِّ لتطوُّر بعض الأساليب البلاغيَّة؛ كأسلوب الحجاج مثلًا[2]، أو ظهور فنون أخرىٰ أو ازدهارها علىٰ أقلِّ تقدير؛ كازدهار الشِّعر السِّياسيِّ أو شعر الأحزاب السِّياسيَّة في العصر الأمويِّ، فإنَّ البعد السَّلبيَّ يدفع الشَّاعر أو الخطيب أو الفنَّان المؤدلج إلىٰ تحويل نصِّه الفنِّيِّ إلىٰ رسالة سياسيَّة قد لا تخلو من التَّقرير والمباشرة؛ نتيجة لانطلاق معظم شعراء الأحزاب السِّياسيَّة أو خطبائها من رؤىٰ أحزابهم السِّياسيَّة أو مناقشة قضايا نصوصهم الفنِّيَّة بالانطلاق من زوايا الرُّؤية الَّتي تؤمن بها أحزابهم السِّياسيَّة أو تنطلق منها.

٣ أثرها في المستقبِل أو المؤوِّل

لعلَّ تأثير الأيديوجيا الأكبر علىٰ مستوىٰ الاستقبال أو التَّأويل يكون من خلال الطَّعن في نزاهة المؤوِّل أو تعصُّبه لرأيه أو بعده عن المنطق والعقلانيَّة

---

[1] البُّخاريُّ، الإمام محمَّد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة، **صحيح البخاريِّ**، حقَّق أحاديثه وعلَّق عليه: محمَّد ناصر الدِّين الألبانيُّ، دار الصَّدِّيق للنَّشر والتَّوزيع، ط٤، الرِّياض ١٩٩٧.م، ج٣، ص ١٨٠.

[2] للتوسُّع في ذلك يُنظر: الجرَّاح، عامر، **الإجراءات التَّداوليَّة التَّأثيريَّة في التُّراث العربيِّ بين التَّأويل والحِجاج والإنجاز**، دار سنابل، ط١، إسطنبول ٢٠١٩م، ص ١٠٩.

والموضوعيَّة، ولا سيَّما حين يلجأ إلىٰ استقبال النُّصوص استقبالًا خاصًّا به، أو يؤوِّلها تأويلًا خارج سياقها التَّاريخيِّ أو الثَّقافيِّ الَّذي أنتجها، هذا إن لم يلوِ المؤوِّل المؤدلج عُنقَ النَّصِّ الأدبيِّ لإثبات وجهات نظر غير منطقيَّة، أو إن لم ينطلق من زاوية تأويليَّة خاصَّة به، قد لا تنسجم مع عتبات النَّصِّ أو مفاتيحه الدَّلاليَّة أو مقولته الرَّئيسة، ولربَّما يدخل المؤوِّل المؤدلج في تأويلات طوطميَّة لا روح فيها أو معنىٰ، وقد ينتقل من حيِّز تأويل النَّصِّ أو دراسة جماليَّاته وهَنَاتِه معًا إلىٰ حيِّز مدح المرسل ذاته، ولربَّما يكون النَّصُّ في أصله نصًّا مُنتحَلًا؛ ولهذا كلِّه لم يسلم كثير من المذاهب الأدبيَّة والمناهج النَّقديَّة من نقد علميٍّ حصيف؛ فالبنيويَّة حين تنادي بموت المؤلِّف تُعلي شأن الرِّسالة ذاتها، مع أنَّ الرِّسالة قد تحتوي في كثير من الأحيان علىٰ مواقف مؤدلجة تنافي الحقيقة أو لا تنسجم مع سياقها التَّاريخيِّ، ومع ذلك ندرك أنَّ قول الحقيقة المطلقة أو الحقيقة الأخلاقيَّة ليس مهمَّة النَّصِّ الفنِّيِّ الرّئيسة؛ ومهما يكن يجب إلَّا يكون النَّصَّ الفنِّيَّ أو الكذب الفنِّيَّ فيه مطيَّة للكذب أو التَّهويل أو التَّدليس؛ ومن هنا فإنَّنا قد نستسيغ الكذب الفنِّيَّ لتمرير مقولات جماليَّة إمتاعيَّة؛ لكنَّنا -بكلِّ تأكيد- لن نستسيغه إذا صار مطيَّة للكذب والتَّدليس والتَّزوير وتحقيق الأيديولوجيَّات الزَّائفة، ولعلَّ الخطأ الأكبر الَّذي تقع فيه كثير من الدِّراسات الأسلوبيَّة يتجلَّىٰ في نظرتها التَّأويليَّة الضَّيِّقة والابتعاد عن نظرة الفيلولوجيا الشُّموليَّة؛ ولا سيَّما حين ينتقي بعض الأسلوبيِّين دوالَّ محدَّدة؛ ليبنوا عليها نتائج أكبر منها. ولعلَّ منهج التَّأويل النِّفسيِّ للنُّصوص يتقاطع في كثير من مزالقه التَّأويليَّة مع مزالق التَّأويل الأيديولوجيِّ حين يُسهب

المؤوِّل في تأويل النُّصوص معتمدًا علىٰ مصطلحات نفسيَّة وإسقاطات سيكولوجيَّة قد تكون صحيحة، ولربَّما تكون بعيدة جدًّا عن الصِّدْقَين: الحقيقيِّ والفنِّيِّ معًا.

٦ خاتمة الفصل ونتائجه

كشف هذا الفصل عن أهمِّيَّة العودة إلىٰ الفيلولوجيا أو بيَّن ضرورة العودة إليها؛ لنبدأ منها ونحن نسعىٰ إلىٰ بناء علم الدَّلالة النَّصِّيِّ الشُّموليِّ، وإذا كانت اللِّسانيَّات النَّصِّيَّة تمدُّنا بأحدث النَّظريَّات التَّأويليَّة فإنَّ العودة إلىٰ الفيلولوجيا ستضعنا علىٰ أرض منهجيَّة صُلبة وأصيلة؛ لأنَّ الفيلولوجيا تنطلق في تأويلها من ضبط النُّصوص وقراءتها وتحقيقها من أجل فهمها وتأويلها، وتبيَّن لنا ضرورة التَّنبُّه إلىٰ الفروق الدَّقيقة بين مصطلح الفيلولوجيا الغربيِ من جانب ومصطلحَي: فقه اللُّغة وعلم اللُّغة العربيَّين وعدم التَّطابق بين هذه المصطلحات من جانب آخر؛ لذلك يبدو ترجمة مصطلح الفيلولوجيا بمصطلح: (فقه اللُّغة المقارن) أكثر دقَّة من المقاربات الأخرىٰ في وقتنا الرَّاهن؛ ولا سيَّما أنَّ مفهوم المقارنة لا يقتصر علىٰ محايثة نصٍّ بنظيره أو شبيهه، وإنَّما يتعدَّىٰ ذلك إلىٰ مقارنة النَّصِّ بسابقاته ولاحقاته من النُّصوص؛ من أجل تأويله في سياقاته اللُّغويَّة والتَّاريخيَّة وظروفه الثَّقافيَّة والسِّياسيَّة؛ ليجد الباحث المؤوِّل نفسه أمام سياقات متعدِّدة، لا يستوعبها كثير من مناهج الدِّراسة الحديثة، وأسئلة لا تفسِّرها نظريَّات النَّقد المستوردة.

وإن كان الخوض في تأويل أيِّ نصٍّ يستدعي فهم عصره وإدراك مقدِّماته التَّاريخيَّة فإنَّ المؤوِّل الحصيف سيدرك حاجته الكبيرة لفهم بدايات

الفيلولوجيا ونظريَّات التَّأويل وعلاقاتها بالأيديولوجيا الَّتي تؤكِّد أنَّ النُّصوص صور عن مرسليها وتعبير عن أفكارهم وظروفهم وسياقاتهم في الدَّرجة الأولىٰ؛ «وهذا يعني أنَّ الآراء والأقوال والقضايا والمذاهب لا تُؤخذ بمعناها الظَّاهريِّ، ولكنَّها تُفسَّر علىٰ ضوء الوضع الحياتيِّ لمن يُدلي بها. كذلك فإنَّه يعني أنَّ الصِّفات الخاصَّة بالذَّات ووضعها الحياتيَّ يؤثِّر [في] آرائها وإدراكاتها وتفسيراتها»[1]؛ ولعلَّ هذا التَّنازع الشَّديد علىٰ الدَّلالة بين حصافة الفيلولوجيا ونفعيَّة الأيديولوجيا من أبرز ما يؤكِّد علىٰ ضرورة استكمال علم الدَّلالة النَّصِّيِّ ورفده ببحوث تطبيقيَّة أخرىٰ، تكشف حصافته، وتزيد من رسوخه واستقراره.

---

[1] مانهايم، كارل، **الأيديولوجيا واليوتوبيا (مقدِّمة في سوسولوجيا المعرفة)**، ترجمة وتقديم: محمَّد رجا عبد الرَّحمن الدَّيرينيِّ، شركة المكتبات الكويتيَّة، ط١، الكويت ١٩٨٠.م، ص ١٣٠.

	الفصل الخامس علم الدَّلالة الجيوسياسيُّ (دراسة حيويَّة في العوامل المؤثِّرة في توجيه الشُّعوب وقيادتها)	١٨٢–٢١٠
١	مدخل إلىٰ علم الدَّلالة الجيوسياسيِّ	١٨٣–١٨٦
٢	علم الدَّلالة الجيوسياسيُّ (مفهومه ومصادره)	١٨٦–١٨٧
٣	مصادر علم الدَّلالة الجيوسياسيِّ	١٨٧–١٩٦
أ	فقه اللُّغة المقارن	١٨٧–١٩٠
ب	الجغرافية السِّياسيَّة	١٩٠–١٩٦
٣	موقع الإنسان في علم الدَّلالة الجيوسياسيِّ	١٩٩–٢٠٦
٤	علم الدَّلالة الجيوسياسيُّ من قلب الأرض إلىٰ قلب اللُّغة	١٩٦–٢٠٣
٥	اللُّغة والوعي السِّياسيُّ	٢٠٧–٢٠٩
٦	خاتمة الفصل ونتائجه	٢١٠–٢١٠
٧	خاتمة الكتاب	٢١١–٢١٣
٨	ثبت المصادر والمراجع	٢١٤–٢٢٤

١ مدخل إلىٰ علم الدَّلالة الجيوسياسيِّ Geopolitical Semantics

علم الدَّلالة الجيوسياسيُّ Geopolitical Semantics علم حديث النَّشأة راح يتبلور في مطلع القرن الحادي والعشرين بعدما انتظمت روافده وأدواته المنهجيَّة ونظريَّاته المعرفيَّة في إطار تنظيميٍّ متكامل، ولا سيَّما تلك الرَّوافد الَّتي قدَّمها كلٌّ من **فقه اللُّغة المقارن Comparative Philology** **والجغرافية السِّياسيَّة Political geography** **واللِّسانيَّات الجنائيَّة أو علم اللُّغة القضائيُّ Forensic Linguistics**. وقد برز دور **اللُّغة Language** جليًّا في هذا العلم، مثلما شكَّل **إنسان اللُّغة المتمدِّن Civilized Language Human** أو المعاصر محوره أو مركزه الرَّئيسيَّ بوصفه سائسًا أو مَسُوسًا؛ لأنَّه صانع التَّاريخ ومدوِّن النُّصوص وشاغل الحيِّزِ الحيويَّ ومُنْتِج علم الدَّلالة الجيوسياسيَّ، الَّذي استقلَّ-إلىٰ حدٍّ ما-عن **علم الدَّلالة العامِّ General Semantics**، وراح يتميَّز منه في جوانب عدَّة، ولا سيَّما من ناحية تركيزه علىٰ المتلقِّي لانتقاء أفضل الأساليب السِّياسيَّة وأنجع الوسائل الحِجاجيَّة للتَّأثير فيه وسياسته أو قيادته وتوجيهه، وبرغم استقلال هذا العلم عن علم الدَّلالة العامِّ ما تزال الكتابة العربيَّة في ميدانه ضحلة أو قليلة جدًّا، ولعلَّ هذا البحث من أوائل البحوث العربيَّة في هذا الميدان، إن لم يكن أوَّلها جميعًا، ولا سيَّما من حيث ضبط المصطلح العلميِّ وتوظيفه وتحديد مفهوم هذا العلم وروافده ومجالات تطبيقه.

تسعىٰ العلوم والمعارف الإنسانيَّة إلىٰ فهم تاريخ البشريَّة بعلومه وفنونه المتعدِّدة، وتنزع إلىٰ تعليل أحداث التَّاريخ البارزة نهوضًا أو نكوصًا من خلال دراسة حيِّزها الحيويِّ الَّذي أنتجها؛ فللأحداث السِّياسيَّة عللُها وأسبابها وسياقاتها وظروفها وتطوُّراتها وتحوُّلاتها ونتائجها، ولعلَّ علماء الدَّلالة والسَّاسة والقادة المتميِّزين من أبرز الشَّخصيَّات العالميَّة الَّتي فهمت أدقَّ أحداث التَّاريخ السِّياسيِّ العالميِّ وأكثرها تعقيدًا، أو تنبَّأت بها قبل وقوعها، أو أثَّرت فيها علىٰ أقلِّ تقدير؛ لذلك استطاعت قيادة شعوبها إلىٰ برِّ الأمان؛ ومن هنا تأتي أهمِّيَّة **علم الدَّلالة الجيوسياسيِّ** بوصفه فرعًا حديثًا من فروع **علم الدَّلالة العامِّ**، ومدخلًا أساسيًّا متميِّزًا من مداخل المعرفة الإنسانيَّة، بما لديه من منهجيَّة وأدوات تساعد المتلقِّين من رجال السِّياسة والقانون والقادة العسكريِّين والباحثين في الشُّؤون السِّياسيَّة والاستراتيجيَّة علىٰ استقراء الحيِّز الحيويِّ وفهمه واستيعابه من خلال صورة شموليَّة ترسمها تلك الأدوات المنهجيَّة المتكاملة.

ظهرت في الآونة الأخيرة مجموعة كبيرة من العلوم الإنسانيَّة من خلال **طريقة من اثنتين؛ أولاهما**: طريقة الاستقلال عن علوم شموليَّة، ثمَّ ينمو الفرع الحديث وتكتمل أدواته المنهجيَّة؛ ليغدو علمًا مستقلًّا بذاته، **وأُخراهما**: تجمُّع فروع عدَّة من علوم متشابهة أو متقاربة أو متباعدة أحيانًا ثمَّ انتظامها

وتجانسها في دائرة منهجيَّة واحدة؛ لتغدو علمًا مستقلًّا؛ له أدواته المنهجيَّة ومفاتيحه الأسلوبيَّة والتَّطبيقيَّة المتكاملة. ولعلَّ **الدَّلاليَّات Semantics واللِّسانيَّات Linguistics والسِّيميائيَّات Semiotics** وسائر العلوم اللُّغويَّة من أكثر الميادين البحثيَّة الَّتي يتجلَّىٰ فيها تشكُّل كثير من العلوم وتبلورها في الآونة الأخيرة بواحدة من الطَّريقتين السَّالفتين، فقد ظهر لدينا مؤخَّرًا، علىٰ سبيل المثال لا الحصر، كثير من فروع اللِّسانيَّات الحديثة والدَّلاليَّات المعاصرة؛ **كاللِّسانيَّات الحاسوبيَّة Coputational Linguistics**، الَّتي تشكَّلت من اجتماع البرمجتين: الحيويَّة والإلكترويَّة معًا؛ **البرمجة الحيويَّة Vitality Programming** كمبادئ برمجة الطِّفل العصبيَّة حين يكتسب لغته الأمّ، **والبرمجة الإلكترونيَّة Electronic Programming** كطريقة العلوم الحاسوبيَّة في محاكاة البرمجة الذِّهنيَّة أو العصبيَّة أو الحيويَّة لدىٰ الإنسان وصناعة لغة برمجيَّة تطبيقيَّة شبيهة بها، **وعلم اللُّغة القضائيُّ أو اللِّسانيَّات الجنائيَّة Forensic linguistics** الَّتي ظهرت في مطلع القرن الحادي والعشرين بوصفها فرعًا حديثًا من الدِّراسات الدَّلاليَّة، الَّتي تهتم بالأدلَّة اللُّغويَّة والقانونيَّة والجنائيَّة، و«تمتدُّ عبر طيف من المجالات: بدءًا من مسألة الأصل في التَّأليف ونسبة مكتوب إلىٰ مؤلِّفه

[وصولًا] إلىٰ الطَّرف الآخر من الطَّيف وهو الجنايات الإجراميَّة الَّتي تستخدم اللُّغة أداة فيها»[١].

٢ علم الدَّلالة الجيوسياسيُّ (مفهومه ومصادره)

تُنظِّم منهجيَّة علم الدَّلالة الجيوسياسيِّ مادَّته المعرفيَّة الَّتي يستقيها من روافده المتعدِّدة والمتزايدة يومًا بعد آخر؛ ولعلَّ إنسان اللُّغة -منتج علم الدَّلالة الجيوسياسيَّ ومستثمره- يحظىٰ مع لغته بأهميَّة حيويَّة تجعل الإنسان ولغته في مركز هذا العلم؛ فباللُّغة يتواصل البشر، وبها دوَّنوا علومهم وفنونهم وأخبارهم؛ لذلك صارت اللُّغة رديف الحضارة، الَّذي يقرِّر معها إمكانات الأمم بحسب **ج. غ. هردر (J. G. Herder) (١٧٤٤-١٨٠٣.م)**، «يُضاف إليهما الواقع الجغرافيُّ بما يميله من مؤثِّرات بيئيَّة ومناخيَّة»[٢]، وقد كشفت سيرورة التَّاريخ عن أهميَّة دراسات هِردَر الجيوسياسيَّة، الَّتي راحت تصدق معها بعض نبوءاته، الَّتي أدلىٰ بها، ودوَّنها في كتبه منذ **١٨٠٢**.م[٣].

حين عرَّف العلماء علم الدَّلالة العامَّ بيَّنوا أنَّ البحث عن معاني الأشياء ودلالاتها غاية هذا العلم الَّذي عرَّفوه بأنَّه: «**دراسة المعنىٰ**» **أو** «**العلم الَّذي يدرس المعنىٰ**» **أو** «**ذلك الفرع الَّذي يدرس الشُّروط الواجب توافرها في الرَّمز**

---

[١] العصيميُّ، صالح بن فهد، **اللِّسانيَّات الجنائيَّة (تعريفها ومجالاتها وتطبيقاتها)**، منشورات مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدُّوليُّ لخدمة اللُّغة العربيَّة، ط١، الرِّياض **٢٠٢٠**.م، ص **٢٥**.

[٢] **لغات الفِرْدَوس**، ص **١١٦**.

[٣] يُنظر: **لغات الفِرْدَوس**، ص **١٢٢**.

حتَّىٰ يكون قادرًا علىٰ حمل المعنىٰ»[١]. وفي ضوء من تعريف علم الدَّلالة العامِّ يبدو لنا أنَّ علم الدَّلالة الجيوسياسيَّ: **علم سببيٌّ علمانيٌّ عقلانيٌّ شموليٌّ، يدرس معاني الأشياء المحيطة بالإنسان في حيِّزه الحيويِّ؛ قريبة منه أو بعيدة عنه، ظاهرة أو خفيَّة؛ لأنَّها أثَّرت في ماضيه، وتؤثِّر في حاضره ومستقبله؛ ليفهم الباحث الدَّلاليُّ دلالاتها، ويوظِّفها علىٰ شكل مؤشِّرات أو قوانين دلاليَّة تساعد السَّاسة علىٰ قيادة المجتمع البشريِّ وتوجيهه نحو أهداف مقصودة. ويمكن تعريفه علىٰ نحو مختصر بأنَّه: مجموعة من المبادئ والعلامات تساعد علىٰ فهم الواقع بالاستناد إلىٰ تجربة جيوسياسيَّة في فهم التَّاريخ من أجل توجيهه بدءًا من حدود التَّأثير في الحاضر إلىٰ إمكانيَّة التَّنبُّؤ بأحداث المستقبل والتَّحكُّم بمجرياتها**[٢].

٣ مصادر علم الدَّلالة الجيوسياسيِّ

أ- فقه اللُّغة المقارن Comparative Philology

حظيت الفيلولوجيا أو فقه اللُّغة المقارن **Comparative Philology** بأهمِّيَّة بالغة لدىٰ معظم دارسي العلوم والفنون الإنسانيَّة، وشكَّلت الفيلولوجيا النَّقديَّة رافدًا مهمًّا من روافد علم الدَّلالة الحديث، الَّذي تبلور قبل علم الدَّلالة

---

[١] **علم الدَّلالة**، ص ١١.

[٢] يُنظر: سعيد، الصَّافي، **جيوبوليتيك الدَّم (التَّاريخ الأسير والجغرافية المتصدِّعة)**، منشورات سوتيميديا، ط٢، تونس ٢٠١٦م، ص ٣٧٩.

الجيوسياسيِّ بقرن كامل تقريبًا[1]؛ فقد ازدهرت الدِّراسات الفيلولوجيَّة بعد وثيقة **وليام جونز (William Jones)** (١٧٤٦-١٧٩٤م) حول الأصول واللُّغات الهندو_أوروبِّيَّة، الَّتي أعلن عنها في تاريخ **٢** شباط/ فبراير **١٧٨٦**م[2]، ووجد **أرنيست رينان (Renan)** (١٨٢٣-١٨٩٢م) أنَّ الفيلولوجيَّ الحقَّ أقرب ما يكون من الباحث الدَّلاليِّ؛ لأنَّه من الواجب علىٰ هذا الفيلولوجيِّ أن يكون «فقيهًا لغويًّا ومؤرِّخًا وعالم آثار وفنَّانا وفيلسوفًا في آن معًا، و[رأىٰ] أنَّ الفيلولوجيا ليست هدفًا بذاتها، لكنَّ قيمتها تكمن في كونها شرطًا أساسيًّا لتاريخ الفكر الإنسانيّ»[3].

*****

ولا يخفىٰ علىٰ الباحث المدقِّق في لغات البشر القديمة والحديثة أنَّها تشكِّل مادَّة فقه اللُّغة المقارن، وأنَّ دراستها تحظىٰ بأهمِّيَّة كبيرة في كلٍّ من علم الدَّلالة العامِّ وعلم الدَّلالة الجيوسياسيِّ؛ لأنَّها تعبِّر عن فكر الإنسان، وتدخل في تشكيل هويَّته الشَّخصيَّة، وتكشف دراسة مدوَّنات الشُّعوب اللُّغويَّة معلومات مهمَّة عن عاداتهم وتقاليدهم وهجراتهم وحروبهم، ويساعد تأويلها علىٰ فهم الشُّعوب الَّتي أنتجتها وتحليل دساتيرها وقوانينها ومعاهداتها واتِّفاقيَّاتها، ولعلَّ فهم تاريخ الشُّعوب القديمة مرتبط بتحليل أفكار المعاصرين وفهمهم للوصول إلىٰ أكثر الطُّرق السِّياسيَّة نجاعة في توجيههم وقيادتهم والتَّنبُّؤ بمستقبلهم في بعض الأحيان أو كثير منها.

---

[1] يُنظر: الدَّاية، فايز، **علم الدَّلالة العربيُّ**، ص ٦. ويُنظر: **علم الدَّلالة**، ص ٢٢. ويُنظر: **مدخل إلىٰ علم الدَّلالة**، ص ٣١.

[2] يُنظَر: **لغات الفِرْدَوس**، ص٤٢-٤٣.

[3] **لغات الفِرْدَوس**، ص ١٢٧.

رفد فقهُ اللُّغة المقارن علمَ الدَّلالة الجيوسياسيَّ بمعلومات لغويَّة وأدوات منهجيَّة مهمَّة، جعلت التَّحقيق في نسبة المدوَّنات اللُّغويَّة -دينيَّة وأدبيَّة وفنِّيَّة؛ قديمة وحديثة- إلىٰ مؤلِّفيها ميدانًا خصبًا من ميادين علم الدَّلالة الجيوسياسيِّ؛ لأنَّ تلك المدوَّنات تسهم في توجيه الشُّعوب نحو ميول وسلوكيَّات محدَّدة، قد تؤدِّي إلىٰ اعتناق دين أو تبنِّي مذهب سياسيٍّ أو فلسفيٍّ أو عقائديٍّ معيَّن، وبعض تلك المدوَّنات ما زال يُدْرَس بلاغيًّا وأسلوبيًّا ودلاليًّا لمعرفة مدىٰ تأثُّرها بسابقاتها وتأثيرها فيما جاء بعدها من أساطير وآداب؛ كشريعة **حمورابي (١٨١٠-١٧٥٠ ق.م)**، الَّتي يعدُّها بعض الدِّارسين صلة وصلٍ بين الشَّرائع والآداب والأساطير القديمة والكتاب المقدَّس، ولا سيَّما أنَّ الواعظ الألمانيَّ **ويتر (H.B Witter)** (١٧١١.م) عبَّر عن شكوكه حول أصل تأليف الإنجيل The Bible والكتاب المقدَّس؛ نظرًا إلىٰ اختلاف تسميات الرَّبِّ في الأسفار الخمسة الأولىٰ Pentateuch من العهد القديم؛ لأنَّ تعدُّد التَّسميات قد يعني أنَّ أكثر من مؤلِّف أسهم في كتابته، «وفي وقت لاحق من القرن الثَّامن عشر نفسه توصَّلت الطَّبيبة الفرنسيَّة **جين أستروك (Jean Astruc)** إلىٰ استنتاج مماثل، في حين توصَّل أستاذ اللُّوثريَّة **Lutheran** جي كي **إيتشهورن (J.G Eichhorn)** ١٨١٢.م في جامعة جينا لنفس الاستنتاج تقريبًا بعد مئة سنة من رحيل ويتر، [ثمَّ] زاد اهتمام العلماء بمسائل

أصل تأليف الإنجيل مع ظهور النَّظريَّة الدَّارونيَّة **Darwinism** والنَّظريَّات المتَّصلة بها، وما زال مستمرًّا حتَّىٰ يومنا هذا»[١].

ب-الجغرافية السِّياسيَّة Political geography

كذلك رفدت الجغرافية السِّياسيَّة علمَ الدَّلالة الجيوسياسيَّ بقواعد منهجيَّة ونظريَّات دلاليَّة توازي معلومات فقه اللُّغة المقارن في أهمِّيَّتها؛ لذلك صار علم الدَّلالة العامَّ علمًا شموليًّا؛ وغدا التَّخصُّص فيه أو في أحد فروعه -كعلم الدَّلالة الجيوسياسيِّ- هدفًا لدىٰ كثير من **طلَّاب الدِّراسات العليا والمختصِّين في الدَّلاليَّات والسِّيميائيَّات واللِّسانيَّات، ناهيك عن رجال السِّياسة والقانون والقضاة والقادة العسكريِّين**؛ نظرًا لشموليَّة هذا العلم ودقَّة منهجيَّته وتعدُّد نظريَّاته الدَّلاليَّة، الَّتي تُسهِّل لهم أعمالهم، وتساعدهم في مهامهم، ويجب إلَّا نغفل أنَّ الجغرافية السِّياسيَّة بوصفها مصدرًا من مصادر علم الدَّلالة الجيوسياسيّ تقدِّم معلومات مهمَّة للغاية، ترتبط بالزَّمان والمكان ومصادر الطَّاقة في بيئة ما، فقد عُرِّفت **الجغرافية السِّياسيَّة Political geography** بأنَّها: «العلم الَّذي يختصُّ بدراسة الأقاليم والوحدات السِّياسيَّة. ويركِّز في هذه الدِّراسة علىٰ مقدار ما تسهم به العوامل الجغرافيَّة ومعطياتها الطَّبيعيَّة والبشريَّة في قيمة الدَّولة وفي اتَّجاهات السُّلوك

---

[١] أولسون، جون، **علم اللُّغة القضائيُّ (مقدّمة في اللُّغة والجريمة والقانون)**، ترجمة: محمَّد بن ناصر الحقبانيُّ، منشورات جامعة الملك سعود، ط١، الرّياض ٢٠٠٨م، ص ٩.

السِّياسيِّ وأسلوبه؛ حيث تبيَّن أنَّ عوامل الجغرافية تلعب دورًا لا يمكن تجاهله في تشكيل الكيان السِّياسيِّ للدُّول»[1].

*****

يُعرَّف علم السِّياسة Political Science أو فنُّ السِّياسة بأنَّه «علم بأصول يُعرف بها أنواع الرِّياسات والسِّيادات المدنيَّة وأحوالها. وفائدته: معرفة السِّياسات المدنيَّة الفاصلة بين الخصوم والإنصاف بينهم»[2]، ويوضِّح هذا التَّعريف شموليَّة علم الدَّلالة الجيوسياسيِّ وحيويَّته النَّاتجة عن تعدُّد أصوله ومصادره، الَّتي تمكِّنه من تفسير أيِّ نصٍّ من نصوص اللُّغة أو التَّاريخ أو الجغرافية السِّياسيَّة **Political geography** نظرًا لارتباط دلالات تلك النُّصوص بشروط السَّيطرة علىٰ المجال الحيويِّ بوصفه مسرح الأحداث التَّاريخيَّة، وحين نظَّم علم الدَّلالة الجيوسياسيُّ نظريَّاته ومصادره المعرفيَّة المتعدِّدة في دائرة منهجيَّة واحدة تحوَّل كثير من المعلومات القديمة السَّاكنة إلىٰ معارف حيويَّة؛ فقد صار كثير من نظريَّات الجغرافية السِّياسيَّة-كنظريَّة قلب الأرض علىٰ سبيل المثال-نظريَّات حيويَّة؛ ولذلك مكَّن علم الدَّلالة الجيوسياسيُّ الدَّارسين من تفسير ما يطرأ علىٰ العالم «من تبدُّلات وتقدير النَّتائج المترتِّبة علىٰ تدخُّل الإنسان بالتَّوازنات القائمة والتَّطوُّرات الَّتي قد

---

[1] محمَّد، محمَّد حجازيّ، **الجغرافية السِّياسيَّة**، القاهرة **١٩٩٦**.م، طبعة دون تصنيف، ص ٨.

[2] **خزانة العلوم**، ص **١١٩**.

تُحدثها»[١]، وتأكَّد أنَّ كلًّا من فهم العالم وقيادته وتوجيهه يحتاج إلىٰ علم غزير مع حسن المنطق وقوَّة الفصاحة، وإدراك تأثير العوامل المتعدِّدة في توجيه الشُّعوب وقيادتها؛ ومن هنا تبرز أهمِّيَّة علم الدَّلالة الجيوسياسيِّ بوصفه علمًا شموليًّا حديثًا ذا منهجيَّة واضحة ودقيقة في تفسير سيرورة التَّاريخ[٢].

اتَّجهت أوروبَّا في بداية نهضتها الحديثة نحو العلوم الشُّموليَّة؛ نظرًا لدور تلك العلوم في تفسير سيرورة التَّاريخ، ولعلَّ فقه اللُّغة المقارن والجغرافية السِّياسيَّة يأتيان في مقدِّمة العلوم الَّتي اهتمَّ بها الأوروبيُّون خصوصًا، بعدما أدركوا أهمِّيَّة هذين العلمين في نقاشاتهم الفلسفيَّة والدِّينيَّة والدَّلاليَّة والبلاغيَّة الطَّويلة. وكذلك استعانوا بتلك العلوم في تحليل الأدلَّة الأثريَّة (**Archeology**) وقراءة اللُّغات القديمة أو ترجمتها وتأويلها حين تمدَّدت دولهم في دول حضارات الشَّرق القديم خلال آخر مئة وخمسين سنة من ضعف الدَّولة العثمانيَّة بين **١٧٦٥-١٩١٥**.م؛ ولا سيَّما أنَّ معظمهم كانوا من المشغوفين بالبحث عن أصول عريقة؛ (عرقيَّة ولغويَّة ودينيَّة) ينافسون بها أصول السَّاميِّين في مشرقهم، ثمَّ تكرَّست أهمِّيَّة العلوم الشُّموليَّة حين وجد علماء أوروبَّا ما يروي شغفهم في آلاف المدوَّنات الشَّرقيَّة الدَّفينة في تلال

---

[١] سليرييه، الأميرال بيير، **الجغرافية السِّياسيَّة والجغرافيَّة السِّتراتيجيَّة**، ترجمة: أحمد عبد الكريم، الأهالي للنَّشر والتَّوزيع، ط١، دمشق **١٩٨٨**م، ص **٩**.

[٢] يُنظَر: الصَّلَّابيُّ، عليُّ محمَّد محمَّد، **السِّيرة النَّبويَّة (عرض وقائع وتحليل أحداث، دروس وعبر)**، منشورات دار ابن كثير، ط **٩**، دمشق **٢٠١٩**.م، ج**٢**، ص **٣٥١-٣٥٣**. ويُنظَر: **الجغرافية السِّياسيَّة والجغرافيَّة السِّتراتيجيَّة**، من مقدِّمة المترجم، ص **٥**.

الممالك القديمة الممتدَّة من أهرامات مصر الفرعونيَّة إلىٰ تلال الممالك السُّوريَّة في ماري وإيبلا وأوغاريت (رأس شمرا)، وعثروا علىٰ آلاف الوثائق الدَّلاليَّة حول العلوم والفنون والآداب في سهول العراق الممتدَّة من (أُور) جنوبًا إلىٰ ما بعد أكاد وآشور وبرج بابل وتلالها شمالًا؛ فتبلور علم الدَّلالة الحديث، وراحت تتبدَّىٰ ملامح اتِّساع علم الدَّلالة العامِّ، وتتكشَّف أَمَارات انقسامه إلىٰ علوم دلاليَّة متعدِّدة؛ أحدَثُها علم الدَّلالة الجيوسياسيُّ الَّذي نتحدَّث عنه.

*****

ساعد علم الدَّلالة العامُّ فلاسفة أوروبَّا علىٰ تأويل كثير من مدوَّنات **زرادشت في كتاب (أفسته وشرحه الزَّند أفسته) ومدوَّنات أناشيد الفيدا السَّنسكريتيَّة** في الهند، وبعدما وضع **وليام جونز** في وثيقته الشَّهيرة إطارًا تنظيميًّا لجهودهم الدَّلاليَّة راحوا يتحدَّثون عن الأبعاد الآريَّة: (الدِّينيَّة واللُّغويَّة والعرقيَّة والقوميَّة...) الَّتي ينطوي عليها مصطلح (الهندو-أوربِّي)؛ فظهرت بذور علم الدَّلالة الجيوسياسيِّ، وتلقَّف الفلاسفة وعلماء فقه اللُّغة المقارن في ألمانيا وثيقة وليام جونز حول الأصول الهندو-أوروبِّيَّة بشغف، وأظهرت العقليَّة الجرمانيَّة المذهبيَّة مادِّيَّتها وأسطوريَّتها الدِّينيَّة المنشودة في الوقت الَّذي كان فيه **فريدريك راتزل (Friedrich Ratsel) (١٨٤٤-١٩٠٤م)** يسعىٰ «إلىٰ بناء مذهبه كأسلوب للعمل السِّياسيِّ القوميِّ؛ ومن هنا نشأت نظريَّة المجال الحيويِّ العزيز علىٰ النَّازيَّة»[١]، وأكمل كلٌّ من **يوهان جوتفرد هردر**

---

[١] **الجغرافية السِّياسيَّة والجغرافيَّة السّتراتيجيَّة، ص ٢٢.**

(١٧٤٤-١٨٠٣م) **وأغسطس لودفيك فون شلوزر (١٧٣٥-١٨٠٩م)** رؤية **وليام جونز** التَّوراتيَّة حول الأصول الهندو-أوروبيَّة بإطلاق مصطلح اللُّغات السَّاميَّة علىٰ اللُّغات الشَّرقيَّة القديمة: (الأكديَّة والآراميَّة والعبريَّة والسِّريانيَّة والعربيَّة) بالاستناد إلىٰ رؤية دينيَّة توراتيَّة حول أبناء نوح عليه السَّلام: حام وسام ويافث، ثمَّ تكرَّست بعد ذلك نظريَّات أخرىٰ متعدِّدة؛ قوميَّة وعرقيَّة، لا يخلو بعضها أو كثير منها من عنصريَّة مقيتة، وراح أصحابها يتحدَّثون -في موازاة نظريَّتي: العناية الإلهيَّة وشعب الله المختار العبريَّتين- عن فروق عرقيَّة بين الأقوام، واستعدادات فطريَّة لدىٰ بعض الشُّعوب؛ بتأثير مباشر لمجموعة من العوامل الجيوسياسيَّة؛ تأتي في مقدِّمتها الجغرافية السِّياسيَّة والرُّؤية الدِّينيَّة التَّوراتيَّة[١].

ولعلَّ وطننا العربيَّ الحديث تعرَّض لكثير من آثار تلك العصبيَّة المقيتة، ولا سيَّما بعد أن كرَّس إسرائيل ولفنسون (**Israel Wolfensohn**) (١٨٩٩-١٩٨٠م) من خلال كتابه: (**تاريخ اللُّغات السَّاميَّة**) كثيرًا من الآراء العنصريَّة الَّتي طرحها قبله الفلاسفة الألمان وعلماء الدَّلالة الأوروبِّيُّون المستندون إلىٰ وثيقة **وليام جونز** ورؤيته التَّوراتيَّة، وقد استغلَّ ولفنسون موقعه أستاذًا للآداب الشَّرقيَّة واللُّغات السَّاميَّة في دار العلوم والجامعة المصريَّة في مطلع القرن العشرين، وأسهم في تجيير علم الدَّلالة الجيوسياسيِّ وأهدافه العلميَّة والإنسانيَّة الحقَّة لصالح أغراض نفعيَّة

---

[١] يُنظر: **لغات الفِرْدَوس**، ص ١١٠-١١٧.

مكيافيليَّة؛ ولا سيَّما حين أسهب في الحديث عن عراقة الكنعانيِّين دون سواهم، وحاول تكريس نظريَّتي: العناية الإلهيَّة وشعب الله المختار[1].

*****

وقد نقل نفر كبير من الباحثين والمؤلِّفين العرب في مجال اللُّغات الشَّرقيَّة وفقه اللُّغة المقارن كثيرًا من آراء **ولفنسون** بوصفها مُسَلَّمات أو بديهات لا تقبل النِّقاش أو التَّفنيد، وبرغم أنَّه لا ضير في التَّقسيم النَّظريِّ ذاته، ولا سيَّما إذا كان هذا التَّقسيم لغايات دراسيَّة أو تعليميَّة، إلَّا أنَّ الدِّراسة الجيوسياسيَّة للعالَم العربيِّ تكشف عن التَّأثير السَّلبيِّ لتلك التَّقسيمات السَّالفة في واقعنا المعاصر، وتؤكِّد ما تحتوي عليه آراء ولفنسون من تعصُّبٍ لأعراق محدَّدة وعنصريَّة تجاه شعوب وأقوام أخرىٰ؛ ولعلَّ كثيرًا من جوانب تلك العنصريَّة وتفريعات ذلك التَّعصُّب يتقاطع مع رؤية **راتزل** العنصريَّة، الَّتي تسهب أو تتمادىٰ في الحديث عن أثر الحيِّز الحيويِّ في طبائع الشُّعوب ودوره الكبير في تكوين الإنسان وتحديد «قابليَّة الشُّعوب وقدرتها علىٰ التَّأثير في الطَّبيعة وتنظيمها وإصلاحها. وهذا يعني أنَّ مؤهِّلات الشُّعوب للتَّنظيم والقيادة تتفاوت فيما بينها؛ أي قدرتها علىٰ حكم نفسها أو فرضها السُّلطة علىٰ الآخرين تختلف من شعب لآخر. كما يمكن لهذه الملَكات أن تذبل وتختفي نهائيًّا، ويمكن أيضًا أن تغرس وتنمَّىٰ: وهكذا نستطيع أن نتلمَّس في هذه

---

[1] يُنظر: **تاريخ اللُّغات السَّاميَّة**، ص **٢٣-٢٦**.

النَّظريَّة شيئًا من الرُّوح العنصريَّة أو التَّفوَّق العنصريِّ»[١]. وحين امتلك الأوروبِّيُّون القوَّة الاستعماريَّة والتَّفوُّق تجلَّت مسألة التَّمييز العنصريِّ بين أمَّة وأخرىٰ أو إنسان وآخر؛ لذلك يحظىٰ مفهوم الإنسان بأهمِّيَّة مركزيَّة في علم الدَّلالة الجيوسياسيِّ؛ لأنَّ الإنسان منتِج العلوم والفنون ومتلقِّيها والمستفيد منها وصانع تاريخ البشريَّة ومفسِّره ومؤوِّله.

٤ موقع الإنسان في علم الدَّلالة الجيوسياسيِّ

أعادت مركزيَّة الإنسان في علم الدَّلالة الجيوسياسيِّ النِّقاش حول أصل الإنسان وخلق الكون إلىٰ دائرته الأولىٰ، وظلَّت أساطير الخلق والطُّوفان القديمة المدوَّنة باللُّغة الأكديَّة والخطِّ المسماريِّ مرجعًا مهمًّا للباحثين برغم تطوِّر الفيزياء وبزوغ ملامحها الشُّموليَّة في نظريَّات **إسحاق نيوتن (Isaac Neoton** (١٦٤٢-١٧٢٧م) **وألبيرت آينشتاين (Albert Einstein) (١٨٧٩-١٩٥٥م)**، وبعد أن أثبتت التَّجارب صحَّة قوانين الفيزياء في حساب القوىٰ الكبيرة والصَّغيرة فوق الأرض وخارجها، وتأكَّدت دقَّتها في قياس المسافات الشَّاسعة بين الأجسام والكواكب راحت الفيزياء تقدِّم آراءها الشُّموليَّة حول أصل الكون والإنسان في نظريَّات: **الانفجار الأعظم والأوتار المحدَّبة والمُتَفَرِّدات**؛ لكنَّ الفيزياء برغم علميَّتها الدَّقيقة ما زالت تستعين بالدِّين لتفسير وجود القوَّة الهائلة الَّتي احتاجها الانفجار الأعظم في بداية الكون، في حين تقول **نظريَّة المُتَفَرِّدات**: إنَّ بداية الكون حدث متفرِّد قديم

---

[١] الجغرافية السِّياسيَّة والجغرافيَّة السِّتراتيجيَّة، ص ٢٣.

جدًّا، يصعب تحديده بدقَّة، مثلما يصعب التَّنبُّؤ بنهايته، وقد حَدَث هذا المتفرِّد-الَّذي أسفر عن وجود الإنسان لاحقًا-بتأثير طاقة هائلة، لا يعرف العلم مصدرها، في حين تسمِّي الأديان والميثولوجيا هذه الطَّاقة أمر الله أو إرادة الإله؛ و«لذلك قد يكون علىٰ المرء أن يلجأ إلىٰ الله، لقد كان من الممتع أن تراقب التَّقلُّب في الآراء إزاء المتفرِّدات...فإنَّ الجميع تقريبًا يعتقدون بأنَّ الكون قد ابتدأ بمتفرِّد تنهار عنده قوانين الفيزياء، لكنَّني أظنُّ الآن أنَّه [برغم وجود] المُتفرِّد، فإنَّ قوانين الفيزياء ما تزال تستطيع تحديد كيفيَّة ابتداء الكون»[١]، وما زال العلماء يطوِّرون نظريَّاتهم حول نشأة الكون وسيرورته، ولعلَّهم قد زادوا من بحثهم في مجال نظريَّة **الأوتار المحدَّبة**، الَّتي يتوقَّعون منها أن تحلَّ فكرة تحدُّب الزَّمان والمكان (الزَّمكان) نتيجة وجود الطَّاقة والمادَّة فيهما؛ حيث تأخذ الكواكب والطَّاقة مسارها الأقصر داخل هذا التَّحدُّب، وإن أمكن تمثيل حركة المادَّة أو الطَّاقة في حيِّز الزَّمكان فإنَّها ستظهر علىٰ شكل دوران حلزونيٍّ حول مثلَّث أو هرم؛ وهو ما يعني سلوك الطَّاقة مسارها الزَّمكانيِّ السَّلس الأقصر، وأيُّ مادَّة تخرج عن المسار يعني موتها أو تلاشيها أو اصطدامها بحافَّة الزَّمكان[٢].

---

[١] هوكينغ. ستيفن، **الثُّقوب السَّوداء والأكوان الطِّفلة ومواضيع أخرىٰ**، ترجمة: حاتم النَّجديُّ، مراجعة: عبد الحليم منصور، دار طلاس للدِّراسات والتَّرجمة والنَّشر، ط١، دمشق ١٩٩٨م، ص ٧٩.

[٢] يُنظر: **الثُّقوب السَّوداء والأكوان الطِّفلة ومواضيع أخرىٰ**، ص ٨٠.

كلَّما ازدادت معرفة الإنسان علَّل مظاهر الكون ونظريَّاته بطريقة أكثر علميَّة ومصداقيَّة، وتبلورت ملامح العلم الشُّموليِّ الَّذي يفسِّر وجود الإنسان وسيرورة التَّاريخ من بداية الكون إلىٰ ما بعد العولمة، ويروي شغف العلماء بحقائق مهمَّة عن آبائنا الأوَّلين وموطنهم الأصليِّ؛ فالابن «الحكيم هو الَّذي يعرف أباه، والأب الحكيم هو من يعرف شيئًا ذا بال عن موطن نشأتنا الأولىٰ، والسَّبب في أنَّنا نتصرَّف بطريقة معيَّنة بالذَّات، فنحن نعيش في عالم مخيف معقَّد تحكمه الآلات والحروب ولكنَّنا نعتمد في حياتنا علىٰ بعضنا البعض، وقد أصبحنا بشرًا بطريقة ما، ثمَّ غدونا أناسًا متحضِّرين متمدِّنين بشكل ما أيضًا»[١]؛ ولذلك ظلَّ الإنسان أهمَّ عنصر في علم الدَّلالة الجيوسياسيِّ، بل يظلُّ «الوسيلة والغاية لكلِّ تطوُّر، بصرف النَّظر عن أيِّ نظام اجتماعيٍّ أو سياسيٍّ أو اقتصاديٍّ، بل بصرف النَّظر عن أيِّ عقيدة أو أيديولوجية؛ ذلك أنَّها جميعها تهدف إلىٰ سيادة الحياة الكريمة وتأمينها له، والإنسان هو صانع التَّاريخ، ومروِّض الطَّبيعة ومسخِّرها، ولكنَّه في الوقت نفسه لا يستطيع التَّحرُّر من وطأة التَّاريخ، ولا يمكن التَّحرُّر من تأثيرات الطَّبيعة أو البيئة الَّتي يعيش فيها»[٢].

---

[١] هاولز. وليام، **ما وراء التَّاريخ**، ترجمة وتقديم: أحمد أبو زيد، محمَّد الجوهريُّ، المركز القوميُّ للتَّرجمة، ط١، القاهرة ٢٠١١م، ص ١٣.

[٢] **الجغرافية السِّياسيَّة والجغرافيَّة السِّتراتيجيَّة**، من مقدِّمة المترجم، ص ٥-٦.

يقدِّم علم الإنسان (الأنثروبولوجيا Anthropology) لعلم الدَّلالة الجيوسياسيِّ معلومات مهمَّة عن تاريخ الإنسان منذ نشأته الأولىٰ إلىٰ يومنا هذا؛ ولأنَّ كلَّ حديث عن البداية هو حديث ضمنيٌّ عن التَّسلسل والنِّهاية يحظىٰ هذا الجانب البحثيُّ بأهمِّيَّة كبيرة في علم الدَّلالة الجيوسياسيِّ، برغم عجز الدِّراسات عن التَّأريخ الدَّقيق للحظة وجود الإنسان الأولىٰ علىٰ سطح الكرة الأرضيَّة، وبرغم دخول كثير من النَّظريَّات في حيِّز الفرضيَّات البحتة والتَّخمين الخالص، فقد أشار العلماء إلىٰ حدود زمنيَّة تقرب من خمسة ملايين سنة سابقة، ظهر فيها مَن يمثِّلون الجنس البشريَّ (**Homo**)، وراحوا يتميَّزون من «إنسان أفريقيا الجنوبيَّة القديم (**Australopithecus**) الَّذي لم ينقرض مع ذلك، وبقي يعيش زمنًا طويلًا إلىٰ جانب المتحدِّرين منه. ثمَّ ظهر جنس الإنسان الماهر (**homo habilis**) عبر مجموعة من المراحل تمتدُّ إلىٰ بضعة ملايين من السِّنين. ويمكن تحديد فترة ظهوره قبل حوالي **٢٢٠٠٠٠٠** سنة؛ أي بين العصر البليو_بلستوسينيِّ (وهذا العصر نفسه يقع بين العصر الثَّالث والعصر الرَّابع من تاريخ الأرض) والعصر البلستوسينيِّ الحديث. ولقد انطلقت، منذ جنس الإنسان الماهر، حركة توسُّع بطيئة وذات اتِّجاه واحد كانت بمثابة مغامرة مذهلة يُعتبر الإنسان الحديث اليوم محصِّلتها، بانتظار نتائج أخرىٰ ستأتي بعد ملايين عدَّة من السِّنين القادمة، قد يحلو للخيال تصوُّرها بينما يعجز العلم عن التَّكهُّن بها»[١].

---

[١] **إنسان الكلام**، ص ١٩-٢٠.

تعدَّدت مصادر علم الدَّلالة الجيوسياسيِّ، وقدَّمت تصوُّراتها عن أصل الإنسان وهجراته القديمة وخطوطها وأسباب تعارف القبائل وتزاوجها، وفسَّرت الطَّفرة الوراثيَّة الَّتي طوَّرت أصوات الإنسان الصَّائد الجامع، وحوَّلت صيحاته البسيطة إلىٰ لغة بشريَّة في ظلِّ ما يُعرف بثورة الإنسان الذّكي أو ثورة الإنسان الحديث سلوكيًّا أو **الثَّورة النِّيوليثيَّة Neolithic Revolution**، الَّتي طوَّرت بدورها التَّواصل البشريَّ، وأدَّت إلىٰ تفوّق إنسان اللُّغة أو الإنسان الحديث سلوكيًّا علىٰ أنواع البشر الآخرين، وتسبَّبت بانقراضهم مع مرور الزَّمن؛ وتكاثرت جماعات إنسان اللُّغة الحديث سلوكيًّا، وتزاحمت شعوبه وقبائله حتَّىٰ وصلت إلىٰ أزمة الاكتظاظ المطلق أو **الأزمة المالتوسيَّة Maltus Disaster** نسبة إلىٰ توماس روبرت مالتوس (Thomas Robert Malthus) (**١٧٦٦-١٨٣٤**) وبسببها راح الإنسان يسعىٰ إلىٰ سدِّ حاجاته المتراكمة من الأمن والطَّعام في ظلِّ كثرة الطَّلب علىٰ الغذاء والطَّعام وقلَّة المعروض منهما، ناهيك عن الصَّراع الشَّديد علىٰ مصادر الطَّاقة والموارد الطَّبيعيَّة أيضًا؛ فدجَّن البشر الكلاب، وراحوا يسوسونها ويوظّفونها لخدمتهم والسَّيطرة علىٰ مجالاتهم الحيويَّة، واخترع الإنسان قوارب الهجرات البحريَّة والنَّهريَّة، وصنع أدوات الصَّيد؛ كالقوس والسَّهم؛ فتفاقمت الأزمة المالتوسيَّة، ووصلت إلىٰ ذروتها، بسبب نشاط حركة الإنسان وصراع القبائل علىٰ مصادر الرِّزق؛ فازدادت الحروب حتَّىٰ تمكَّن الإنسان من تدجين القمح في تلال كوبكلي تبَّه بالقرب من مدينة أورفة التّركيَّة حوالي **١٠٥٠٠-١١٠٠٠** قبل الميلاد في ظلِّ ما عُرف **بالثَّورة الزِّراعيَّة Agricultural Revolution**،

الَّتي لفتت انتباه الإنسان إلىٰ ضرورة اعتنائه بالأرض وحمايتها لفلاحتها وزراعتها بالقمح المدجَّن أو المكتشف حديثًا[1].

أدَّت الثَّورة الزِّراعيَّة إلىٰ تغيُّرات جذريَّة في حياة الإنسان الحديث سلوكيًّا، إلىٰ الحدِّ الَّذي دفع نفرًا من الباحثين إلىٰ القول: إنَّ الثَّورة الزِّراعيَّة دجَّنت الإنسان بدلًا من أن يدجِّن الإنسان حبَّات القمح؛ فتحوَّل إنسان الصَّيد والجمع الحديث سلوكيًّا، أو ذاك البدويُّ المهاجر في كلِّ زمان ومكان طلبًا للماء والكلأ والمرعىٰ إلىٰ فلَّاح مزارع، بدأ يُنشئ القرىٰ، ويستصلح الأراضي، ويحرثها، ويزرعها، ويفكِّر في حماية مجاله الحيويِّ؛ فأنشأ التِّلال الصِّناعيَّة بجوار قراه وممالكه الحديثة، وتكرَّست قيمة التَّعاون وتقسيم العمل في المجتمعات الجديدة، وأخذ العساكر ورجال الاتِّصالات مواقعهم فوق التِّلال؛ ولأنَّ التِّلال الطَّبيعيَّة أو الصِّناعيَّة قد تكون بعيدة عن الفلَّاح المشغول في حقله، إلىٰ حدٍّ تحول فيه المسافة البعيدة أو الرِّياح دون وصول الصَّوت البشريِّ الطَّبيعيِّ الصَّادر عن رجال الاتِّصالات فوق تلالهم؛ طوَّر هذا الإنسان الحديث سلوكيًّا نظامًا تواصليًّا رديفًا للغة البشر؛ فصار إشعال النَّار وإشهار دخانها فوق التِّلال رسالة دلاليَّة لها كثير من المعاني، وتطوَّرت التِّلال إلىٰ زقُّورات وأهرامات مدرَّجة ثمَّ بُنيت الأهرام المصريَّة، علاوة علىٰ تدجين

[1] للتَّوسُّع في هذه الفقرة وفهمها بتفصيلاتها الدَّقيقة يُنظر إلىٰ مجموعة من المراجع؛ نذكر منها: هاولز. وليام، **ما وراء التَّاريخ**، ص ١٠٠. ويُنظر: **العاقل (تاريخ مختصر للنَّوع البشريِّ)**، ص ١٢، ٣٤، ٣٦، ٧٥، ٧٦، ١١٤، ١١٥. ويُنظَر: **تأريخ قصير للبشر (الصُّعود والانحطاط، إعادة تشكيل ليبرتاريَّة)**، ص ٣٠-٣١.

الكلاب في مرحلة تاريخيَّة سابقة والاصطلاح علىٰ نباحها بوصفه رسالة من رسائل الإنذار المبكِّر.

وضَّح لنا علم الدَّلالة الجيوسياسيُّ مفهوم الإنسان، وفسَّر كثيرًا من تحوُّلات حياته منذ عصوره القديمة حتَّىٰ لحظة تمدُّنه في المجتمعات الزِّراعيَّة، الَّتي حظيت فيها أنظمة التَّواصل والحكم والتَّعاون بأهمِّيَّة كبيرة، وصولًا إلىٰ مجتمعات الثَّورة الصِّناعيَّة والثَّورة الرَّقميَّة وعصر العولمة وما بعدها، وبيَّن علم الدَّلالة الجيوسياسيُّ أهمِّيَّة المجال الحيويِّ من خلال نظريَّتي: **قلب الأرض وقلب اللُّغة**؛ اللَّتين سنشرحهما بإيجاز بعد الإشارة إلىٰ بعض الشِّعر العربيِّ الَّذي يتحدَّث عن دلالات التَّواصل بالنَّار والدُّخان، بوصفهما كنايتين رمزيَّتن توضِّحان أثر اللُّغة الكبير في التَّواصل والعلاقات الاجتماعيَّة والدِّبلوماسيَّة في علم الدَّلالة الجيوسياسيِّ، ولعلَّنا لا نفهم كثيرًا من مقاصد تلك المدوَّنات اللُّغويَّة وبُعدها التَّأثيريِّ إلَّا إذا أيقنَّا أنَّ إنسان الكلام الحديث سلوكيًّا قد أدرك أهمِّيَّة اللُّغة والتَّواصل بالشِّعر والخطابة؛ ولذلك راح يعتني علىٰ الدَّوام بأدوات التَّأثير في المتلقِّي وسياسة البشر أو توجيههم من خلال تطوير أنظمة التَّواصل الَّتي اخترعها وطوَّرها عبر العصور المتلاحقة، ويمكننا أن نعي في هذا المقام قول الخنساء (**٥٧٥-٦٤٥**.م) حين راحت تقارن شهرة أخيها صخر بشهرة النَّار التَّواصليَّة علىٰ رؤوس الجبال؛ حيث قالت:

وإنَّ صخرًا لتأتمُّ الهداة به كأنَّه علمٌ في رأسه نارُ

وصار بإمكاننا أن نفهم كرم الغساسنة الَّذي تحدَّث عنه حسَّان بن ثابت حين صوَّر اعتياد كلابهم علىٰ رؤية الضُّيوف وعدم نباحها علىٰ الزُّوَّار

الوافدين ليلًا؛ لتنذر أصحابها قدومَهم؛ فقد قال حسَّان بن ثابت الأنصاريُّ (**٥٥٤-٦٧٤م**) في مدح الغساسنة:

للهِ دَرُّ عصابةٍ نادمْتُهُمْ   يومًا بِجِلَّقَ في الزَّمانِ الأوَّلِ
الضّاربونَ الكبشَ يبرُقُ بيضُه   ضربًا يُطيح لنا بنان المفصلِ
يُغشَون حتَّىٰ ما تهرُّ كلابهم   لا يسألون عن السَّواد المُقْبلِ
بيضُ الوجوهِ كريمةٌ أحسابُهم   شُمُّ الأنوفِ من الطِّرازِ الأوَّلِ

وفي السِّياق ذاته نفهم هجاء الأخطل الكبير حين كنَّىٰ عن بخل المهجوِّين بنباح كلابهم علىٰ ضيوفهم، وإطفائهم النّار كيلا يُزاروا؛ حيث قال:

قومٌ إذا استنبح الأضياف كلبهُمُ   قالوا لأمِّهم: بولي علىٰ النَّارِ
فتُمسِكُ البولَ بخلًا أن تجودَ به   وما تبول لهم إلَّا بمقدارِ

٥ علم الدَّلالة الجيوسياسيُّ من قلب الأرض إلىٰ قلب اللُّغة

زادت نظريَّة **هالفورد ماكندر** (**Halford Mackinder**) (**١٨٦١-١٩٤٧م**) الجيوسياسيَّة حول (**قلب الأرض**) (**Heart land**) قدرة علم الدَّلالة الجيوسياسيِّ علىٰ تقديم قراءات دلاليَّة أكثر تماسكًا؛ راحت تفسِّر نشوء الدُّول أو انهيارها بمقولات دقيقة تشبه الحتميَّة التَّاريخيَّة، بعدما سادت فكرة الحدود الطَّبيعيَّة بتعليلاتها الجزئيَّة ردحًا طويلًا من الزَّمن[١]، وتأكَّدت أهمِّيَّة المعارف الإنسانيَّة كلِّها بوصفها سلاحًا ناعمًا يساعد علىٰ

[١] يُنظر: **الجغرافية السِّياسيَّة والجغرافيَّة السِّتراتيجيَّة**، ص ١٧.

الخلاص من الهيمنة أو العبوديَّة الطَّوعيَّة[١] والعنصريَّة الَّتي كرَّستها نظريَّة الموقع الحيويِّ بوصفه مؤثِّرًا مهمًّا في طبائع البشر وأفكارهم ومعتقداتهم وسلوكهم أيضًا[٢].

انتبه **ماكندر** إلىٰ ارتباط **قلب الأرض** الَّذي يتشكَّل من روسيا وإيران ومنغوليا وأجزاء من سيبيريا بقارَّات العالم القديم الثَّلاث، الَّتي سمَّاها **جزيرة العالم World Island**، ورأىٰ أنَّ من يحكم هذا المجال **الحيويَّ Pivot Area** سيقود كوكب الأرض؛ نظرًا لغنىٰ هذه المساحات الكبيرة بموارد الطَّاقة المتعدِّدة، وعدم خضوعها لأيٍّ من الأساطيل البحريَّة، الَّتي كانت تتحكَّم بالعالم؛ وذلك لبُعد أراضيها عن السَّواحل؛ «ولأنَّ أنهارها الرّئيسيَّة إمَّا أنَّها تصبُّ في المحيط المتجمِّد الشِّماليِّ، وهو عبارة عن بحر مغلق، أو أنَّها تصبُّ في بحيرات مقفلة، ممَّا لا يساعد علىٰ دخول الأساطيل البحريَّة إليها. وكانت أفريقيا في نظر **ماكندر**-خاصَّة تلك الأراضي من القارَّة الَّتي تقع جنوب الصَّحراء-قلبًا قارِّيًّا ثانويًّا يتَّصل بالقلب الشَّماليِّ عبر بلاد العرب»[٣].

*****

---

[١] يُنظر: دو لا بويسي، إيتيان، **مقالة في العبوديَّة الطَّوعيَّة**، ترجمة: عبُّود كاسوحة، مراجعة: جوزيف شريم، المنظَّمة العربيَّة للتّرجمة، ط١، بيروت ٢٠٠٨.م، ص ١٢١. ويُنظر: الرَّشيد، مهنًّا بلال، **الدِّيمقراطيَّة ومعوِّقات التَّعايش السِّلميِّ في بلدان الرَّبيع العربيِّ (سورية نموذجًا)**، مقال منشور ضمن كتاب جماعيٍّ لمجموعة من المؤلِّفين بعنوان: (**التَّعايش وأشكاله من منظور العلوم الإنسانيَّة**)، منشورات أوزون ديجيتال، ط١، إسطنبول ٢٠٢٠.م، ص ٣٢٧.

[٢] يُنظر: **لغات الفِرْدَوس**، ص ١١٥-١١٧.

[٣] **الجغرافية السِّياسيَّة**، القاهرة ١٩٩٦.م، ص ٢٩٣.

صاغ الباحث الرُّوسيُّ **الإسكندر ميخائيلوفيتش كندراتوف** (**Aleskander Mikhaiovych Kondratov**) (**١٩٣٧-١٩٩٣**.م) نظريَّته حول **قلب اللُّغة** **The Heart of Language** بعدما أدرك الأهمِّيَّة الكبيرة لأنظمة التَّواصل البشريَّة الطَّبيعيَّة والتِّقنيَّة الرَّقميَّة في علم الدَّلالة الجيوسياسيِّ ، وعنىٰ **بقلب اللُّغة**: مجموعة ألفاظ لغويَّة تقترب من **٥٠٠** لفظة، تُعدُّ من أكثر ألفاظ اللُّغة تكرارًا وأهمِّيَّة حيويَّة في أحاديث التَّواصل اليوميِّ؛ لأنَّها ضروريَّة جدًّا، وتصمد أمام التَّطوُّرات الدَّلاليَّة؛ فتربط الأحفاد بتراثهم ولغة أجدادهم، علىٰ نحو صمود بعض مفردات الإنكليزيَّة القديمة وإسهامها في جذب الشَّعب البريطانيِّ الحديث نحو أعمال **وليام شسكبير** (**William Shakespeare**) (**١٥٦٤-١٦١٦**.م)، ووجد أ.**كندراتوف** أنَّ قلب اللُّغة يظلُّ مصدرًا «لتوليد كلمات جديدة، ويظلُّ حيًّا في اللُّغة آمادًا طويلة تفوق القرون عددًا»[(١)] نظرًا لصموده أمام التَّطوُّرات الدَّلاليَّة، وأكَّد أنَّ السَّاعة اللُّغويَّة ليست بدقَّة السَّاعة الكربونيَّة المشعَّة بوصفهما أداتين لقياس التَّحوُّلات عبر الزَّمن؛ «فاللُّغة نتاج مجتمع وليست نتاج الطَّبيعة، وفضلًا عن ذلك فإنَّ معدَّل التَّغيُّر [فيها] بطيء للغاية ممَّا يضطرُّ المرء إلىٰ أن يتَّخذ في قياسه وحدات زمنيَّة بعيدة تقدَّر بمئات السِّنين»[(٢)] أو ألوفها.

---

(١)- **الأصوات والإشارات**، ص **١٠٤**.

(٢)- **الأصوات والإشارات**، ص **١٠٥**.

نبَّهت نظريَّة **قلب اللُّغة** إلىٰ أهمِّيَّة كلٍّ من **اللُّغة الأمِّ واللُّغة القوميَّة واللُّغة الرَّسميَّة والازدواجيَّة اللُّغويَّة**[١]، وكشف علم الدَّلالة الجيوسياسيُّ في ضوء من هذه النَّظريَّة الأثر الإيجابيَّ للُّغة الإنجليزيَّة في توحيد الشُّعوب المهاجرة إلىٰ الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة حين اختارتها طوعًا لغةً رسميَّة لها، مثلما وحَّدت اللُّغة العربيَّة الفصحىٰ أبناء الشَّعب العربيِّ، وعبَّرت عن مشاعرهم وأحاسيسهم القوميَّة الموحَّدة في كثير من المواقف التَّاريخيَّة، الَّتي عبَّر عنها خطباء العرب وشعراؤهم عبر تاريخهم الطَّويل، ولم تستطع القوىٰ الجيوسياسيَّة العظمىٰ أن تكسر وحدة الأمَّة العربيَّة؛ بسبب وحدتها اللُّغويَّة الَّتي جمعتها في كيان سياسيٍّ مع انتشار الإسلام وتوسُّع فتوحاته بوصفه عاملًا

---

[١] تعني **اللُّغة الأمُّ**: أوَّل لغة تلقَّاها الطِّفل في بيئته، واستخدمها لتحقيق الاتِّصال بينه وبين المحيطين به، نسبة إلىٰ المصدر الأوَّل الَّذي يتلقَّىٰ الطِّفل فيه اللُّغة، وإدراكًا للعلاقة الخاصَّة والوثيقة الَّتي تربط الوليد الإنسانيَّ بأمِّه كأوَّل كائن يتَّصل به. أمَّا **اللُّغة القوميَّة** فهي: تلك اللُّغة الَّتي ينُصُّ عليها الدُّستور، والَّتي يتعلَّمها أفراد مجتمع تتعدَّد لغاته الأمُّ وتتباين لهجاته ممَّا يفرض وجود لغة تربط بين أفراده فتوحِّد بينهم أساليب التَّعبير وتتقارب أنماط التّفكير، ويتحقَّق بينهم الاتِّصال المنشود، و**اللُّغة الرَّسميَّة** هي: اللُّغة الَّتي يُنَصُّ عليها في الدُّستور كلغة تخاطب رسميٍّ. وبها تصدر المنشورات والبيانات العامَّة، وبها تدار المحاكم، وتُدَرَّس بها المواد الدِّراسيَّة في الجامعات، وتتعامل بها شركات الطَّيران ووسائل الاتِّصال وغير ذلك من بعض مجالات العمل في دواوين الحكومة واللُّغة الرَّسميَّة في باكستان هي الإنكليزيَّة بينكما نجد اللُّغة القوميَّة هي الأردو. وفي الفلبِّين أيضًا نجد الإنكليزيَّة لغة رسميَّة بينما نجد التَّغالغ هي اللُّغة القوميَّة. يُنظر: طعمة، رشدي أحمد، **المرجع في تعليم اللُّغة العربيَّة للنَّاطقين بلغات أخرىٰ (الجزء الأوَّل: المنهج وطرائق التَّدريس)**، منشورات وحدة البحوث والمناهج، معهد اللُّغة العربيَّة، جامعة أمِّ القرىٰ، سلسلة دراسات في تعليم العربيَّة رقم ١٨، ط١، مكَّة المكرَّمة ١٩٨٦م، ص ٥٧-٥٨.

جيوسياسيًّا مساعدًا؛ فصار «من السَّهل جدًّا تأسيس دولة إسلاميَّة قويَّة شاسعة الأرجاء»[1]، يسندها عاملا اللُّغة والدِّين. وعلىٰ العكس من هذه المساندة فقد أدَّىٰ فرض اللُّغة الرُّوسيَّة القسريُّ علىٰ جمهوريَّات الاتِّحاد السُّوفياتيِّ إلىٰ تفكُّك هذا الاتِّحاد بعد قراءة جيوسياسيَّة خاطئة من السَّاسة الرُّوس حول مخاطر الحرب اللُّغويَّة بوصفها سلاحًا جيوسياسيًّا ذا حدَّين، وتفكَّكَ ذاك الاتِّحاد برغم أنَّ نفرًا من علماء الدَّلالة تنبَّؤوا له بسيادة العالم نظرًا لموقعه الحصين في قلب العالم[2].

٦ اللُّغة والوعي السِّياسيُّ

لا يخفىٰ علىٰ الباحث في علم الدَّلالة الجيوسياسيِّ كثير من آثار اللُّغة في قيادة الشُّعوب وتوجيهها وتشكيل وعيها السِّياسيِّ أيضًا، وقد سُبِق كثير من الأحداث السِّياسيَّة والحروب والمعارك والحركات الفكريَّة والتَّغيُّرات الجيوسياسيَّة العالميَّة الكبرىٰ بخُطب عصماء، أو ترافقت مع قصائد فريدة، أو تزامنت مع ضخٍّ إعلاميٍّ، أو مناظرات تروِّج لهذا المذهب، أو تُفنِّد ذاك، وما المناظرات السِّياسيَّة قبيل انتخابات الرِّئاسة الأمريكيَّة بين مرشَّحَي الحزبين: الدِّيمقراطيِّ والجمهوريِّ إلَّا تجلٍّ معاصر لارتباط اللُّغة بالدِّيمقراطيَّة وأثرها في تشكيل الوعي السِّياسيِّ. وكذلك يحفل التَّاريخ العالميُّ بأمثلة كثيرة من الخطب والقصائد والكتب والمؤلَّفات السِّياسيَّة والمراسلات والمعاهدات

---

(١) **الجغرافية السِّياسيَّة**، ص ١٣٦.

(٢) **الجغرافية السِّياسيَّة**، ص ١٤١.

الدِّبلوماسيَّة، الَّتي كان لها دور كبير في صياغة التَّاريخ العالميِّ وإرساء السَّلام الدُّوليِّ عبر العصور؛ مثل: كتاب **كليلة ودمنة** في الوعظ السِّياسيِّ، الَّذي استطاع أن يحوِّل الهند إلىٰ مَلَكِيَّة دستوريَّة؛ تحفظ حقوق الرَّعيَّة، وتسوسهم بالعقل والمنطق، ثمَّ تُرجم هذا الكتاب إلىٰ كلٍّ من الفارسيَّة القديمة والعربيَّة الفصحىٰ نظرًا لأهمِّيَّته الجيوسياسيَّة الكبيرة.

ويرجع بعض المؤلَّفات الجيوسياسيَّة القديمة إلىٰ ألفي سنة أو ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد، وتؤكِّد كلُّها دور اللُّغة في إرساء العدل والقانون وصياغة السِّياسة والتَّوجيه السِّياسيِّ وإرساء السَّلام الدُّوليِّ؛ كمسلَّة حمورابيّ البابليَّة الَّتي عوَّلت علىٰ التَّواصل اللُّغويِّ في إرساء الشَّريعة والقانون، وأدَّت مراسلات تلِّ العمارنة الدِّبلوماسيَّة بين فراعنة مصر وملوك سورية وبابل وآشور دورًا مشابهًا لدور شريعة حمورابي. وعلىٰ هذا النَّحو نفهم تأثير كلٍّ من **محاورات أفلاطون (Plato ٤٢٤-٣٤٨ قبل الميلاد)** وكتابه **الجمهوريَّة**، وكتابي **أرسطو (Aristotle ٣٨٥-٣٢٣ قبل الميلاد)**: **فنِّ الشِّعر وفنِّ الخطابة**، ومجموعة كبيرة من أشعار العرب وخطبهم ومؤلَّفاتهم في الجاهليَّة وبعد الإسلام؛ كخُطب **قِسِّ بن ساعدة** الإياديِّ (....-٦٠٠.م)، وشعر **المُتلمِّس الضُّبعيُّ** (....-٥٨٠.م) حول صحيفته ومديح **النَّابغة الذُّبيانيِّ (٥٣٥-٦٠٤.م)** واعتذاريَّاته الدِّبلوماسيَّة بين مملكتي: **المناذرة والغساسنة** المتصارعتين، ومعلَّقة **عمرو بن كلثوم (٥٢٦-٥٨٤.م)** الَّتي صارت نشيدًا وطنيًّا لقبيلة تغلب العربيَّة، ومعلَّقة **زهير بن أبي سُلمىٰ (٥٢٠-٦٠٩.م)** الَّتي مجَّدت السَّلام ورسَّخته، وكذلك فقد حفلت مجالس ملوك العرب وخلفائهم

بكثير من مدوَّنات علم الدَّلالة الجيوسياسيِّ ونقاشاته، الَّتي يضيق المجال عن ذكرها، ونكتفي بالإشارة إلىٰ خطبة **أبي بكر الصِّدِّيق (٥٧٣-٦٣٤.م)**-رضي الله عنه-ودورها الجيوسياسيِّ البارز في رعاية الإسلام وحفظه في مهده الأوَّل بعد وفاة **الرَّسول محمَّد صلّىٰ الله عليه وسلَّم**، الَّذي دُوِّن اسمه علىٰ رأس قائمة تضمُّ أعظم مئة رجل علىٰ مرَّ التَّاريخ؛ فقد أخرج البخاريُّ عن أبي سلمة عن ابن عبَّاس «أنَّ أبا بكر خرج وعمر يكلِّم النَّاس، فقال: اجلس يا عمر، فأبىٰ عمر أن يجلس، فأقبل النَّاس إليه، وتركوا عمر؛ فقال أبو بكر: أمَّا بعد من كان منكم يعبد محمَّدًا؛ فإنَّ محمّدًا قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإنَّ الله حيٌّ لا يموت»[١]. وما زالت هذه الخطبة واحدة من أهمِّ وثائق علم الدَّلالة الجيوسياسيِّ عبر التَّاريخ.

[١] اليحيىٰ، يحيىٰ بن إبراهيم، **الخلافة الرَّاشدة والدَّولة الأمويَّة من فتح الباري جمعًا وتوثيقًا**، دار الهجرة للنَّشر والتَّوزيع، طبعة دون تاريخ، ص١٧٤-١٧٥.

٧ خاتمة الفصل ونتائجه

زاد الاهتمام بعلم الدَّلالة العامِّ بعدد تمدُّد بعض الدُّول الأوروبِّيَّة في آسيا وأفريقيا مطلع القرن التَّاسع عشر، وصار علم الدَّلالة العامَّ علمًا شموليًّا ترتبط بعض مصادره ببداية وجود الإنسان علىٰ سطح الأرض؛ كالدِّراسات الأنثروبولوجيَّة علىٰ سبيل المثال. وفي مطلع القرن العشرين تشكَّلت ملامح علم الدَّلالة الحديث، وبعد ذلك بمئة سنة تقريبًا تبلور علم الدَّلالة الجيوسياسيُّ في مطلع الألفيَّة الميلاديَّة الثَّالثة، وانتظمت في إطار منهجيَّته الدَّقيقة مصادر قديمة وروافد حديثة متعدِّدة؛ كفقه اللُّغة المقارن والجغرافية السِّياسيَّة واللِّسانيَّات الجنائيَّة، فأكَّدت مباحث هذا العلم الحديث علىٰ أهمِّيَّة الإنسان في حيِّزه الحيويِّ تأثُّرًا وتأثيرًا، وتجلَّت في هذا العلم فاعليَّة بعض النَّظريَّات الدَّلاليَّة المهمَّة؛ كنظريَّتي: قلب الأرض وقلب اللُّغة، اللَّتين أكَّدتا أهمِّيَّة النِّظام التَّواصليَّ في سيطرة الإنسان علىٰ حيِّزه الحيويِّ؛ فبرز دور اللُّغة وتأثيرها الكبير في المتلقِّي؛ من حيث قيادته وتوجيهه وتشكيل وعيه السِّياسيِّ عمومًا.

٦ خاتمة الكتاب

عرَّفنا في فصول هذا الكتاب بمجموعة من علوم الدَّلالة، وأفردنا أربعة فصول للحديث عن أربعة منها بعد مقدِّمة وتمهيد بيَّنَّا فيهما أنَّ علم الدَّلالة قديم قِدم الإنسان ذاته، وأنَّه علم حركيٌّ لا سكونيٌّ؛ بمعنىٰ أنَّه علم يتطوَّر دائمًا؛ فتزداد العلامات الدَّالَّة في هذا الباب أو ذاك المجال من مجالات الحياة؛ حتَّىٰ تشكِّل علمًا قائمًا بذاته؛ تستقلُّ عن أصلها؛ وهكذا اتَّسع علم الدَّلالة وتشعَّب بتشعُّب مجالات الحياة وتعدَّد بتعدُّدها؛ فصار علومًا في الدَّلالة لا علمًا واحدًا.

نظرًا لتعدُّد علوم الدَّلالة وكثرتها خصَّصنا الفصل الأوَّل للتَّعريف بأهمِّها، وتحدَّثنا عن ثمانية وعشرين علمًا منها؛ لها رموزها وأيقوناتها وعلاماتها ودوالُّها ومدلولاتها وسياقاتها ومرجعيَّاتها، الَّتي تُقرأ في ضوئها نصوصها، وتُؤوَّل علىٰ هدىٰ منها مدوَّناتها، وتأكَّدت لنا حركيَّة علوم الدَّلالة وتطوُّرها المستمرُّ، وحين عرضنا لعلوم الدَّلالة المتعدِّدة في وقتنا الرَّاهن ومرجعيَّاتها المتعدِّدة وسياقاتها التَّاريخيَّة المتنوِّعة تكشَّفت لنا أسباب تعدُّد التَّأويلات؛ لتعدُّد المرجعيَّات والسِّياقات والثَّقافات، وظهر لنا أنَّه بإمكاننا أن نصنِّف علوم الدَّلالة تصنيفًا موضوعيًّا أو تصنيفًا مرجعيًّا أو تصنيفًا سياقيًّا تاريخيًّا أو غير ذلك من طرق التَّصنيف.

وأفردنا الفصل الثَّاني للحديث عن علم الدَّلالة القديم؛ لأنَّه أصل علوم الدَّلالة كلِّها، وجذرها الَّذي نبتت منه تلك العلوم، وتفرّعت منه أبوابها

ومباحثها؛ قبل أن تصير تلك الأبواب والفصول والمباحث علومًا قائمة بذواتها، مستقلَّة بأنفسها. وتكلَّمنا في هذا الفصل علىٰ مجموعة من النُّصوص والمدوَّنات والمرويَّات الشَّفويَّة الدَّلاليَّة القديمة، ثمَّ تحدَّثنا عن أهمِّ مصادر علم الدَّلالة القديم، وتبيَّن لنا علمانيَّة هذا العلم وإنسانيَّته وشراكة الشُّعوب البشريَّة كلِّها في صناعة هذا المنجز الحضاريِّ المهمِّ.

تحدَّثنا في الفصل الثَّالث من هذا الكتاب عن علم الدَّلالة الأنثروبولوجيِّ؛ لأنَّه علم يوزاي علم الدَّلالة القديم في قِدمه وعراقته وأصالته وعلمانيَّته أيضًا، بل يتفوَّق عليه في القدم بعض الأحيان؛ لأنَّ العلامات الدَّالَّة المدروسة في هذا العلم تكون مستحاثَّات الأقوام القديمة وعظامهم وقبورهم وآثارهم المتعدِّدة في كثير من الأحيان، ويضاف إليها كلُّ ما ينفع تحليله، وتفيد دراسته في وقتنا الرَّاهن للإضاءة علىٰ أصل البشر وتطوُّر مراحل حياتهم عبر التَّاريخ.

زوَّدَنا كلٌّ من علم الدَّلالة القديم وعلم الدَّلالة الأنثروبولوجيُّ بنصوص ومدوَّنات دلاليَّة قديمة، تحتاج إلىٰ علم يختصُّ بها أو يتخصَّص بدراستها بعيدًا عن النُّزوع الأيديولوجيِّ؛ فكان الفصل الرَّابع من هذا الكتاب لعلم الدَّلالة النَّصِّيِّ وتأويل النُّصوص بين الفيلولوجيا والأيديولوجيا، وبرغم حصافة الفيلولوجيا ونزاهة فقه اللُّغة المقارن في تأويل النُّصوص القديمة حين يتولَّاها باحث موضوعيٌّ مبدع؛ إلَّا أنَّ الهزَّات الأيديولوجيَّة الكثيرة الَّتي تنازع فقه اللُّغة المقارن والفيلولوجيا علىٰ تأويل

النُّصوص جعلت من ظهور علم الدَّلالة النَّصِّيِّ ضرورة ملحَّة؛ ولذلك أفردنا لهذا العلم الفصل الرَّابع من فصول هذا الكتاب.

وجاء الحديث عن علم الدَّلالة الجيوسياسيِّ في الفصل الخامس تتويجًا لحديث دلاليٍّ مفصَّل في أبواب الكتاب وفصوله الأربعة الأولىٰ؛ وذلك لأنَّ علم الدَّلالة الجيوسياسيَّ يهتمُّ بقيادة المجتمع وتوجيه البشر وسياستهم والتَّأثير فيهم؛ وهذا يحتاج إلىٰ معرفة كثيرة بطبائعهم وخصائصهم وأديانهم ومعتقداتهم وثقافاتهم والعوامل السِّياسيَّة والاقتصاديَّة والتَّاريخيَّة والجغرافيَّة المؤثِّرة حياتهم؛ وتبيَّن لنا أنَّ نصوص هذا العلم واسعة جدًّا، ولها سياقات متعدِّدة؛ يحتاج الباحث فيها والرَّاغب في تأويلها معرفة بكثير من العلوم الدَّلاليَّة السَّابقة قبل التَّصدِّي لدراسة نصٍّ من نصوص علم الدَّلالة الجيوسياسيِّ؛ مع العلم أنَّ نصًّا واحدًا من نصوص هذا العلم قد يكون خريطة طوبوغرافيَّة أو سياسيَّة لموقع جغرافيٍّ يسكنه قوم ما، أو تشرف عليه دولة، وتتنازع عليه مع دول أخرىٰ؛ لذلك يستعين القادة بأصحاب الرَّأي السَّديد لتأويل هذا النَّوع من النُّصوص قبل اتِّخاذ هذا الموقف السِّياسيِّ أو ذاك.

ثبت المصادر والمراجع

١- **القرآن الكريم**.

٢- أ.كندراتوف، **الأصوات والإشارات**، ترجمة: شوقي جلال، الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب، ط١، **١٩٧٢**.م.

٣- ابن زروق، نصر الدِّين، **محاضرات في اللِّسانيَّات العامَّة**، مؤسَّسة كنوز الحكمة للنَّشر والتَّوزيع، ط١، الجزائر **٢٠١١**.م.

٤- أحمد، عبد الله نذير، **خزانة العلوم في تصنيف العلوم الإسلاميَّة ومصادرها (شرح رسالة اللُّؤلؤ النَّظيم في رَوْم التَّعلُّم والتَّعليم لشيخ الإسلام أبي يحيىٰ زكريَّا الأنصاريِّ)**، دار البشائر الإسلاميَّة، طبعة بدون تاريخ.

٥- أنيس، إبراهيم، **دلالة الألفاظ**، مكتبة الأنجلوالمصريَّة، ط**٣**، القاهرة **١٩٧٢**.م.

٦- أولسون، جون، **علم اللُّغة القضائيُّ (مقدِّمة في اللُّغة والجريمة والقانون)**، ترجمة: د.محمَّد بن ناصر الحقبانيُّ، منشورات جامعة الملك سعود، ط١، الرِّياض **٢٠٠٨**.م.

٧- أولَنْدر، موريس، **لغات الفِرْدَوس، (آريُّون وساميُّون: ثنائيَّة العناية الإلهيَّة)**، ترجمة: جورج سليمان، مراجعة: سميرة ريشا، المنظَّمة العربيَّة للتَّرجمة، ط١، بيروت **٢٠٠٧**.م.

٨- إينس، براين، **الأدلَّة الجنائيَّة (عالم التَّحقيقات الجنائيَّة المدهشة وكيف ساعد علىٰ حلِّ لغز أكثر من ١٠٠ جريمة حقيقيَّة)**، ترجمة: مركز التَّعريب والبرمجة، الدّار العربيَّة للعلوم، ط١، بيروت ٢٠٠٢م.

٩- بالمر، فرانك، **مدخل إلىٰ علم الدَّلالة**، ترجمة: خالد محمود جمعة، مكتبة دار العروبة للنَّشر والتَّوزيع، ط١، الكويت ١٩٩٧م.

١٠- البُخاريُّ، الإمام محمَّد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة، **صحيح البخاريُّ**، حقَّق أحاديثه وعلَّق عليه: محمَّد ناصر الدِّين الألبانيُّ، دار الصِّدِّيق للنَّشر والتَّوزيع، ط٤، الرِّياض ١٩٩٧م.

١١- برجستراسر، **أصول نقد النُّصوص ونشر الكتب (محاضرات المستشرق الألمانيِّ برجستراسر)**، إعداد وتقديم: محمَّد حمدي البكريُّ، دار المرَّيخ، ط١، الرِّياض ١٩٨٢م.

١٢- بهنسيُّ، عفيف، **وثائق إيبلا**، منشورات وزارة الثَّقافة والإرشاد القوميِّ، ط١، دمشق، ١٩٨٤م.

١٣- بورديو، كارل، **التُّلفزيون وآليَّات التَّلاعب بالعقول**، ترجمة وتقديم: درويش الحلوجيِّ، منشورات دار كنعان للدِّراسات والنَّشر والخدمة الإعلاميَّة، ط١، دمشق ٢٠٠٤م.

١٤- تشاندلر، دانيال، **أسس السِّيميائيَّة**، ترجمة: طلال وهبة، مراجعة: ميشال زكريَّا، منشورات المنظَّمة العربيَّة للتَّرجمة، ط١، بيروت ٢٠٠٨م.

١٥- جحفة، عبد المجيد، **مدخل إلىٰ الدَّلالة الحديثة**، منشورات دار توبقال للنَّشر، ط١، المغرب ٢٠٠٠م.

١٦- الجرَّاح، عامر، **الإجراءات التَّداوليَّة التَّأثيريَّة في التُّراث العربيِّ بين التَّأويل والحِجاج والإنجاز**، دار سنابل، ط١، إسطنبول ٢٠١٩م.

١٧- الجرَّاح، عامر، **التَّفكير البيانيُّ عند العرب (قراءة تداوليَّة)**، دار سنابل، ط١، إسطنبول ٢٠١٩م.

١٨- الجميليُّ، عامر عبد الله، **الكاتب في بلاد الرَّافدين القديمة**، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، ط١، دمشق ٢٠٠٥م.

١٩- جيرو، بيير، **علم الدَّلالة**، ترجمة: منذر عيَّاشيِّ، دار طلاس، ط١، دمشق ١٩٩٢م.

٢٠- حجاج، كلود، **إنسان الكلام (مساهمة لسانيَّة في العلوم الإنسانيَّة)**، ترجمة: رضوان ظاظا، مراجعة: مصباح الصَّمد، بسَّام بركة، المنظَّمة العربيَّة للتَّرجمة، ط١، بيروت ٢٠٠٣م.

٢١- حسنين، صلاح الدِّين صالح، **الدَّلالة والنَّحو**، منشورات مكتبة الآداب، ط١، بدون تاريخ.

٢٢- حنَّون، نائل، **شريعة حمورابي (ترجمة النَّصِّ المسماريِّ مع الشُّروحات اللُّغويَّة والتَّاريخيَّة)**، دار المجد للطِّباعة والنَّشر، ط١، دمشق ٢٠٠٥م.

٢٣- الخطيب، عبد اللَّطيف محمَّد، **أصول الإملاء**، دار العروبة، ط٤، الكويت ٢٠١١م.

٢٤- الدَّاية، فايز، **علم الدَّلالة العربيُّ (النَّظريَّة والتَّطبيق، دراسة تاريخيَّة، تأصيليَّة، نقديَّة)**، منشورات دار الفكر، ط٢، دمشق ١٩٩٦م.

٢٥- دروزة، محمَّد عزَّة، **تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم**، مطابع شركة الإعلانات الشَّرقيَّة، طبعة دون تاريخ.

٢٦- دو لا بويسي، إيتيان، **مقالة في العبوديَّة الطَّوعيَّة**، ترجمة: عبُّود كاسوحة، مراجعة: جوزيف شريم، المنظَّمة العربيَّة للتَّرجمة، ط١، بيروت ٢٠٠٨م.

٢٧- ديبيا فيشنو شارما (بَيدَبا/ ديبيا)، **كليلة ودِمنة**، ترجمة: روزبة بن داذويه المشهور بعبد الله بن المقفَّع، منشورات مكتبة زهران، ط١، القاهرة ٢٠٠٥م.

٢٨- ديَّوب، سمر، **النَّصّ العابر (دراسات في الأدب العربيِّ القديم)**، منشورات اتِّحاد الكتَّاب العرب، ط١، دمشق ٢٠١٤م.

٢٩- رانغهام، ريتشارد، **قدحة نار (دور الطَّهي في تطوُّر الإنسان)**، ترجمة: فلاح رحيم، منشورات هيئة أبو ظبي للثَّقافة والتُّراث (كلمة)، ط١، أبو ظبي ٢٠١٠م.

٣٠- السَّامرَّائيُّ، إبراهيم، **التَّطوُّر اللُّغويُّ التَّاريخيُّ**، دار الأندلس، ط٢، بيروت، ١٩٨١م.

٣١- السِّجستانيُّ الحنبليُّ، أبو بكر عبد الله بن سليمان بن الأشعث المعروف بابن أبي داود، **كتاب المصاحف**، دراسة وتحقيق ونقد: الدُّكتور محبُّ الدِّين عبد السَّجَّان واعظ، دار البشائر الإسلاميَّة، ط٢، بيروت، ٢٠٠٢م.

٣٢- سعيد، الصَّافي، **جيوبوليتيك الدَّم (التَّاريخ الأسير والجغرافية المتصدِّعة)**، منشورات سوتيميديا، ط٢، تونس ٢٠١٦م.

٣٣- سلاميُّ، عبد القادر، **علم الدَّلالة في المعجم العربيِّ**، منشورات مكتبة الآداب، ط١، عمَّان-الأردن ٢٠٠٧م.

٣٤- سليرييه، الأميرال بيير، **الجغرافية السِّياسيَّة والجغرافيَّة السِّتراتيجيَّة**، ترجمة: أحمد عبد الكريم، الأهالي للنَّشر والتَّوزيع، ط١، دمشق ١٩٨٨م.

٣٥- سميث، شارلوت سيمور، **موسوعة علم الإنسان المفاهيم والمصطلحات الأنثروبولوجيَّة**، منشورات المركز القوميُّ للتَّرجمة، ط١، القاهرة، ٢٠٠٩م.

٣٦- شاهين، عبد الصَّبور، **في علم اللُّغة العامِّ**، منشورات جامعة حلب، ط١، حلب ١٩٨١م.

٣٧- الصَّلَّابيُّ، عليُّ محمَّد محمَّد، **السِّيرة النَّبويَّة (عرض وقائع وتحليل أحداث، دروس وعبر)**، منشورات دار ابن كثير، ط ٩، دمشق ٢٠١٩م.

٣٨- الضَّباح، عبد الرَّحمن بن محمَّد، وآل جابر، سلطان بن سعيد، **الكيمياء الجنائيَّة، منشورات وزارة الدَّاخليَّة السّعوديَّة (كلِّيَّة الملك فهد الأمنيَّة، مركز الدِّراسات والبحوث)**، ط١، الرِّياض ٢٠١٣م.

٣٩- طعمة، رشدي أحمد، **المرجع في تعليم اللُّغة العربيَّة للنَّاطقين بلغات أخرىٰ (الجزء الأوَّل: المنهج وطرائق التَّدريس)**، منشورات وحدة البحوث

والمناهج، معهد اللُّغة العربيَّة، جامعة أمّ القرىٰ، سلسلة دراسات في تعليم العربيَّة رقم ١٨، ط١، مكَّة المكرَّمة **١٩٨٦**م.

٤٠- عبد الجليل، منقور، **علم الدَّلالة (أصوله ومباحثه في التُّراث العربيِّ)**، منشورات اتِّحاد الكتَّاب العرب، ط١، دمشق **٢٠٠١**م.

٤١- عبد الهادي أوغلو، أحمد، ومجموعة مؤلفين، **الأدب الشَّفهيُّ العربيُّ في ماردين**، دار كريتار، ط١، اسطنبول **٢٠١٩**م.

٤٢- العصيميُّ، صالح بن فهد، **اللِّسانيَّات الجنائيَّة (تعريفها ومجالاتها وتطبيقاتها)**، منشورات مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدُّوليِّ لخدمة اللُّغة العربيَّة، ط١، الرِّياض **٢٠٢٠**م.

٤٣- عمر. أحمد مختار، **البحث اللُّغويُّ عند الهنود وأثره علىٰ اللُّغويِّين العرب**، دار الثَّقافة، ط١، بيروت **١٩٧٢**م.

٤٤- عمر، أحمد مختار، **علم الدَّلالة**، منشورات عالم الكتب، ط٧، القاهرة **٢٠٠٩**م.

٤٥- فخريُّ، أحمد، **دراسات في تاريخ الشَّرق القديم (مصر والعراق-سوريا-اليمن-إيران-مختارات من الوثائق التَّاريخيَّة)**، مكتبة الأنجلو المصريَّة، ط٢، القاهرة **٢٠٠١**م.

٤٦- فخريُّ، أحمد، **مصر الفرعونيَّة (موجز تاريخ مصر منذ أقدم العصور حتَّىٰ عام ٣٣٢ قبل الميلاد)**، منشورات مكتبة الأسرة والهيئة المصريَّة للكتاب، ط١، القاهرة **٢٠١٢**م.

٤٧- فرانك، **مدخل إلىٰ علم الدَّلالة**، ترجمة: خالد محمود جمعة، مكتبة دار العروبة للنَّشر والتّوزيع، ط١، الكويت **١٩٩٧**.م.

٤٨- فراي، نورثروب، **تشريح النَّقد، ترجمة وتقديم: محيي الدِّين صبحيِّ**، منشورات وزارة الثَّقافة، ط١، دمشق **٢٠٠٥**.م.

٤٩- الفيروزاباديُّ، **القاموس المحيط**، مكتبة الرِّسالة، ط٤، بيروت **٢٠١٥**.م.

٥٠- الكاشف، جمال، **الفِراسة بين الأمس واليوم (كيف تتفرّس في وجوه النّاس وتقرأ أفكارهم؟)**، دار الطَّلائع، ط١، القاهرة **١٩٩٤**.م.

٥١- كشَّاش، محمَّد، **علل اللِّسان وأمراض اللُّغة وانعكاساتها الاجتماعيَّة**، دار العلم للملايين، ط١، دمشق، بدون تاريخ.

٥٢- مانغونو، دومينيك، **المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب**، ترجمة: محمَّد يحياتن، منشورات: الدَّار العربيَّة للعلوم ناشرون ودار الاختلاف، ط١، الجزائر **٢٠٠٨**.م.

٥٣- مانهايم، كارل، **الأيديولوجيا واليوتوبيا (مقدِّمة في سوسولوجيا المعرفة)**، ترجمة وتقديم: محمَّد رجا عبد الرَّحمن الدَّيرينيُّ، شركة المكتبات الكويتيَّة، ط١، الكويت **١٩٨٠**.م.

٥٤- مجموعة من المؤلِّفين: (سيلفان أورو، جاك ديشان، جمال كولوغلي)، **فلسفة اللُّغة**، ترجمة وتقديم: بسَّام بركة، مراجعة: ميشال زكريَّا، المنظَّمة العربيَّة للتَّرجمة، ط١، بيروت **٢٠١٢**.م.

٥٥- محمَّد، محمَّد حجازيُّ، **الجغرافية السِّياسيَّة**، القاهرة **١٩٩٦**.م، طبعة دون تصنيف (د.ت).

٥٦- المهديُّ، السَّيِّد، **مسرح الجريمة ودلالته في تحديد شخصيَّة الجاني**، ترجمة: مركز التَّعريب والبرمجة، دار النَّشر بالمركز العربيِّ للدِّراسات الأمنيَّة والتَّدريب، ط١، الرِّياض **١٩٩٣**.م.

٥٧- ناظم، سلوىٰ، **التَّرجمة السَّبعينيَّة للعهد القديم بين الواقع والأسطورة**، طبعة بدون تاريخ مودعة بدار الكتب في القاهرة برقم **٨٥٩٨/ ٨٨**، ورقم الإيداع الدّوليّ **٤/ ٣٧/ ٢٣٨/ ٩٧٧**.

٥٨- نهر، هادي، **علم الدَّلالة التَّطبيقيُّ (في التُّراث العربيِّ)**، دار الأمل للنَّشر والتَّوزيع، ط١، أربد، الأردن، **٢٠٠٧**.م.

٥٩- النَّديم، أبو الفرج محمَّد بن إسحق النَّديم، **الفهرست**، تحقيق: رضا تجدُّد، طبعة محقَّقة دون نشر وتاريخ.

٦٠- هاولز. وليام، **ما وراء التَّاريخ**، ترجمة وتقديم: أحمد أبو زيد، محمَّد الجوهريُّ، المركز القوميُّ للتَّرجمة، ط١، القاهرة **٢٠١١**.م.

٦١- هراريُّ، يوفال نوح، **العاقل (تاريخ مختصر للنَّوع البشريِّ)**، ترجمة: حسين العبريِّ، صالح بن علي الفلاحيِّ، دار منجول للنَّشر، ط١، نيودلهي، الهند **٢٠١٨**.م.

٦٢- هوبه، هانز هيرمان، **تأريخ قصير للبشر (الصُّعود والانحطاط، إعادة تشكيل ليبرتاريَّة)**، ترجمة: حيدر عبد الواحد راشد، سطور للنّشر والتَّوزيع، ط١، بغداد **٢٠١٧**.م.

٦٣- هوكينغ. ستيفن، **الثُّقوب السَّوداء والأكوان الطِّفلة ومواضيع أخرىٰ**، ترجمة: حاتم النَّجديُّ، مراجعة: عبد الحليم منصور. دار طلاس للدِّراسات والتَّرجمة والنَّشر، ط١، دمشق **١٩٩٨**.م.

٦٤- ولفنسون، إسرائيل، **تاريخ اللُّغات السَّاميَّة**، منشورات لجنة التَّأليف والتَّرجمة والنَّشر ومطبعة الاعتماد، ط١، القاهرة **١٩٢٩**.م.

٦٥- ويس، أحمد محمَّد، **ثانيَّة الشِّعر والنَّثر في الفكر النَّقديِّ (بحث في المشاكلة والاختلاف)**، منشورات وزارة الثَّقافة، ط١، دمشق **٢٠٠٢**.م.

٦٦- اليحيىٰ، يحيىٰ بن إبراهيم، **الخلافة الرَّاشدة والدَّولة الأمويَّة من فتح الباري جمعًا وتوثيقًا**، دار الهجرة للنّشر والتّوزيع، طبعة دون تاريخ.

٦٧- يعقوب، إميل، **المعاجم اللُّغويَّة العربيَّة بداءتها وتطوُّرها**، دار العلم للملايين، ط١، بيروت، **١٩٨١**.م.

المراجع الأجنبيَّة:

٦٨- DE SAUSSURE, Ferdinand, Mémoire sur le système primitif des voyelles dans les langues indo-européennes, Source gallica.bnf.fr, Bibliothèque nationale de France. LEIPSICK, 1879.

٦٩- DE SAUSSURE, Ferdinand, De l'emploi du génitif absolu en sanscrit, Thèse pour le Doctorat, présentée a la Faculté de Philosophie de l'Université de Leipzig, imprimerie Iules-Guillaume Fick, Genève, 1881.

المجلَّات والدَّوريَّات والمقالات:

٧٠- الرَّشيد. مهنَّا بلال، **علم الدَّلالة القديم؛ (مفهومه، نشأته، مصادره، مجالاته وتطبيقاته)**، دار سونجاغ، ط١، أنقرة **٢٠٢٠**.م، بحث منشور في كتاب جماعيٍّ بعنوان: **مراجعات في علوم اللُّغة والأدب التُّراثيَّة والوافدة.**

٧١- الرَّشيد، مهنَّا بلال، **الدِّيمقراطيَّة ومعوِّقات التَّعايش السِّلميِّ في بلدان الرَّبيع العربيِّ (سورية نموذجًا)**، مقال منشور ضمن كتاب جماعيٍّ لمجموعة من المؤلِّفين بعنوان: **(التَّعايش وأشكاله من منظور العلوم الإنسانيَّة)**، منشورات أوزون ديجيتال، ط١، إسطنبول **٢٠٢٠**.م.

٧٢- الكاطع، سامر، **بلاغة الدُّعاء في الأدب الشَّعبيِّ الماردينيِّ**، مقال في كتاب: الأدب الشَّفهيِّ العربيِّ في ماردين، تحرير: أحمد عبد الهادي أوغلو، دار كريتار، ط١، اسطنبول، **٢٠١٩**.

المؤلِّف





دكتوراه في علم الدَّلالة والنَّقد السِّيميائيِّ.

أستاذ علم الدَّلالة وفلسفة التَّاريخ في جامعة ماردين.

Mahanna2012@yahoo.com

من مواليد سوريا (إدلب-معرَّة النُّعمان-تَلْدَبَس) ١٩٨١م.

كاتب وناقد وإعلاميٌّ.

المؤلَّفات المطبوعة:

١- **الدَّلالة والتَّحوُّل الرَّمزيُّ في الشِّعر العربيِّ المعاصر بين ١٩٨٠-٢٠١٠م.**

٢- **علوم الدَّلالة** (تصنيفها وتطبيقاتها في الأدب والفنِّ والسِّياسة والحياة).

٣- **علم الدَّلالة القديم** (قراءة سوسيولوجيَّة في التَّطوُّر الدَّلاليِّ لكثير من الأشياء).

٤- **رحلة الشِّعر العربيِّ وتحوُّلاته الرَّمزيَّة من الأساطير الأولىٰ إلىٰ ما بعد الحداثة** (دراسة سيميائيَّة فيلولوجيَّة مقارنة).

٥- **النُّزوع السِّيميائيُّ في الشِّعر العربيِّ المعاصر.**

٦- **جماليَّة الإيقاع في تجربة سعيد عقل الشِّعريَّة.**

٧- **حَفْلُ توقيع** (مجموعة قصصيَّة).

٨- **خَطَّابة** (مسرحيَّة كوميديَّة).

فصول هذا الكتاب الخمسة ثمرة بحث دلاليّ طويل، بدأته منذ أكثر من عشر سنوات، ثمّ تكلّل هذا البحث الدّلاليّ الطّويل بخمس مشاركات علميّة؛ نشرتُ اثنتين منها في كتابين جماعيّين محكّمين، وشاركت بثلاثة منها في مؤتمرات علميّة دُوليّة محكّمة، وبعد ذلك استجبتُ لطلب نفر من علماء الدّلالة والتّأويل المخلصين، وجمعت تلك البحوث الدّلاليّة في هذا الكتاب، الّذي عكفتُ فيه على تأصيل علوم الدّلالة وشرح مصطلحاتها، وأفردته للحديث عن مجموعة كبيرة منها، وعرضت لأسباب تعدُّدِها، وكشفت عن ضرورة ترتيبها وتصنيفها، وبيّنتُ طرائق البحث فيها وأسباب الاختلاف في التّأويل وتعدّد مرجعيّاته، ثم فصّلتُ القول في أربعة من أشهر علوم الدّلالة، هي: علم الدّلالة القديم، وعلم الدّلالة الأنثروبولوجيّ، وعلم الدّلالة النّصّيّ، وعلم الدّلالة الجيوسياسيّ.

آملُ أنّني أضفتُ-في كتابي هذا-بعض اللّبنات المفيدة لصرح علوم الدّلالة والتّأويل الّتي أبحث فيها منذ زمن بعيد، وحقّقتُ بعض الفائدة المرجوّة من هذا الكتاب للباحثين في مجالات: الدّلالة والتّأويل والتّفسير والخطابة والحجاج وبلاغة الخطاب ونقده ودراسته وتأويله وتحليله.

المؤلف








